

جان بول سارتر

الغشيان

رواية



ترجمة د. سهيل إدريس

## ورقة بلا تاريخ

سيكون الأفضل كتابة الأحداث يوماً فيوماً . تسجيل يوميات تتيح مواجهة الأمور بوضوح . وينبغي تجنب إهمال القروق والدقائق والامور الصغيرة ، حتى ولو كانت تبدو لا قيمة لها ، وينبغي تخصيصاً تصنيفها . يجب أن أقول كيف أرى هذه الطاولة ، والشارع ، والناس ، ورزمة ثبني ، مادام « هذا » هو الذي تثير . يجب تحديد مدى هذا التغير وطبيعته تحديداً دقيقاً . فهذه مثلاً علبة كرتون تحتوي على زجاجة جيري . ينبغي ان أحاول القول كيف كنت أراها « من قبل » ، وكيف الآن <sup>(١)</sup> حسناً ! إنها شكل متوازي المستطيلات ، وهي تفصل عن - هذا سطح ، فليس ثمة ما يُقال عنها . هذا ما ينبغي تجنبه . يجب ألا نصح الغرابة حيث لا يوجد شيء . واعتقد أن هذا موضع الخطر لمن يسجل اليوميات : إنه يبالغ في كل شيء ، وهو في حالة ترصد ، وهو يحرف الحقيقة بلا انقطاع . ومن جهة أخرى أكيد أنني أستطيع ، بين لحظة وأخرى - وبصدد هذه العلبة بالذات او بصدد أي شيء آخر - ان استشر مجدداً ذلك الانطباع الذي أحسسته امس الاول . يجب ان اكون دائماً على أهبة ، والا فان هذا الانطباع سيُمُت من بين اصابعي مرة أخرى . يجب ألا <sup>(٢)</sup> شيئاً ، وانما يجب ان اسجل بعناية وبأكبر تفصيل ممكن كل ما يحدث .

(١) كلمة متروكة بيشه .

(٢) كلمة مشطوبة ( قد تكون « اختصر » ) وهناك كلمة مكتوبة على الهامش ، ولكنها

غير مفرومة .

طبعاً ، ليس بوسعي بعدُ ان اكتب كتابة واضحة عن قصص السبت وأمس الاول ، فلقد بتعدّ عهدي بها كثيراً ، على ان افول إنه لم يقع في الحالة الاول ولا في الحالة الثانية ما ألفت الناس أن يدعوه بالحدث . كان الصبية يوم السبت يلعبون بفذف الحجارة على سطح الماء ، وكنت اريد ان اذلف مثلهم حصاة في البحر . وفي تلك اللحظة ، توقفت وألفت بالحصاة ثم انصرفت . ولا بدّ ان مظهري كان مظهر شرود . على الأرجح ، ما دام الصبية قد ضحكوا حين عطفهم . هذا ما يحسّ الخارج . اما ما حدث في داخل ، فانه لم يترك آثاراً واضحة . كان ثمة شيء . فدرأته فإثار اشترازي ، ولكني لا ادري بعدُ هل كنت انظر ان البحر ام ال الحصاة . كانت الحصاة مسطحة . جافة في احد جانبيها ، رطبة موحلة في الجانب الآخر . وكنت امسك بها من اطرافها ، واصابعي متباعدة جداً ، لا تجنّب تلوث يدي .

غير ان الامر كان ، أمس الاول ، اشدّ تعقيداً . ثم انه قد حدثت تلك السلسلة من المصادفات والالطاسات التي لم افهمها . ولكني لن أنسى بسرد هذا كتلة على الورق . ومنها يكن ، فقد كان امكيداً اني قد اصابني الخوف ، او شعور من هذا القبل . ولو كنت ادري ما الذي خلفت منه ، لكنت قد عطلت خطوة كبيرة .

ولتعجب في الامر ، اني حل غير استعداد اطلاقاً لأحسني مجنوناً ، بل انا ارى بوضوح اني لست كذلك - فجميع هذه التغيرات تتعلق بالاشياء . او هنا حل الأقل ما اودّ ان اكون حل يقين منه .

#### الساعة العاشرة والنصف (١١)

ربما كان الامر . في آخر المطاف ، نوبة جنون ، وليس باقياً منها أي اثر .

(١) مساء الطلع . والمقطع التالي كتب بعد المقاطع السابقة بوقت طويل . ونحن نميل الى الاحتفاء بأنه كتب ، حل اخر تفهيم ، في اليوم التالي

وإن الأحاسيس العجبية التي راودتني في الأسبوع الماضي ، تبدو لي اليوم مضحكة جداً ، وأذا لا أحس بها بعد . إني في هذا المساء في رضى تام . وفي وضع يورجو زوي طيب في العالم . هاهنا غرفتي المتجهة نحو الشمال الشرقي . ونحني شارع « الثوبليه » وورشة المحطة الجديدة . وأنا أرى من نافذتي ، عند زاوية جادة « فيكتور - توار » الشعلة الحمراء والبيضاء لمقهى « رانديفو دي شامينو » . لقد وصل قطار باريس ، وهاهم الناس يخرجون من المحطة القديمة وينتشرون في الشوارع ، إني أسمع حتى أصواتنا . وكثير من الناس ينتظرون الترام الأخير . ولا بد أنهم يشكلون جماعة صغيرة حزينة حول مصباح الغاز ، تحت نافذتي تماماً . إن عليهم أن ينتظروا بفصح دقائق أخرى : إن الترام لم يمر قبل الساعة العاشرة والحامسة والأربعين . المهم ألا يأتي الليلة مسافرون من التجار : فأنا شديد الرغبة في النوم ، وعليّ أن أعود كثيراً من النوم الذي فاني ليلة هادئة ، ليلة واحدة ، كخيلة بكنس هذه القصص جميعاً .

الساعة الحادية عشرة إلا الربع : ليس ثمة بعد ما يُخشى منه ، فأنهم سيكونون قد وصلوا . إلا إذا كان الدور اليوم دور السيد الذي يأتي من « روان » . إنه يأتي كل اسبوع ، وتحفظ له الغرفة رقم ٢ ، في الطابق الأول ، تلك التي ها مرحضة . فمن الممكن بعد أن يأتي : فهو غالباً ما يأخذ قدح بيرة في « رانديفو دي شامينو » قبل أن ينام . والحق أنه لا يحدث كثيراً من الضجة . إنه قصير جداً ، ونظيف جداً ، وهو ذو شارب اسود ملتصع وشعر مستعار . هاهو ذا .

وحين سمعته يرفق الدرج ، أحسست بخفق يسير في صدري ، لشدة ما كان ذلك مطمئناً : هاي شيء يُخشى من عاكر منتظم إلى هذا الحد ؟ أحب إليّ قد سُفيت .

(١) وترجمتها « لطفي مال السكك الجديدة » - القلم .

وعا هو ذا الترام رقم ٧ « اباتوار - غران باسان » . إنه يصل في ضجة كبيرة من صوت الحديد . ثم يُقطع . وهو الآن يدلف ، محملاً بالحفائب والأولاد التائمين ، نحو « ليفران باسان » نحو الصانع ، في « الشرق » الأسود . إنه الترام الذي يسبق آخر ترام ، أما الأخير ، فيسير بعد ساعة .

سانام . لقد شُفيت ، وإني قد عدلت عن كتابة انطباعاتي يوماً فربما ، على غرار ما تفعل الفتيات الصغيرات ، في دفتر جمل جديد . على أنه ربما كان ممحاً ، في حالة واحدة ، ان اكتب يومياتي : في حالة ما إذا <sup>(١)</sup> .

---

(١) هنا يتوقف نص الورقة التي هي بلا تاريخ .

## دفتر اليوميات

الاثنين ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٢

لقد حدث لي شيء ما ، وليس بوسعي بعد أن اشك في ذلك . تمّ على شكل مرّص ، لا كيقين عادي ، ولا كحقيقة بدئية . ولقد انسلّ خفية ، رويداً رويداً ، وكل ما في الأمر أنني أحسني غريباً بعض الشيء ، مترعجاً بعض الشيء . وإذا بلغت الساحة ، كف عن التحرك وسكن . فتمكنت من الاقتناع بأنه لم يكن بي شيء ، وأن ذلك كان رعباً مزيفاً . ولكن هاهو ذا الآن يتفتح .

لأنني لا اعتقد أن مهنة المؤرخ سببي . لتحليل النفسي . ولم يكن يعني ، في قضيتنا ، إلا عواطف كاملة تُطلق عليها أسماء أجناس كـ «الطمع» و «القائدة» . ومع ذلك ، إذا كنت أملك خلاصاً من المعرفة لِنفسي ، فإن هذا هو ألوان الإفادة منه . إن في يدي . مثلاً ، شيئاً ما جديداً ، طريقة ما لتناول غليونني أو شوكوتي . أو هي الشوكة التي لها الآن طريقة ما تتيح أمر تناولها ، لست أدري . حين همت الساعة بدخول غرفتي ، توقفت فجأة ، لأنني كنت أحس في يدي شيئاً بارداً كان يلفت انتباهي بلون من ألوان الشخصية . وفتحت يدي ونظرت . فإذا أنا ممسكٌ ، بكل بساطة ، بمزلاج الباب . وهذا الصباح ، في المكينة ، حين أتيل المعصامي ،<sup>١</sup> يلفني على التجة ، قضيت عشر ثوانٍ لتذكّره .

(١) هو «أوبيه ب . . » الذي سيرد غالباً في هذه اليوميات . لقد كان مستخدم مباشر ، وكان روكستان قد تعرف به عام ١٩٣٠ في مكتبة بوميل .

كنت أرى وجهاً مجهولاً ، وجهاً بالكاد . ثم انه كانت هناك يده ، كدودة ضخمة بيضاء ، في يدي . وسرعان ما تركتها . نسقطت اللواح باسترخاء . وفي الشارع أيضاً تنهادى كمية من الضجيج المبهم .

والذن ، فقد حدث تغير ، في هذه الأسابيع الأخيرة . ولكن أين ؟ إنه تغير مجرد لا يحط على شيء . أأكون أنا الذي تغيرت ؟ إن لم أكن أنا ، فهي إذن هذه الفرقة ، هذه المدينة ، هذه الطبيعة ، لا بد من الاعتبار .

...

أعتقد أنني أنا الذي تغيرت : ذلك يسر الحلول . وهو أكرهها ايضاً . ولكن يجب ان اعترف اخيراً أنني معرض لهذه التغيرات المفاجئة . والواقع أنني نادراً ما أفكر ، ولذلك يحدث ان تتجمع في طائفة من التحولات الصغيرة من غير ان أنبه لها ، ثم يأتي يوم تحدث فيه ثورة حقيقية . وهذا ما اكب حياتي هذا المظهر المتناثر ، اللامتسجم . فحين غادرت فرنسا ، مثلاً ، ووجد كثيرون يقولون إنني غادرتها بدافع من عناد . وحين عدت إليها ، فجأة ، بعد ستة اعوام من السفر ، استطاعوا بكل سهولة ايضاً ان يتحدثوا عن العناد . واني ما زلت أعتقدني مع « مرسيه » في مكتب ذلك الموظف الفرنسي الذي استقال في العام الفائت إثر قضية « بتروه » . وكان مرسيه متجهاً الى البنغال في بعثة أثرية . وكنت قد طالما وددت الذهاب الى البنغال ، وكان يحثني على الانضمام اليه . وأنا الآن اتساءل عن سبب ذلك . وأعتقد انه لم يكن وانفساً من « بورنال » وانه كان يعول علي لمراقبته . ولم اكن اجد اي سبب للرفض . وحتى لو كنت قد استشرت آنذاك هذه المؤامرة الصغيرة بشأن « بورنال » ، فان ذلك كان سبباً إضافياً يعملني على القبول في حامية . ولقد كنت مشلولاً ، ولم أكن أستطيع ان اقول كلمة . وكنت أهدق في تمثال هندي صغير ، على سجادة خضراء ، بالقرب من جهاز تلفوني . وكان يجبل إلي أنني كنت ممتلئاً باللعنات او بالحليب القاتر . وكان مرسيه يقول لي بصبر ملائكي كان يحجب بعض الحقائق :

- أجل ، إني بحاجة لأن أناكد رسمياً . أنا اعلم ان الأمر سينتهي  
بك الى القبول : فالأفضل ان تقبل على الفور .  
وكانت له لحية ذات سواد محمر ، معطرة تعطرأ كثيفاً . وقد  
كنت أستشق لدى كل حركة من رأسه نفحة عطر . ثم استيقظت  
فجأة من سبات سة أعوام .

وبدا لي المثال كريهاً بليداً ، وأحسنت أنني كنت شيئاً ساماً عميلاً .  
ولم أكن أستطيع ان أفهم لماذا كنت في الهند الصينية . ما الذي كنت أفعله هناك ؟  
لماذا كنت أتحدث مع هؤلاء الناس ؟ ولماذا كنت أرثدي هذه الثياب المجيبة  
حقاً ؟ كان "هوسي" قد مات . وكان قد غمرني ودحرجني طوال سنوات ،  
وهأنذا أحسني الآن فارغاً . ولكن ذلك لم يكن الأسوأ : فقد كانت  
نحط "أمامي" ، في نوع من التافل ، فكرة ضخمة نافهة . ولا أعرف  
جيداً ما كانت هذه الفكرة ، ولكني لم أكن أستطيع ان انظر إليها ،  
لغرض ما كانت تنفرتني . وذلك كله ، كان يخرج عندي بعطر لحية مرسية .  
وانقضت ، وقد طلع غضبي عليه ، فأجبت بجفاء :

- أشكرك ، اعتقد أنني قد سافرت بما فيه الكفاية : فيجب الآن  
ان اعود الى فرنسا .

وفي اليوم التالي ، كنت أسفل الباخرة الى مرسيليا .  
إذا لم أكن مخطئاً ، وإذا كانت جميع العلامات التي تتجمع تشير  
بانقلاب جذبي في حياتي ، فاني خائف . ليس ذلك لأنها غنية ، حياتي ،  
او لأنها مثقلة ، او لأنها ثمينة . وإنما انا خائف مما سيولد ويبتولي  
عليّ - ويجرّني الى اين ؟ اينحي لي بعد ان ارحل ، وان اترك كل  
شيء في التصميم ، تحقيقاتي وكتابتي ؟ اتراني سأستيقظ بعد شهر ، بعد  
اعوام ، مجهداً ، خائفاً ، وسط أنقاض جديدة ؟ كم أود لو انحصرت  
في ذاتي بوضوح قبل ان يفوت الأوان .



## الثلاثاء ٣٠ كانون الثاني

لا جديد

عملت من الساعة التاسعة حتى الواحدة في دار الكتب وقد دسجت الفصل الثاني عشر وكل ما يتعلق بإقامة رولبون في روسيا ، حتى موت بول الاول . هو ذا عمل ناحز . لمن اهم به بعد حتى يحين تبييضه . انها الساعة الواحدة والنصف . وأنا في مقهى مابلي . اتناول سندويشاً ، وكل شيء طبيعي تقريباً . والحز ان كل شيء في المقاهي ، وخاصة في مقهى مابلي ، طبيعي دائماً . بسبب المدير السيد فاسكيل الذي يعمل في وجهه مظهرأ سوياً وضعياً يدعو الى الاطمئنان ان ساعة قبوله تحين عما قبل ، وقد بدأت عبتاه تتوردان . ولكن مشيته تظل حبة عازمة . وهو يستره بين الطاولات ، ويقرب خفية من الزبائن

— هل أنت راض يا سيدي ؟

وأشتم اذ اراه بهذه الحيوية : فحين يمرغ مقهاه ، يمرغ راسه ايضاً . إن المقهى يصبح خالياً بين الثانية والرابعة ، واد ذاك يقوم السيد فاسكيل بوضع خطوات ، في هيئة بلهه ، ويطغى الخدم الانوار . فينسل في البراءة : ان هذا الرجل . حين يكون وحده . ينام

كان زهاء عشرون زبواً من العزّاب والمهنتيين الصغار والمستحامين ، ما يزالون في المقهى . انهم يتناولون غداهم على عجل في كُرز عاتلة يسمونها مطاعمهم ، ولما كانوا بحاجة الى شيء من الترف . فاتهم يتجهون الى هذا المقهى . بعد الطعام ، فيحتسون القهوة ويلعبون سوكر ، وهم يُحدثون بعض الضجة ، ضجة واهنة لا ترعجي إن عبيهم ، هم ايضاً ، لكي يوجدوا ، ان يتعدّدوا

أما انا ، فأعيش وحيداً ، وحيداً كل الوحدة . اني لا أتحدث مع احد ، ابدأ ، لا أتلقى شيئاً ، ولا أعطي شيئاً . و العصامي ، لا حساب له . صحيح ان هناك فرانسواز ، صاحبة مقهى رانديفو دي شامينو ، ولكن هل

أتحدث حقاً معها ؟ إنني أحياناً أسأله ، بعد العشاء ، حين أقدم لي قهقري :

- هل لديك وقتٌ هذا المساء ؟

وهي لا تقول قط " لا " ، فأتبعها إلى إحدى غرف الطابق الأول الكبيرة التي تزورها بالساعة أو النهار. وأنا لا أضع لها : فنحن نقوم بفعل الحب مزدوجاً . وهي تصيب في ذلك متعة ( أنها بحاجة إلى رجل كل يوم ، ولديها آخرون غيري ) وهكذا أنظهر من بعض الكلمات التي أعرف جيداً أسبابها . ولكننا لا نكاد نبادل إلا بعض الكلمات . وما جدوى ذلك ؟ إن " كلاماً " لنفسه ، ثم اني أضل في نظرها قبل كل شيء زيوفاً من زبائن مقهاها . وهي تقول لي ، بينما تتزع ثوبها :

- قل لي هل تعرف هذا المشهي المسمى " بريكور " ؟ لقد طلبه زبونان هذا الأسبوع . ولم تكن الخادسة تعرفه ، فأقبلت تخبرني : وكانا رجلاً اثنين ولا بد أنهما شرياء في باريس . ولكنني لا أحب أن أشتري دون أن أعرف . إذا لم يكن لديك مانع ، فأحفظ بحوربي .

وقد حدث في الماضي - بعد أن انقضى وقت طويل على تركها ليأي - أن فكرت في " آني " . أما الآن ، فانا لا أفكر بعد في أحد ، بل أنا لا أهتم حتى بالبحث عن الكلمات . إنها تسيل في ، متراوحة السرعة ، فأدعها تظفر ، من غير أن أثبت شيئاً . فإذا أخطأت وتعلقت بالكلمات ، فإن أفكاري تظل معظم الوقت نوعاً من الضباب . إنها ترسم أشكالاً مبهمة مضحكة ، وتغور : وسرعان ما أنساها .

إن هؤلاء الشبان بدعشوني : فهم يروون ، أذ يحشون قهونهم ، قصصاً واضحة ومحتملة الوقوع . وإذا سئلوا عما فعلوا بالأمس ، لا يضطربون بل إنهم يطلعونك على الواقع بكلمتين . ولو كنت مكانهم لطلعت . ومن الحق أن ليس ثمة بعد من يهتم بكيفية استعمال وقتي . إن من يعيش وحيداً ، لا يعرف حتى معنى أن يروي . فإن أحوال الوقوع يخفي في الوقت نفسه الذي يخفي فيه الأصدقاء . والأحداث كذلك أنها تُترك لتجري ، كُرى

أناساً يتبعون نجاة وهم يتكلمون ويمضون ، فغرق في فمض لا رأس لها ولا ذنب ؛ وهكذا نكون شهوداً مقبطين . ولكننا ، تعويضاً عن ذلك ، لا نفوت كل ما هو غير محتمل الوقوع ، كل ما لا يمكن أن يصدق في المقامي . فقد حدث مثلاً يوم السبت ، حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، ان امرأة قصيرة ترندي ثوباً سماوياً أزرق ، كانت تركز القهقري وهي تضحك وتلوح بمندبل . وفي الوقت نفسه ، كان زنجي " يلبس مشعاً حلبي اللون ويتمتع حذاء أصفر ويضع قبعة خضراء ، ينطف عند زاوية الشارع وهو يصفر . ولقد صدمته المرأة في تفهقها ، تحت فانوس معلق بسياج بضاء في السماء . وإذن ، فقد كان ثمة في الوقت نفسه ، هذا السياج الذي تنبعث منه رائحة خشب مبتل ، وذلك الفانوس وهذه المرأة القصيرة الشقراء بين ذراعي زنجي ، تحت سما من نار . وأنا المرض أنا لو كنا أربعة أو خمسة ، للاحظنا الصدمة ، وهذه الألوان الرقيقة جميعاً ، وذلك المعطف الجميل الأزرق الذي كان يشبه لحافاً من زغب ، والمشمع القانع اللون ، ومربعات الفانوس الحمراء ، وكنا لنضحك من الدهشة التي كانت ترسم على ذينك الوجهين الطفليين .

ولكن يندر ان نجد رجلاً وحيداً يرغب في الضحك : صحيح ان مجموع المشهد قد انتعش في نظري بمعنى قوي بل ووحشي ، ولكنه بقي . ثم تفتح ، فلم يبق إلا الفانوس ، والسياج ، والسماء : وكان هذا أيضاً جميلاً بما فيه الكفاية . ولكن بعد ساعة ، كان الفانوس مضاءً ، والريح تئن ، وكانت السماء سوداء : ولم يكن قد بقي شيء على الإطلاق .

هذا كله ليس جديداً جداً ، هذه الانفعالات التي لا تؤذي ، لم أرفضها قط ، بل على العكس . فيكفي من يريد ان يستشعرها ان يكون وحيداً بعض الشيء ، وحيداً بما فيه الكفاية ليستخلص في اللحظة المناسبة من احتمال الوقوع . ولكني كنت أبقي قريباً جداً من الناس ، على سطح الوحدة ، مصماً كل التصميم على ان ألتجئ إليهم في حالة الخطر : وهكذا كنت ، حتى ذلك الحين ، هاوياً .

اما الآن ، فان في كل مكان اشياء شبيهة بهذا القدرح من البيرة القائم هناك على الطاولة . وحين اراه ، تأخذني الرغبة في ان اقول : كفى ! اني اكف عن التعب . وانا افرك جيداً اني مضيت ابعد مما ينبغي . اني ارفض ان ليس بالامكان اخذ الوحدة بعين الاعتبار . غير ان ذلك لا يعني اني انظر فيما تحت سريري قبل ان انام ، ولا اني اخشى ان ارى باب غرفتي يفتح فجأة في وسط الليل . ولكني مع ذلك قلق : فما قد انقضى نصف ساعة وانا تجنب ان « انظر » الى هذا القدرح من البيرة . اني انظر الى فوق ، والى تحت ، والى اليمين ، والى اليسار : اما « هو » فلا اريد ان اراه . وانا اعلم جيداً ان جميع الغزائب الذين يحيطون بي لا يمكن ان يقدموا لي اية معونة : فلقد فات الاوان ، وليس بإمكانني بعد ان الشجى اليهم . سوف يأتيون ليربثوا على كفتي ويقولوا لي : ماذا هناك ، هذا القدرح من البيرة ؟ انه ككل الأقداح . انه مائل الحافة ، وهو ذو عروة ، ويعمل ترساً صغيراً مع مسحاة ، وقد كُتب على القوس « سابثرو » . وانا اعرف هذا كله ، ولكني اعلم ان هناك شيئاً آخر . بكاد لا يكون شيئاً ولكني لا استطيع ان اشرح ما اراه . لا استطيع ان اشرحه لأحد . وهكذا : أنزلق على مهل إلى جوف الماء . نحو الخوف .

اني وحيد وسط هذه الأصوات القرحة المعقولة . إن جميع هؤلاء الأشخاص يقضون وقتهم في التعبير عن آرائهم ، وفي الاعتراف اعترافاً سهيلاً بأنهم يتفاسمون الرأي نفسه . فيا للأهمية التي يعلقونها . يا إلهي ، على ان يفكروا جميعهم معاً في الأشياء نفسها . يكفي ان ترى سيحتهم حين يمر بينهم احد هؤلاء الأشخاص ذوي العيون السمكية والذين يبدون وكأنهم ينظرون في داخلهم والذين لا يمكن بعد ان يكونوا معهم على وفاق . حين كنت في الثامنة من عمري وكنت العب في حديقة اللكسبورغ ، كان ثمة واحداً منهم يأتي ليجلس في مَرَقَب قائم عند الحاجز الذي يمتد بمحذاء شارع اوغست كونت . ولم يكن يتكلم ، ولكنه كان بين القرة والأخرى يمد ساقه وينظر إلى قدمه نظرة مذعورة . وكانت هذه القدم تشتمل حذاء ، بينما كانت الأخرى في

بابوج . وقد قال الحارس لحالي إن ذلك الرجل كان رقيقاً ، وقد أحيل إلى الضاعد لأنه كان قد جاء بقرأ العلامات الشهيرة في الصفوف وهو يرندي الثوب الأكاديمي . وكنا نشعر تجاهه بخوف مريع لأننا كنا نشعر أنه كان وحيداً . وقد ابتسم ذات يوم لروبير ، فبما كان يعد له دراجه من بعيد : «أوشك أن يفسى على روبير . ولم يكن ينبغينا مظهر هذا الرجل البائس ، ولا الدمى الذي كان في رقبته ، وكانت يافته المستعارة تحمكه بطرفها . ولكننا كنا نشعر أنه كان يشكّل في رأسه أفكار مخرب أو سرطان ، وكان يُرهبنا أن يستطيع انسان أن يشكّل أفكار سرطان عن المرقب ، وعن دواليبنا وعن الأعشاب .

أهذا إذن ما يتظنني ؟ إنه يُسئني للمرة الأولى أن اكون وحيداً . اني اود ان اتحدث عما يحدث لي قبل ان يفوت الأوان . قبل ان أخيف الأطفال . اود لو تكون آتني هنا .

عجياً : لقد ملأت عشر صفحات ولم اقل الحقيقة - على الأقل لم اقل كل الحقيقة . فاني حين كتبت ، تحت التاريخ ، عبارة « لا جديد » ، انما فعلت ذلك بنية سيئة : فالواقع ان قصة صغيرة ، ليست معية ولا عجيبة ، كانت ترفض ان تخرج . « لا جديد » . بمعنى كم يستطيع المرء ان يكذب وهو يجعل الحق في جانبه . بالطبع ، لم يحدث شيء جديد ، إذا صح التعبير : وانما حدث هذا الصباح ، في الساعة الثامنة والربع ، إذ كنت خارجاً من فندق برناتيا لأتجه إلى دار الكتب ، ان اردت التقاط ورقة كانت ملقاة على الأرض . فلم استطع . هذا كل شيء ، وهو ليس حتى حادثاً . نعم ، ولكنني اضيف ، لكي أقول الحقيقة كلها ، اني تأثرت لذلك بالغ التأثير : فقد فكرت بأنني لم أكن حراً . وفي دار الكتب حاولت ، بلا نجاح ، أن انحرر من هذه الفكرة . و اردت ان امرب منها الى مفهى مابيلي . وكنت أؤمل ان تتلاشى تحت الأضواء . ولكنها ظلت قابضة هنا ، في نفسي ، ثقبلة ومؤلمة . وهي التي أملت على الصفحات السابقة

لماذا تراني لم أتحدث عنها ؟ لا بد ان ذلك كان بدافع الكبرياء ، وكان ايضاً ، الى حد ما ، بدافع الخرق والارتباك . انني لم اعتد ان اروي نفسي ما يحدث لي ، ولذلك لا أجد ثانية تسلل الأحداث ، ولا أميز ما هو هام . ولكن الأمر انتهى الآن : لقد قرأت ما كنت اكتبه في مقهى مايلي ، فسمعت بالحجل ، انني لا أريد اسراراً ، ولا حالات نفسية ، ولا ما لا يمكن أن يُعبر عنه ، فأنا لست بكراً ولا كامناً ، حتى ألعب لعبة الحياة الداخلية . ليس عندي كثير أقوله : انني لم أستطع ان انتقط الورقة ، هذا كل شيء .

انني أحب كثيراً ان انتقط حبات الكستناء ، والخرق القديمة ، ولا سيما الاوراق . بلذني أن آخذها ، وان أغلق عليها يسدي ، واوشك ان أحلها الي في . كما يفعل الأطفال . وكانت آتي تدخل في الوان يضاء من الغضب حين كنت ارفع اطراف اوراق ثقيلة ضخمة ، ولكنها على الأرجح ملطخة بالخراب . إن الانسان غالباً ما يجد في الخدائق ، في الصيف أو مطلع الخريف ، قصاصات جرائد سلقها الشمس ، فعدت جافة قابلة للكسر ، كالأوراق الميتة . مصفوفة جداً حتى يُظن ان حمض البكريك قد داخلها . وفي الشتاء ، توجد أوراق اخرى وقد دُفئت وسحقت ولطخت . فهي تمسود الى الأرض : وأوراق اخرى جديدة ، بل ولا معة ، شديدة البياض ، خافتة ، تنتصب كالأور . ولكن الأرض تكون قد دبقتها من الأسفل ، فاذا هي تظوى . وتنتزع نفسها من الوحل ، ولكنها ما تلبث ان تذهب فتستطح نهائياً على بُعد يسير . هذا كله لدم أن يلتقط . وقد اكتفي احباً بجسها وانا انظر اليها عن كتب . وأحياناً اخرى امزها لأسمع عشيختها الطويلة ، او أشعلها ، اذا كانت رطبة جداً ، مما لا يتم بلا جهد ، ثم أسمع راحتي المثلثين وحلاً بجدار أو بجذع شجرة .

إذن . فقد كنت اليوم أنظر الى حذاء أشقر ينتعله ضابط في الفرسان ، كان خارجاً من الكنف . وإذا كنت اتابع الحذاء بنظري ، رأيت ورقة جامحة بالقرب

من مستنقع . وحسبت أن الضابط سيسحق بعله الورقة في الوحل ، ولكن لا :  
لقد تخطى بخطوة واحدة الورقة والمستنقع . واقتربت : كانت صفحة كاملة  
لا شك في أنها منتزعة من دفتر مدرسة . وكان المطر قد بللها ولوّاها ،  
وكانت مغطاة بالتجعدات والتورم ، كيد محترقة . وكان خط الهامش  
الأحمر قد حال الى ندى وردي ، وكان الجبر قد سال في عدة أماكن ،  
وكان أسفل الورقة ضامعاً تحت قشرة من الوحل . ولقد انحنيت تأخذني  
الفرحة ان أمسّ هذه العجيبة الطرية النضرة التي ستدحرج تحت أصابعي  
في كريات رمادية ... ولم أستطع .

وطللت لحظة منحنياً ، وقرأت « إملاء : اليوم الأبيض . » ثم استفمت ،  
غالي اليدين ، انني لست بعدُ حرّاً ، لا أستطيع بعدُ أن أفعل ما أريد .  
إن الأشياء ينبغي ألا « تلمس » ، ما دامت لا تعيش . اننا نستهلكها ،  
ونضعها في أماكنها ، ونعيش وسطها : إنها نافعة ، لا أكثر . أما انا ،  
فهي تلمسني : وهذا لا يطاق . انني اتخاف ان اتصل بها ، كما لو  
أنها كانت حيوانات حية .

انني الآن أرى ، انني أتذكر افضل من ذي قبل ما شعرت به ذلك  
اليوم ، عند شاطئ البحر ، حين كنت ممسكاً بتلك الحصاة . كان ذلك  
لوناً من الاشتراز اللبذ . وما كان أكرهه ! وانا على يقين من أن ذلك  
كان صادراً عن الحصاة ، وكان ينتقل من الحصاة الى يدي . أجل ،  
هوذا الأمر ، هوذا : نوعٌ من « الغثيان » في يدي .

صباح الخميس ، في دار الكتب .

حين كنت أهبط درج الفندق الساعة ، سمعت لومي تتقدم ، للمرة المئة ،  
بشكواها الى صاحبة الفندق ، فيها هي تمسح الدرجات . وكانت صاحبة الفندق  
تتكلم في جهد وبعبارة قصيرة لأنها لم تكن قد حصلت بعد على طقم  
أسنانها المستعار . وكانت عارية تقريباً ، في رويدبشامبر وردي ، وبابوج .

وكانت لوسي قلقة ، على عاداتها ، وكانت بين القينة والفينة تتوقف عن الدالك وتتصب على ركبتيها لتنظر إلى سيدتها . وكانت تتكلم بلا انقطاع ، وبلهجة متعقطة ، فتقول :

- افضل منة مرة أن يركض ، إن هذا لدي سواء ، ما دام ذلك لا يلحق به ضرراً .

وكانت تتحدث عن زوجها : كانت هذه المرأة القصيرة السراء ذات الشعر الأسود بما وفرته من مال قد اتخذت لها ، وهي في الأربعين من عمرها ، شاباً فاتناً ، يعمل مُحْكماً في مصانع لوكرانت . أنها شقية في زواجها . ولم يكن زوجها يضربها أو يخنونها ؛ وإنما كان يشرب ، وكان يعود ثملًا كل مساء . وكان سيء الصحة ، ولقد رأته في ثلاثة أشهر ينضع ويدوب . وتعتقد لوسي أن السبب في ذلك هو الخمر ، بينما إذا أرجع انه مسلول . وكانت لوسي تقول : - يجب أن انطب على هذا الشقاء .

وأنا على يقين من أن ذلك يتأكلها . ولكن على مهل ، وفي صبر ؛ ونظيت ، ولكنها ليست قادرة على أن تنزى ولا على أن تستلم لمصبتها . وهي تفكر في ذلك قليلاً ، قليلاً جداً . من هنا ومن هناك . وتنتفل على . ولا سيما حين تكون مع الناس . لأهم يعرفونها . ولأنه يسلها قليلاً أن تتحدث بلهجة حاسمة ، وفي ظاهر من إعطاء النصيح . وإذا تكون وحيدة في الغرف ، اسمعها تدمدم لتجنب التفكير . ولكنها طوال النهار ضجرة ، وسريعاً ما تبدو غايبة متعبة ، فتقول وهي تلامس حنجرتها :

- إن الأمر هنا ، يكاد يعقني .

أما نتائم كالبخلاء . ولا يد أنها بخيلة بالنسبة لمايجها . وأنا أنامل عما إذا لم تكن تنتمى أحياناً أن تتحرر من هذا الألم الرتيب ، من هذه المصهبات التي تعود ما أن تكف عن الغناء . عما إذا لم تكن تنتمى أن نتائم مرة واحدة ، أن نغرق في اليأس . ولكن ذلك . بأي حال ، سيكون محالاً عليها ، أنها معقدة .



### بعد ظهر الخميس :

« كان السيد دوروليون قبيحاً جداً . وكان يروق الملكة انطونيت ان تدعوه بـ « لردتها العريضة » . ولكن كانت له مع ذلك جميع نساء البلاط ، لا بطريقة المزاح كما كان يفعل « فوازنون » ، الفرد : وإنما بجاذبية كانت تدفع انتصاراته الحميلة إلى أبعد حدود الغوس . انه يحبك الدسائس ويمثل دوراً مريباً في قضية « العقد » ثم يخفي عام ١٧٩٠ . بعد ان يكون قد عقد تجارة متصلة مع ميرابو - توفو ونيرسيا . ثم يلغز عليه في روسيا . حيث يقتال قليلاً بول الأول . ومن ثم يسافر إلى أبعد البلاد ، إلى الهند والصين وتركستان . وهو يعمل في التهريب والتآمر والتجسس . وفي عام ١٨١٣ . يعود إلى باريس . فيبلغ عام ١٨١٦ أعظم السلطة والقدرة ، حين يصبح الأمير الوحيد لأسرار دوقه انغوليم . وكانت هذه المرأة المعجوز ذات الأهواء الغريبة والتي كانت تستند إلى ذكريات طفولة فطيمة . تبدأ وتسكن وتبسم حين تراه . وكان هو يستغلها لينشر المظن أو الفئس الجميل في البلاط . وفي آذار ١٨٢٠ تزوج الأنسة دوروكلور . وكانت جميلة جداً وفي الثامنة عشرة من عمرها . وكان السيد دوروليون قد بلغ السبعين ، انه في قمة المجد . وفي ذروة حياته . وبعد سبعة أشهر أنهم بالحياة . فقبض عليه والقي في زنزانة حيث مات بعد حمة أعوام في السجن ، من غير ان تجري محاكمته » .

أعدت قراءة هذا المقطع لجرمين بيرجيه في كآبة . ولقد عرفت السيد دوروليون . أول ما عرفته . من خلال هذه الأسطر وكما بداي فانتاً . وكما أحبته بعد ذلك . في أعقاب هذه الكلمات القليلة ! وإنما أنا هنا من أجله هو ، من أجل هذا الرجل الصغير البسيط . وحين عدت من السفر ، كان بوسعي ان أسطر في باريس أو في مرسيليا . ولكن معظم الوثائق التي تتعلق بأقامة المراكز

(١) جيمس بيرجيه : « ميرابو توفو واستقلاله » ص ٤٠٦ ، الماش ٢ شامبون . ( ملاحظة الناشر ) . ١٩٠٦

الطويلة في فرنسا إنما هي موجودة في مكتبة برميل البلدية. وكان روليون صاحب قصر في «ماروم». وقبل الحرب، كان ما يزال على قيد الحياة في هذه الضيعة أحد أحفاده، وهو مهندس معماري يُدعى روليون - شامبوريه، وحين مات عام ١٩١٢، قدّم إراثاً هاماً جداً لمكتبة بوفيل: رسائل من رسائل المركيز، ومنقطعات من يومياته، وأوراقاً مختلفة. وأنا لم أطلع بعد عليها كلها.

واني لسعيد بأن أعتز على هذا النص مرة ثانية. فها قد انقضت عشرة أعوام لم أعد فيها قراءتها. وبخيل إليّ أن خطي قد تغير: فقد كنت أكتب الكلمات بطريقة أكثر تلامساً. ولم كنت أحب السيد دوروليون في تلك السنة! واني أتذكر ذات مساء - مساء ثلاثاء: كنت قد عملت طول النهار في «المارا بن». وكنت قد أدركت. عشر مراسلات عامي ١٧٨٩ - ١٧٩٠. كيف خدع نيرسيا بطريقة عظيمة. كان الليل قد هبط، وكنت اضبط حادة «دومين». وعند زاوية شارع «دولافيتيه» اشتريت كستناء. هل كنت سعيداً؟ كنت أضحك وحدي وأنا أنظّل سحنة نيرسيا حين عاد إلى المانيا. أما وجه المركيز فشيء بهذا الحبر: لقد اصفر كثيراً، منذ أن الحدث أهم به.

فيادي، الأمر. كنت عن أن أهم شيئاً من سلوكه، ابتداء من عام ١٧٨٠١ وليس سبب ذلك قلة الوثائق. فإن الرسائل ومنقطعات المذكرات والتفاسير السرية وأخبارات الشرطة متوفرة أكثر مما ينبغي. وإنما لذي يعود هذه الشواهد كلها. أخزم والكثافة. لا. بها غير متناقضة. ولكنها غير متوافقة كذلك. وهي تبدو وكأنها لا تخص الشخص نفسه، ومع ذلك، فإن المؤرخين الآخرين يشغلون على معلومات من النوع نفسه. فكيف أنهم يعملون؟ أكون حرص منهم على الدقة أم أكون أقل منهم دكاء؟ والحق أن السؤال، مطروحاً على هذا النحو، ينحصر بارداً تماماً في الذي أبحث عنه. في آخر المطاف؟ التي لا أدري من ذلك شيئاً. إن روليون لم يجل كتاب. مسدة طويلة أشد إثارة لأهمامي من الكتاب الذي ينبغي أن أكتبه، ولكن الرجل الآن... الرجل بدأ بضجري. وأنا متعلق الآن بالكتاب، وأحس حاجة

لكتابته تفوى شيئاً فشيئاً ، على قدر ما أتيخ ، كما يُخال .  
 يمكن الاقرار طبعاً بأن روليون قد أسهم إسهاماً فعالاً في اعتيال بول  
 الأول . وأنه قبل بعد ذلك مهمة تجسس عليا في الشرق لحساب القيصر ، وأنه  
 بحان بلا انقطاع الكسندر لحساب نابليون . ولقد استنطاق في الوقت نفسه ان  
 يعقد مراسلة ناشطة مع الكونت دارتوا وأن يُنفذ اليه معلومات قليلة الأهمية  
 ليقلعه باخلاصه : وليس في هذا كله ما هو غير محتمل الوقوع ؛ فقد كان  
 فوشيه . في العهد نفسه ، يمثل ملهاة لا تقل تعقيداً وخطراً . وربما  
 كان المركز أيضاً يقوم لحسابه بتجارة البنادق مع الامارات الآسيوية .  
 أجل . لقد استطاع ان يقوم بهذا كله ، ولكن الأمر غير ثابت :  
 لقد بدأت اعتقد ان ليس بوسع المرء ان يثبت شيئاً على الإطلاق . انها  
 اعتراضات تنهى عن الأحداث : ولكن شعوري بأنها صادرة عني هو  
 من العمق بحيث تصح بكل بساطة طريقة لتوحيد معلوماتي . فليس ثمة  
 ضوء واحد ينير من جانب روليون . إن الأحداث ببطئها وكسلها  
 واضجارها لا تفعل إلا ان تشجم مع الاتجاه الذي اود ان امنحها إياه ؛  
 ولكنها تظل خارجية عنه . وأنا أحس بأنني اقرب بعمل محض خيالي .  
 بل أنا متأكد جداً من ان ابطال رواية ما سيكونون أكثر حقيقة ، وعلى  
 أي حال سيكونون أبعث على الرضى والامتحان .

#### الجمعة

الساعة الثالثة . والساعة الثالثة هي دائماً قبل الاوان او بعده بالنسبة  
 لكل ما يجرى المرء ان يعيد . لحظة عجيبة من لحظات ما بعد الظهيرة .  
 وهي اليوم شيء لا يُحتمل .  
 إن شمساً بارداً تبيض عيار زجاج النوافذ . سماء صفراء ، تخالطها  
 البياض . ولقد كانت السواقي مجلدة هذا الصباح .  
 التي أحضم هضماً ثقيلاً بالقرب من الموقد . وأنا أعلم مقدماً ان النهار ضائع .

إن أفعل شيئاً صالحاً ، إلا حين يهبط الليل . ربما وهذا من جراء الشمس ،  
 إنها تذهب بموضع غيوماً قدرة بيضاء معلقة في الهواء فوق الورشة ، وتسيل  
 في غرضي بمقعدة شقراء . وتبسط على طاولتي أربعة أشعة كابية ومزبغة .  
 إن غليوبي مطلي ببرتقيل مذهب يجذب النظر أولاً بطاهر من المرح :  
 إن المرء ينظر إليه مذبذب البرتقيل ، ولا يبقى غير خط طويل شاحب  
 على قطعة من خشب . وكل شيء هكذا ، كل شيء ، حتى يداي .  
 وإن أفضل ما يعمل المرء ، حين تطلع مثل هذه الشمس ، أن يذهب  
 فينام . غير أنني قد نمت كالحيووان في الليلة الماضية ، وليس بي بعد مل فحاس .  
 لكم أحببت سماء الأملس ، سماء ضيفة ، مسودة بالمطر ، كانت تندفع  
 إلى زجاج النوافذ ، كوجه مضحك ومؤثر . أما هذه الشمس ، فليست  
 مضحكة . بل على العكس . فعل كل ما أحبه . على صدى الورشة . وعلى  
 لوحات السباح المنهثة . يسقط نور يحيل عاقل ، شبه ينظر بقلبه المرء ،  
 بعد ليلة لا نوم فيها ، على القرارات التي اتخذها عشية الأملس نحاسة ،  
 أو على صفحات كتبها دفعة واحدة ، ومن غير شطب أو حذف وإن  
 المقاهي الأربعة لجادة فيكتور — نوار ، تلك المقاهي التي تشع ليلاً ،  
 جنباً إلى جنب . والتي هي أكثر من مقاه — أحواض أو قوارب أو  
 نجوم أو عبون كبيرة بيضاء — قد فقدت حيزها المبهم .

يوم ممتاز ليوم المرء بارتداد على نفسه : إن هذه الأضواء الباردة التي تلقبها  
 الشمس على المخلوقات . كأنها حكم لا رحمة فيه — تدخل في عن طريق العينين ،  
 فأنا مضياء . من الداخل بنور منقفر . وأنا على يقين من أن ربع ساعة  
 سيكون كافياً لأبلغ الحد الأقصى من الاشعاع من نفسي . وهذا ما  
 لا أحرص عليه أبداً . ولن أقرأ ثانية ما كتبه امس عن إفوسة وولبون  
 في سان بطرسبورغ . أنني ابقي جالساً . مرعبي اللزاعين ، أو أعط  
 بضع كلمات . من غير حراسة . أو انتاب ، أو انتظر أن يهبط الليل .  
 وحين يسود الظلام . سأخرج أنا والأشياء من العموض .

هل شارك رولبون أم لا ؟ اعتيال بول الأول ؟ تلك هي قضية اليوم  
ولقد وصلت إلى هذه النقطة ، وليس موسمي ان استمر قبل ان اقرر  
إنه تشير كوف ، يعتقد بأن رولبون كان مأجوراً من الكونت باهلي  
وهو يقول إن معظم المتآمرين قد اكتفوا باسقاط القصر وحبه (والواقع  
ان الاسكتندر كان يبدو موافقاً لهذا الحل ) ولكن باهلي كان بود ان  
ينتهي تماماً من بول . ويعتقد ان السيد دورولبون قد كُلف بتحريض  
المتآمرين شخصياً على القتل .

« لقد رار كلاً منهم وكان يمثل الحادثة التي ستقع . بمقدرة لا تضاهى .  
وعلى هذا النحو ، ولد لديهم أو متى جنون القتل »  
ولكنني احذر تشير كوف ، فليس هو شاهداً عافلاً ، وإنما هو محوسي  
سادي ونصف مجنون : انه يحوم كل شيء إلى شيطاني وأنه يستحيل  
عليّ تصور السيد دورولبون في هذا الدور الميلودرامي مثل حادثة القتل ؟  
كفى ، كفى ! انه بارد ، وهو لا يُغري بالعادي : انه لا يُرشد ،  
بل يوحى . ولا تستطيع طريقته المتفجرة التي لا لون لها ، ان تمنح إلا  
مع اناس من طبعته ، دسائس او سياسيين .

كتبت السيدة دوشاربير تقول : « لم يكن ادجار دورولبون يرسم فقط  
وهو يتكلم ، ولم يكن يقوم بالحركات ، ولم يكن يغير لهجة صوته  
وكان يحتفظ بعينه نصف مغلقتين ، وفادراً ما يرى المرء بين أجدانه  
الطرف الأنفى من حديقته الرماديتين . لقد مضى على أعوام قصيرة منذ  
جرؤت على ان اصارح نفسي بأنه كان يضجري إلى بُعد حد ممكن  
كان يتكلم على نحو ما كان الأب مايلى يكتب »

وهذا هو الرجل الذي كان ، موجهته في التقليد ولكن كيف  
نراه كان يغوي النساء ؟ ثم إن هناك هذه القصة الغريبة التي يرويها  
« سيمور » والتي تبدو لي حقيقة :

« في عام ١٧٨٧ ، كان رجل عجوز ، هو صديق ليدفرو . وقد تحفظ

على أيدي الفلاسفة ، كان يحضر في خان بالقرب من « مولين » . وكان كهنة المناطق المجاورة قد بلغوا حد الإرهاق . بعد أن حاولوا كل شيء . عيماً ، كان الرجل يرفض أن يتناول الأسرار الأخيرة ، وكان يؤمن بالوهمية الكون . ومرة السيد دورولبون ، وكان لا يؤمن بشيء . ، فتراهن مع كاهن « مولين » أنه لا يحتاج إلى أكثر من ساعتين ليُعيد المحضر إلى مشاعره المسيحية . وقبل الكاهن الرهان وخسر . فقد بدأ اقتناع المحضر عند الساعة الثالثة صباحاً . وقد اعترف عند الساعة الخامسة ، ومات عند الساعة . وسأل الكاهن : « أبلغ هذا الحد من قوة الحجة والقباض ؟ إنك تبتدء رجائياً ! » فأجاب السيد دورولبون « أنني لم أناقشه أو أحجه ، وإنما خوفته من الجحيم » .

والآن ، اتراء قد شارك مشاركة فعلية في القتل ؟ لقد صحبه ضابط من اصدفاته ذلك المساء . حوالي الساعة الثامنة ، إلى باب منزله ، فإذا خرج منه ثانية ، فكيف اجتاز سان - ترسبورغ من غير أن يعلق ؟ كان بول . وهو نصف مجنون ، قد أصدر أمره باعتقال جميع المارة ، ابتداء من الساعة التاسعة مساء ، ما عدا القابلات والأطباء . فهل ينبغي تصديق الأسطورة اللامعقولة التي تقول إن رولبون قد تنكر في ثياب فابله حتى يبلغ القصر ؟ الحق أنه كان ، بعد كل حساب ، حرباً بذلك . ومها يكن من أمر ، فإنه لم يكن في بيته ليلة الاغتيال . وهذا يبدو مبهوتاً فيه . ولا بد أن الاسكتلندي قد ارتاب فيه بقوة ، إذ أن أحد أعماله الأولى حين تسلّم السلطة كان أن ابعث المركيز بحجة ارساله في مهمة إلى الشرق الأقصى .

إن السيد دورولبون يقتلني ضجراً . وأنا أنهض ، وأتحرك في هذا النور الشاحب . واني أراه يتغير على يدي وعلى أكام سنرتي : وأنا لا استطيع أن احبّر عن مدى الشخرازي منه . اني اثئاب . وأضيء المصباح الكهربائي على الطاولة : فلعل نوره يستطيع أن يهزم نور النهار . ولكن لا : إن قصارى ما يستطيعه المصباح هو أن يحدث حول قاعدته مستغماً بشر الشفقة . واطفئه وأنا أنهض . واري في الجدار نقباً أبيض : أنه المرأة . إنه شرك . وأنا اعلم

أني سأندعي للسقوط فيه . لقد تم الأمر . فقد بدا الشيء الرمادي في  
المראה واقترّب فأنظر إليه . ويستحيل عليّ بعد ذلك الذهاب .

إنه انعكاس وجهي . وغالباً ما أبقى لأنامه ، في هذه النهارات  
القائمة وأنا لا أفهم شيئاً منه . هذا الوجه . إن لوجوه الآخرين معنى ؟  
أما وجهي فلا . بل أنا لا أستطيع أن أقرر هل هو جميل أم قبيح .  
أعتقد أن قبيح . لأهم قالوا لي ذلك . ولكن ذلك لا يثير استغرابي .  
بل يصدمني في الحقيقة أن يستطيعوا أن يعرفوا له صفات من هذا النوع ،  
كما لو كانوا بصعق بالجمال أو القبح قطعة أرض أو كتلة من الصخر .  
على أن هناك مع ذلك شيئاً تروق رؤيته . فوق منطقة الحدين الطرية ، فوق  
الجبين : ذلك هو هذا الشعاع الأحمر الذي يذهب صليبي ، إنه شعري . إن  
هذا يروق النظر إنه لون واضح على الأفق : فأنا مسرور بأن أكون أحمر  
الشعر وهذا : في المرأة يرى ، ويشع أنني محظوظ . رغم كل شيء : فلو  
كان جبيني يحمل شعراً كذلك الذي لا يوفق في التصميم الكستاني والأشقر ،  
وإن وجهي كان بضيق في المبهمة ، وكان يعود عليّ بالدوار .

إن نظري يهبط يهبط ، وفي ملل ، على هذا الجبين ، وهذين الحدين :  
إنه لا يلتقي شيئاً صلباً . بل يجمع كما لو أنه يعرف في رمل . هناك طبعاً أنف  
وعينان وفم . ولكن هذا كله لا معنى له ، حتى ولا تعبير إنساني . ومع ذلك ،  
فقد كانت أنني وميدي نجدان هينتي حية ، فمن الممكن أن أكون قد ألفيت وجهي  
أكثر مما ينبغي . وكانت عني : يبحوا ، تقول ، إذ كنت صغيراً . وإذا  
افترطت في النظر إلى نفسك بالمرآة . فسوف ترى فيها قروداً . ولا بد أنني  
نظرت وقتاً أطول أبصاً : وما أراه هو ما تحت القرد ، عند تخوم العالم النباتي ،  
على مستوى المرجلات . أنا لا أنكر أن في ذلك حياة ، ولكن أنني تفكر بعقل  
هذه الحياة : وأنا أرى ارتعاشات خطيفة ، وأرى لحماً تنهأ يتفتح ويغلق في  
استسلام . ولا سيما العنان ، أنها ، عن قرب ، فظيعتان ، أنها زجاجيتان :  
مائعتان ، عريانان ، يحدّهما الأحمران ، فكأنهما حراشف السمك .

اني استند بكل ثقل على حافة الحرف ، وأدني وجهي من المرأة حتى لألسها وتخفضي العينان والأنف والشم : ولا يبقى ما هو بشري قط . تجدادات سمراء عند كل جانب من انتفاخ الشفتين المحموم . تشققات جئوت . إن زغباً حريراً ايضاً يركض على منحدرات الخدين الكبيرة ، وشعرتين تخرجان من المتخزين : انها خارطة جيولوجية بارزة المخطوط . وبالرغم من كل شيء ، فان هذا العالم القمري مألوف عندي . انا لا استطيع القول اي « أتعرف » الى تفاصيله . ولكن مجموعه يعطيني انطباعاً لما « سبقت رؤيته » يعود علي بالخدر : فأنتل على مهل في النور .

اود ان استعيد السيطرة على نفسي : وان احسماً حياً وحسماً كضيق به أن يحرقني وأطبق يدي اليسرى على خدي ، وأشد على الجلد ، واغضض وجهي ، فيشلم نصفه ، بينما يلتوي نصف الشم الأيسر وينتفخ وهو يكشف سناً من اسناني ، ويفتح الحجر عن كرة بيضاء ، على بشرة وردية قارفة . وليس هذا ما كنت ابحث عنه : فليس ثمرة من شيء بارد . ولا من شيء جديد ، وانما هناك ما هو عذب ، فصفافس ، سبقت رؤيته ! وانام متروح العينين ، ويكون الوجه قد بدأ يكبر ، ويكبر في المرأة ، فاذا هو حالة ضخمة شاحبة تتراقق في النور ...

وما يقطني فحاة . هو اي أضعت التوازن فاذا بي احد نفسي راجياً كرسياً وانما ما ازال مصاباً بالدوار هل يذل سائر الرجال مثل هذه المشقة ليحكموا على وحوهم ؟ تغيل الي اني ارى وجهي كما احس جسدي ، باحاساس عضوي أصم والآخرون ؟ رولور ، مثلاً ؟ أكان يُسميه أبناً ان ينظر في المرايا الى ما كانت السيدة دوجانلي تسميه « وجهه الصغير المجدد » ، التنظيف الواضح ، المنقوش بالخدري . حيث كان يكمن تحت فريسة يقفز الى العينين ، أياً كان الجهد الذي يبذله من أجل إخفائه ؟ . وتضيف قائلة : « كان يهتم بانح الانهزام برأسه ، وانما لم أره قط من غير شعر مستعار . ولكن خديبه كانا في ررفة تميل الى السواد ، لأنه كان ذا دفن كثيفة ، وكان يحرص على



ان يحلفها بيده ، وكان هذا رديفاً جداً . وكان معضاداً ان يقطع وجهه بأبيض الاسفيداج ، على غرار « غريم » . وكان السيد دودا بحقيل يقول اتسه ، بهذا الابيض كله والأزرق كله ، كان يشبه قطعة من جين « روكفور » .

ونخيل إلي أنه كان ولا بد حسن المنظر . ولكنه لم يبدو كذلك ، في آخر المطاف . للسيدة دوشايرير . فأتانا احسب انها كانت تجده بالأحرى شاحياً . وربما كان محالاً على المرء ان يفهم وجهه بالذات . او لعل ذلك لأنني انسان متوحد ؟ لقد تعلم الاشخاص الذين يعيشون في المجتمع ان يروا أنفسهم ، في المرايا ، كما يبدون لأصدقائهم . اما انا ، فليس لي من أصدقاء : أمن أجل ذلك يبدو لحبي عارياً الى هذا الحد ؟ لكأنها - أجل ، لكأنها الطبيعة بلا بشر .

ليس لدي رغبة بعد في العمل . ولا يمكنني ان افعل شيئاً بعد ، إلا أن انتظر الليل .

## الخامسة والنصف

إن الوضع سيء ! إنه سيء جداً : أتانا اشعر بها . وتلك القذرة ، ذلك « الغنيان » وهو شيء جديد ، هذه المرة : فقد أصابني وأنا في مقهى . لقد كانت المفاتيح حتى الآن ملاذي الوحيد لأنها ملأني بالناس ومضادة جيداً : فحتى هذا لن يتوفر لي بعد الآن . وحين سأكون مطارداً في غرفتي . لن أعلم بعد اني أذهب .

كنت قد جئت للمضاحمة . ولكنني ما كنت أدفع الباب حتى صاحبت بي مادلين الخادمة :

- إن صاحبة الفندق غير موجودة . فهي في السوق تشتاع حاجاتها . وأحسست نغمة شديدة في عضوي . دغدغة طويلة مزعجة . وفي الوقت نفسه كنت أحس قبضي الذي كان يحك طرف ثديي . فكنت محاطاً ومأخوذاً

بدوامه بطيئة ملوثة ، دوامة من ضباب ، من ضوء في الدخان ، في المرايا ، مع المقاعد الصغيرة التي كانت تلتصق في الداخل ، ولم أكن أرى لماذا حدث ذلك هناك ، ولا كيف حدث كذلك . وكنت على عتبة الباب ، متردداً . ثم حدث اندفاع ، فمر قتل في السقف واحسنتي مدفوعاً الى امام . كنت عائماً وكنت دائخاً بالضباب المشع الذي كان يدخل في من كل مقلد . وجاءت مادلين عائمة قترع سترتي ، فلاحظت انها قد سرتحت شعرها الى خلف وحلت اذنيها بأفراط : حتى انني كنت أنكرها . وكنت أنظر الى خديها الكبيرين اللذين كانا لا يكفان بتمددان نحو الأذنين . وكان في تجويف الحسدين ، تحت الوجتين ، لطفتان وورديتان متزلتان كان يبدو انها ضجرتان على تلك البشرة المسكينة . كان الحدان يمدان ، يمدان نحو الاذنين ، وكانت مادلين تبسم :

— ماذا تأخذ، يا سيد الطوان ؟

واذ ذاك أصابني العثيان ، فتداعيت للسقوط على المقعد الصغير . ولم أكن اعرف حتى اين كنت . وكنت أرى الألوان تدور حولي على مهل ، وكانت بي رغبة للتغير . وهكذا : منذ ذلك الحين ، لم يتركني العثيان . إنه يستولي علي ودفعني . ورفعت مادلين صحتي . وسحقت كلشي على البلاط سرقة من البيرة الصفراء ، حيث عانت قفاعة . وكان المقعد مبهوراً . في المكان الذي أجلس فيه ، فكنت مضطراً . حتى لا أترلق ، أن اشد نعل بقوة على الأرض ؛ إن الطقس بارد والى البمين ، يلعب بعضهم الورق على سجادة من صوف . وأنا لم أرهم حين دخلت ، وكل ما شعرت به أنه كان ثمة رؤمة دائمة . نصفها على المقعد الطويل . ونصفها على الطاولة الداخلية ، مع أزواج من الأذرع التي تتحرك . وبعد ذلك ، جاءتهم مادلين بالسورق والطفنة والقسائم في صحيفة . إنهم ثلاثة أو خمسة ، لا أدري . فأنا لا امك الجرةا كنتظر اليهم . إن لي نابضاً مكسوراً : فبوسمي ان احرك عيني . لا رأسي . إن الرأس طوي كله ، مطاط ، فكانه موضوع وضماً على رقبي ، فاذا أدركه ، فإني أوشك

أن أسقطه . ومع ذلك ، فاني اسمع نقصاً قصيراً ، وأرى بطرف عيني ،  
بين الفينة والفينة ، لمعاً عمراً يغطي شعراً أبيض . إنها يد .

حين تكون صاحبة الفندق في السوق ، يحل محلها على المشراب ابن عمها  
وكان اسمه ادولف . وقد بدأت انظر اليه وأنا اجلس ، واستمررت لأتني  
لم أكن استطيع ان أدير رأسي . وكان يلبس قبصاً قصير الأكمام . مع رافعتين  
بنفسجيتين ، وقد لف أكمام قبصه الى ما فوق المرفق . اما رافعتا البنطلون ،  
فهما تكادان لا تُرىان على القميص الأزرق ، فهما محورتان ، غارقتان في الزرقة ،  
ولكن ذلك من قبيل التواضع الكاذب : فهما بالفعل لا تتركان مجالاً لأن تنسأ ،  
وهما ترعجاني بعنادهما المروني ، كما لو انهما ، بعد ان قررتا ان تصبحا  
بنفسجيتين ، توقفتا في الطريق ، من غير ان تتخليا عن ادعاء انهما . إن  
المرء لتأخذ الرغبة في ان يقول لها : « هيا ! » « إصبحا » بنفسجيتين  
وليت الأمر ! ، ولكن لا ، انهما نقيان معلقتين ، معاندتين في جهدهما  
غير التاجز . احياناً تنزل الزرقة التي تحيط بهما فتغطيها تماماً : فأظلم  
لحظة لا أراها . ولكن تلك لا تكون الا موجة ، فان الزرقة لا تثبت  
ان تشجب هنا وهناك ، وأرى من جديد جزءاً صغيرة من بنفسج مررد  
تسع وتتصل فيما بينها لتعيد تكوين الرافعتين . وليس لابن العم ادولف  
عينان : إن أجفانه المتورمة المشمرة لا تفعل الا ان تفتح قليلاً على  
بياض . وهو يشم انبساط ناعمة ، وبين حين وآخر يشخر قليلاً وينبح  
ويتخبط بضمف ، ككلب يحلم .

وكان قبصه الفطني يبرز بفرح فوق جدار بلون الشوكولا . إن هذا  
ابيضاً يعود بشعور « الغثيان » . او بالأحرى الغثيان نفسه . إن « الغثيان »  
ليس في : فأنا أحسه هناك . على الجدار ، على الرافعتين ، حولي في  
كل مكان . فليس هو والمفهي إلا شيئاً واحداً ، انما انا الذي فيه .  
والى يميني ، تأخذ الرزمة الدافئة في الضجيج ، وتحرك ازواج أذرعها .

— عجباً ! ها هوذا « الاتو » ! ما هو « الاتو » ؟

صُلبٌ كبيرٌ أسود منحرجٌ على اللعبة .

— ها ها ها !

— ماذا ؟ هذا هو « الأنو » ، لقد لعبه .

— لا ادري ، لم أر ...

— بلى ، لقد لعبت الآن « الأنو » .

— آه حسناً ، إذن « أنو » القلب .

وأخذ يفتني :

— « أنو » القلب ، أنو القلب ، أنو القلب !

صوت : — ما هذا يا سيدي ؟ ما هذا يا سيدي ؟ انني آخذه !

ويسود الصمت من جديد — مذاق سكر الهواء ، في جوف في . الروائح .

الرافعتان .

ونفض ابن العم ، فحفظا بضغ خطرات ، ووضع يديه خلف ظهره ،  
وابتسم ، ورفع رأسه وانقلب الى خلف ، على رأس عقبيه . إنه على هذا  
الوضع يستنيم . انه هنا يترشح ، وهو ما يزال يشتم ، وخذاه يرتجفان .  
انه يوشك ان يسقط . انه ينحني الى خلف ، ينحني ، ينحني ، ووجهه  
مستديرٌ كلياً نحو السقف ، واذا يوشك ان يسقط ، يستدرك نفسه بحذق  
على طرف المشرب ، ويسترد توازنه . وبعد ذلك ، يعيد الكرة . ويأخذني  
الفضجر ، فأنادي الخادمة :

— مادلين ، ضعي لي لحناً على القونوغراف ، من لطفك . ان الذي

يعجبني تعرفينه : « بعض هذه الايام »

— نعم ، لكن ذلك قد يُزعج هؤلاء السادة ! ان هؤلاء السادة لا يحبون

الموسيقى حين يكونون مستغرقين في اللعب . آه ! سأسلمهم .

وأقوم بمجد كبير فأدير رأسي . انهم اربعة . وتنحني على عجوز ارجواني  
يضع على اربعة انفه نظارة تحيط بها دائرة سوداء . انه يخفي اوراقه على  
صدره ويرميني بنظرة تحية .

— إفعل ما تريد ، يا سيد .

إبتهامات . إن أسأله متهمته . وليس هو صاحب اليد الحمراء ، وإنما صاحبها جاره ، وهو رجل ذو شارب أسود . وصاحب الشارب هذا يملك متحريين هائلين يوسعها أن يفتحوا الهواء لأسرة يرمتها ، وهما يأكلان نصف وجهه . ولكنه مع ذلك يتنفس من شه وهو يلهث قليلاً . وإن معها أيضاً شاباً ذا رأس كلي . وأنا لا أتميز اللاعب الرابع .

وكان الورق ينط على سجادة الصوف وهو يدوم ، ثم تأتي أيد ذات أصابع غنائم قلتظفه وهي تحك السجادة بأظفارها . وكانت الأيدي تحدث لطخات بيضاء على السجادة ، وهي تبدو متنفخة مقررة . وكان الورق ما يني بسقط ، والأيدي تروح ونجي . أي انشغال عجيب ! أنه لا يبدو في مظهر لعب ، ولا ضحك . ولا عادة واعتقد أنهم إنما يقومون بذلك ليلأوا الوقت . ولكن الوقت عرض مما ينبغي . فهو لا يدع لهم أن يملأوه . إن كل ما يتنفس فيه يجمع ويضمطي . فحركة اليد الحمراء هذه مثلاً ، التي تلتقط الورق وهي تعتز : أنها حركة حرره تماماً . يسمي نفسها والتفصيل في داخلها . وتدير مادتين محرك الفونوغراف . المهم ألا تخطي . فتضع كما وضعت في المرة السابق لحن « كالفابر باروسيكانا » . ولكن لا . إنه اللحن المطلوب ، وإني لا أعرفه منذ الانعام الأولى . أنه « رايخ » نائم . قديم مع لازمة مفساة . وقد سمعت عام ١٩١٧ جنوداً أميركيين يفتونه في شوارع لاروشيل . ولا بد أن تاريخه يعود إلى ما قبل الحرب . ولكن التسجيل أحدث عهداً . ومهما يكن من أمر ، فإنه أقدم أسطوانات المجموعة ، أسطوانة « باتيه » ذات إبره ياقوتية .

عما قليل تأتي اللازمة : أيها هي التي أحببها خاصة ، والطريقة الوعرة التي تنفذ بها إلى امام ، كجرف تجاه البحر . إن الجار هو الذي يعزف الآن ، ليس ثمة عناء ، وإنما انعدام . عشرات الآلات من الانتماضات الصغيرة . أنها لا تعرف راحة ، فإن نظاماً صارماً يولدها ويهدمها . من غير أن يترك

لها أبداً وقتاً تستدرك فيه نفسها ، تعيش فيه لحسابها . أنها تركض وتتدافع  
فتضربني لدى مرورها ضربة جافة وتثلاثني . وأذا أودت كثيراً أن امسك بها ،  
ولكنني أعلم أنني إذا نجحت في إيقاف أحدها ، فلن يبقى بين أصابعي إلا  
لحم مزاحق خفيف . فينتهي أن أقول موتها ؛ بل عليّ أن « أريده » . هذا  
الموت : فقليلة هي الانطباعات التي أعرفها في مثل هذه الممرارة والقوة .  
بدأت أدفاً ، وأحسني سعيداً . وليس ذلك بعد شيئاً عظيماً ، فهي سعادة  
« غثيان » صغيرة : تتمدد في العمق المستنقع المزج ، في عمق « زمنا » -  
زمن الارتفاعات البفسجية والمقاعد المبقورة - وهي مصنوعة من لحظات عريضة  
ورخوة تكبر لدى أطرافها بشكل لطخات الزيت . وهي ما كادت تولد ؛  
حتى شاخت ، ويحبل اليّ أنني أعرفها منذ عشرين سنة .

وهناك سعادة أخرى : قسمة ، في الخارج ، تلك الثقافة الفولاذية ،  
وقت الموسيقى القصير الذي يحترق زمنا من جهة إلى أخرى ويرفضه  
ويزرقه بأسنانه الصغيرة الحادة . أن هناك زمناً آخر .  
- السيد راندو يلعب القلب ، وانت تضع الواحد .

ويترلق الصوت ويختفي . لا شيء . بعض على شريط الفولاذ ، لا الباب  
الذي يفتح ولا نفحة الهواء البارد التي تسيل على ركبتي ، ولا وصول الطبيب  
البيطري مع حفيدته الصغيرة : أن الموسيقى تحرق هذه الأشكال البهيمية وتمزق  
عبرها . وما كادت الحفيدة تجلس ، حتى أخلدت : فجلست جامدة ، مفتوحة  
العينين على سعتها ، وأخذت تصغي وهي تحك الطاولة بقيضتها .

لحظات أخرى وتعتني الزنجية . أن ذلك يبدو لا مفر منه ، فما اقواها ضرورة  
هذه الموسيقى : لا شيء . يستطيع أن يقطعها ، لا شيء مما يصدر عن هذا الزمن  
الذي يسترخي فيه هذا العالم ، وسوف تنقطع من تلقاء نفسها ، بالأمر . وإذا  
كنت أحب هذا الصوت الجميل ، مخصوصاً من أجل ذلك : لا من أجل  
عظمته ولا من أجل حزنه ، ذلك أنه الحداث الذي ميّاه كثير من الأنغام ،  
من بعيد جداً ، وهي تموت لكي يحيا . ومع ذلك فأنا قلق ؛ أن إيقاف الأسطوانة

لا يحتاج الا لشيء يسير جداً : ان يشكر نابض ، او ان يأخذ ابن العم ادولف هوى مفاجيء . فكلم هو غريب ، وكلم هو مؤثر ان تكون هذه القصوة رخصة الى هذا الحد ان شيئاً لا يملك ان ينقطعها ، ويستطيع كل شيء ان يحطمها .

وتلاشي آخر نعم ، وأحست في الصمت القصير الذي تلا ان « شيئاً ما قد حدث » .

### صمت

إن ما حدث هو ان « الثيان » قد اختفى . حين ارتفع الصوت ، في السكون أحست جسي يقسو ، وتلاشي « الثيان » . دفعة واحدة : وكان شاقاً تقريباً ان يصبح هكذا قاسياً كله ، لأمعاً كله . وفي الوقت نفسه ، كان زمن الموسيقى يتمدد ويتنطح كإعصار . وكان بدلاً القاعة بشفايته المعدنية ، فيها هو يسحق على الجدران زمننا اليأس . انني « في » الموسيقى . وفي المرات تدور كرات نارية ، تحيط بها حلقات من دخان وتدور ، حاجبة وكاشفة بسمرة النور القاسية . وتقلص قدح البيرة امامي ، ونراكم على الطاولة : وكان يبدو كثيفاً ، لاغنى عنه . وأردت ان آخذه وأزيته فمددت يدي ... يا الهي ! ان هذا خصوصاً هو الذي تغير : انها حركائي . لقد نمت حركة ذراعي هذه كموضوع عظيم . فانزلت على طول غناء الزنجية ، وحيل الي اني كنت أرقص .

وكان وجه ادولف هنا ، مستنداً الى الجدار الشوكولاتي ، وكان يبدو قريباً جداً . وفي اللحظة التي كانت يدي تنطبق فيها ، رأيت رأسه ، وكان له وضوح الخاتمة وضروبها . وضغطت أصابعي على القدح . ونظرت الى ادولف : انني سعيد .

خذ !

وانقلد صوت وسط ضجة صاخبة . انه جاري يتكلم ، وكان المعجوز يغلي . وقد احدث خداه لطلحة بنفسجية على جلد المقعد الأحمر . وصفق ورقة

على الطاولة انها - هامبله المرتع ولكن الشاب ذا الرأس الكلي ايسم وكان  
اللاعب الأمر محباً على الطاولة يرصده من تحت ، متأهاً بتميز  
وحداً

وخرجت يد الشاب من العل ، فعاتت لحظة ، وهي بيضاء مثاقلة ،  
ثم دابت فجأة كأنها الحداة ، وشدت ورقة على السجادة وقفز الأمر  
السبح في الهواء -

حراء ، انه يقطع

وبدا طيف ، ملك القلب ، بين اصابع متشنجة ، ثم قلب على امه ،  
واستوفى ثلث ملك جميل ، فادم من مكان بعيد ، مهياً بكثير من  
الحيل ، وكثير من الحركات المختبئة ، وها هو ذا يختم بدوره ، لتولد  
حيل أخرى وحركات أخرى ، وكر وكر ، وارنداد حط ، وجملة  
من المفامرات الصغيرة

اي منفعلي ، وأنا احسن جسمي كآلة ضبط في استراحة لقد حدث لي  
انا معامرات حقيقية ، وانا لا اذكر منها أي توصيل ، ولكني ألحظ تسلسل  
الظروف الدقيق لقد جزت الحار ، وخلعت ورائي مدناً ، وعمرت أنهاراً ،  
وأوعلت في العبابات ، وكنت أقصد دائماً مدناً أخرى ، ولقد ملكت نساء ،  
وتقاتلت مع رجال ، ولم اكن استطيع قط ان أرجع الى الوراء ، شأني  
في ذلك شأن سطوانة لا تستطيع ان تدور اتقهقرى ، وذلك كله ، الى  
« أين » كان يمودي ؟ الى هذه الحقيقة ، ان هذا المقعد ، الى هذه الفقاعة  
من النور المدممة بالموسيقى

وحين تركني ...

نعم ، انا الذي كنت كثيراً ما احب ان اجلس في روما على شاطئ  
« النهر » ، وانا اهدد « الرملة » وأصعدها مئات المرات في برخلونة مساءً  
انا الذي رأيت قرب « أنكور » ، في جزيرة « باراي » في « براخال »



شجرة من بين البقال تعقد جذورها حول كعبة ، النحاس ، التي  
هنا ، يعيش التحفة نفسها التي يعيش لاعبو المابل ، هؤلاء ، وأصغر  
ان رعية تعني ، بينما برود الليل الضعيف في الخارج

### وتوقف الاسطوانة

ودخل الليل عدداً ، مردداً ، انه لا يرى ، ولكنه ها ، ينف المصباح  
وان لم يستش في هو شيئاً كعباً ، انه هو ، الليل الفقس بالود ويدفع  
احد اللاعبين الأورق ، في غير ما نظام ، الى آخر يجمعها من جديد  
وقد بقيت ورقة في حلف الكرامه لا يرونها ، اب نعمة القلب . وبأخذها  
أحدهم حبراً فبسطها لثاب د الرأس ككلي

### آه آه نعمة القلب !

حناً اي داف ويحي الشبح البصحي على ورقة وهو يصر  
رأس فز . ونظر اليه مدلين لطرفة مشقة وفارقة . وبقات لثاب نعمة  
القلب بين اصابعه ، ي يهي

وأهس في مشقة ، ولي المرأة ، فوق صلته خطيب البطري . أرى وحماً  
لاشرباً ينل

### سأدفع عما طيل الى السبيل

ان الهواء يمشي ، فيس له مدق السكر ولا نعمة القرموط الحمرية  
ولكن ما ارد علفس !

ها الساعة الساعة والصف ، وليس سي حوخ لا سبيلها لا تبدأ لا في  
النسقة ، ما الذي فعله ؟ تع ان سر سرعة كندفا ، تردد من الحاده  
خطمي تعصي الى فب لديه ، ان فربان كذبة كعبه الشوارع الم كرية ،  
ان فصر الامموت ، ان الامموت الى محاوره جدهان ، الكري . ان هذا  
لا يبري على الإحلاق ، هذه ساعة ساور منتهيات . وقد رأيت ما يكفني  
الآن من الأشياء ، حبة وكلال والبشر وجميع الكتل ارجوه التي تتحرك

تلقائياً .

وانعطفت الى اليسار ، وأوشك ان أُلج ذلك الثقب ، هناك ، في آخر صف مصابيح الغاز : انني سأتابع البولفار الأسود ، حتى جادة غالفاني . وينتث الثقب ربحاً مثلجة : ليس ثمة الاحجارة وتراب . ان الحجارة شيء قاس لا يتحرك .

ان ثمة طرفاً من طريق محل : فعلى الرصيف الأمين كتلة غازية رمادية مع خطوط نارية ، وهي تحدث ضجة الصدف : انها المحطة القديمة . وقد أعصب وجودها الملة متر الاول من البولفار الاسود - ابتداء من بولفار «الرودوت» حتى شارع «بارادي» - وولدت فيها زهاء عشرة مصابيح واربعة مقاه متجاورة ، مقهى «راندبفودي شامينو» وثلاثة اخرى ، تسرع طوال النهار ، ولكنها تتبادل الضوء مساءً وتلقي مستطيلات مضيفة على الشارع . انني آخذ ثلاثة حمامات اخرى من اللون الأصفر ، وأرى امرأة مسنة تخرج من حانوت «راباش» للسيانة ، وهي ترد غلاشها على رأسها وتأخذ في الركض : لقد انتهى الأمر الآن . انني على حافة رصيف شارع «بارادي» الى جانب آخر مصباح . ان شريط القطران ينقطع هنا . فمن الناحية الاخرى للشارع ، يقوم السواد والوحل . وأبعد شارع بارادي ، وتحشي قدمي اليمنى في مستنقع ماء ، فيبتل جوربي ، ان النزهة تبتدىء .

ليس ثمة «من يسكن» هذه المنطقة من البولفار الأسود . فالطنس فيها اقمى من ان يُحتمل ، والأرض اعق من ان تسفر فيها الحياة وتنمو والمناشر الثلاث للاخوة سولاي (الاخوة سولاي هم الذين صنعوا القبة المصفحة لكنيسة سانت - سبيل دولامير والتي كلفت مئة الف فرنك) تفتح الى الغرب بكل ابوابها وكل نوافذها . على شارع جان - برت - كوري فتعلاء بالمدير . وهي تولي بولفار فيكتور - نوار ظهرها الثلاثة التي تلتصق بها جدران . وهذه الأبنية تحف رصيف اليسار طوال اربعمئة متر : ليس ثمة أي نافذة ، حتى ولا كوة .

وسرت هذه المرة "بقدمي" اللتين في الساقية . وعبرت الطريق ! كان  
على الرصيف الآخر مصباح غاز واحد ، كمنارة عند طرف الأرض الأنقى ،  
يضيء سباحاً مبقوراً ، مهدماً في مواضع .

وكانت قصاصات من الاعلانات ما تزال ملصقة على الألواح . فذاك وجه  
جميل ممتلئ بالحق قد يكشر على أرضية خضراء ممزقة بشكل نجمة . ونحت  
الأنف ، رسم احدهم شارباً معوجاً . وبوسع الناظر ان ينهجا . فوق قصاصة  
اخرى ، كلمة « Purâtre » بحروف بيضاء تسقط منها قطرات حمراء . ربما  
كانت قطرات دم . ومن الممكن ان يكون الوجه والكلمة جزءين من الاعلان  
نفسه . غير ان الاعلان هو الآن ممزق . فالصلات البسيطة المقصودة التي  
تجمع بينها قد اختفت ، ولكن وحدة اخرى قد قامت من تلقاء نفسها بين  
القلم الملتوي وقطرات الدم والاحرف البيضاء وآخر الكلمة « Acre » : فكان  
هوساً مجرماً لا يبدأ يسمى الى الظهور عن طريق هذه العلامات المعجية . ويمكن  
المرء ان يرى بين الامواج الناعضة الطريق الحديدية . وثمة جدار طويل  
يكمل السياج . جدار بلا فتحات ولا ابواب ولا نوافذ . يقف على بعد مني  
متر ، بازاء بيت . وجاوزت حقل عمل المصباح . وهأنذا ادخل الثقب  
الأسود . واني لأشعر وأنا ارى ظلي عند قدمي . يذوب في الظلام . اني اغطس  
في ماء مثلج . وأتبين امامي ، في البعيد ، عبر كثافات من سواد ، شعوباً  
مورداً : انها جادة غالفاني . وأستدير ، وخلف مصباح الغاز ، في البعيد ،  
يوجد ظل من ضياء : تلك هي المحطة ، والمقاهي الأربعة . وخلفي وامامي  
اشخاص يشربون ويلعبون الورق في المقاهي . اما هنا . فليس الا ظلام .  
ونحمل في الريح ، في تواتر ، صوت جرس صغير متوحد بأني من بعيد . ان  
الضجيج المألوف ، وهدير السيارات والصراخ والنباح ، كل هذه لا تبعد  
قط عن الشوارع المضاءة التي تطل محمولة . واما هذا الجرس ، فانه يحرق  
الظلمات ويصل الى هنا : انه اقصى وأقل انسانية من سائر الضجيج .  
وانتوقف لأصغي اليه . اني مفرور . واذا في تولفاني ، ولا بد انها

حراراً وان تماماً . ولكني لا أحس نفسي بعد ، إنني غارق في صفاء ما يحيط بي ، لا شيء يبعث ، إن الريح تئن ، وعطوط صلبة تفر في الليل . إن البولغار الأسود لا يشغل مساحة الشوارع البورجوارية التي تقدم حيات المارة . فليس هنا من أهم بترينيه : انه لا يعدوا ان يكون قفا . قفا شارع جان - بيه كوروي ، وجادة غالاني . صحيح ان سكان بوفيل مسا زالوا يراقبونه قليلاً ، حوالي المحطة . أنهم ينظفونه بين وقت وآخر ، بسبب المسافرين . ولكنهم سرعان ما يتركوه بعد ذلك ، فيمضي مستظلاً أعشى . حتى يصطدم بجادة غالاني . لقد بيته المدينة . وقد تجاوزه أحياناً بسرعة كبيرة شاحنة ضخمة بلون التراب . وهي ترسل ضجة اعدة ، بل هو لا يحدث فيه قتل . لانعدام الفتلة والضحايا . ان البولغار الأسود لا إنساني . كالمعدن . كمثلث . وإنه لخط لبوفيل ان يكون فيها مثل هذا البولغار . فالألوف ان لا يوجد مثله إلا في العواصم ، في برلين . من قاحية نوكون او بانجاه فريدريشيهن - وفي لندن ، خلف غرنويش . محرات مستقيمة وفذرة ، في صميم المجري الخوائي ، مع أرصفة عريضة بلا أشجار لأنها دائماً تقريباً خارج السور . في هذه الاحياء الغريبة التي تصنع فيها المدن ، بالقرب من محطات البضائع ، ومستودعات الترامات ، والمسالخ ، ومستودعات الغاز . أنها بعد يومين من المطر . حين تكون المدينة كلها لزجة تحت الشمس . وحين تنبع بالحرارة الرطبة ، تظل باردة تماماً . ونحفظ بوحلها ومستنقعاتها . بل ان لها مستنقعات لا تجف أبداً . إلا شهراً واحداً في العام . في آب .

لقد بقي العبياء هناك ، في النور الاصفر . انني سعيد : فهذا البرد شديد النقاء ، وشديدة النقاء هذه القليلة ، ألسنت انا نفسي تضمة من هواء متلوج ؟ ليني لا أمك دماً ، ولا لماً ولا لماً . ليني أسيل في هذا القتال الطويل نحو ذلك الشحوب هناك . ليني لا أكون إلا برداً .

ها هم أولاء بشر . ظلال . أية حاجة كانت هما ليجيئا الى هنا ؟ انها امرأة قصيرة نشدة رجلاً من كمنه . وهي تتكلم بصوت سريع

دقيق . وأنا لا افهم ما تقول ، بسبب الريح .

وقال الرجل : - مستدئين بوزك ، أليس كذلك ؟

وظلت تتكلم ، وفجأة دفعا . وتبادلا النظرات ، مترددين . ثم

دس الرجل يديه في جيبه ومضى من غير ان يلوي .

واختفى الرجل . وهائذا تفصلي عن المرأة ثلاثة أمتار على الأكثر .

وفجأة مزقتها اصوات عريضة مبحوحة ، انتزعت منها لتعلا الشارع كله ،

يعنف هائل :

- شارل ! ارجوك ، اتعرف ما قلته لك ؟ 'عد يا شارل ، لقد

كفاني ما عانيت ، انني شقية أكثر مما ينبغي .

ومررت بها عن كتب ، حتى كان بوسي ان ألسها . ان هذا ... ولكن

كيف نصدق ان هذا اللحم المحترق ، هذا الوجه المشع بالألم ؟ ... ومع ذلك ،

فأنا اتعرف المتدبل والمعطف والسمة التي على ذراعها اليمنى بلون تفصل

الخمر ، أنها هي ، لوسي ، خادمة البيت . اني لا أجرؤ على ان أقدم لها

مساعدتي ، ولكن يجب ان تستطيع التماسها عند الحاجة : ومررت أمامها

ببطء ، وأنا انظر اليها . وثبتت عينها عليّ ، ولكن لم يبدُ أنها رأني ، أنها

تبدو وكأنها لا تعرفني في ألها . وخطوت بضع خطوات ، ثم التفت ...

أجل . أنها هي ، أنها لوسي . ولكنها متغيرة الوجه ، شديدة الغضب ،

مثالة بسخاء مجنون اني احسدها . فهي هنا ، منتصبه باستقامة ، منفرجة

الذراعين كما لو أنها كانت تنتظر الكي : وفنحت فيها فكادت تحتلق . وأنا

أحس بأن الجدران قد كبرت ، على جانبي الطريق ، وتقاربت ، وان لوسي

كانت في جوف بئر . وانتظرت بضع لحظات ، وأنا اعشى ان تسقط ميتة ،

فهي أهرل من ان تتحمل هذا الألم العنيف ولكنها لم تتحرك . وبدا أنها

قد تمعدنت ، ككل ما يحيط بها . ونساءت ذات لحظة عما اذا لم أكن

مخطأ بشأنها ، وعما اذا لم تكن هذه طبيعتها تنكشف لي فجأة ...

ونددت عن لوسي أنه قصيرة ، ورفعت يدها الى حنجرتها وهي تفتح

عيني كبيرتين مندهشتين . لا ، أنها لا تستمد من ذاتها القوة على ان تنالم الى هذا الحد . ان ذلك يأتيها من الخارج ... إن هذا البولقار . يجب ان تؤخذ من كتفها ، وتقاد الى الانوار ، وسط الناس في الشوارع العذبة الوردية : فان المرء لا يستطيع هناك ان يتالم بمثل هذه القوة ، سوف نرتخي هناك ، وستنميد هيبتها الانجابية ومستوى آلامها العادي .

وأوليتها ظهري . انها . بعد كل حساب . محظوظة . فأنا هادي . أكثر مما ينبغي ، منذ ثلاث سنوات . وأنا لا استطيع ان اتلقى شيئاً من هذه الوحدة الفاجعة الا قليلاً من الصفاء الفارغ . انني ذائب .

### الخميس الساعة الحادية عشرة والنصف

اشتغلت ساعتين في قاعة المطالعة . وهبطت الى ساحة «الرهونات» لأدخن غليوياً . ساحة مبلطة ببلاط وردي . وسكان بوفيل فخورون بها ، لأنها ترجع الى القرن الثامن عشر . ورأيت في مدخل شارع شاماد وشارع سوسيدار سلفات قديمة تسد الطريق على السيارات . وهاتيك السيدات اللواتي أتبن ينزهن كلابهن يشغلن نحت القناطر ، بمحاذاة الجدران . وقبلها يتقدمن حتى النور الواضح . ولكنهن يرمين نظرات فتيات ، فطرات مختلطة راضية على تمثال غوستاف امبرازو لا بد أنهن لا يعرفن اسم هذا العملاق البرونزي ولكنهن على ثقة من أنه ، بفضل دمجوته وقيعته العالية . كان رجلاً من الطبقة العالية . به يمسك قمعته بيده اليسرى . وبصع اليمنى على ركام الطلحيات النصفية : ذلك يشبه لى ان جدهم كان هنا . على هذه القاعدة ، مصبواً في البرونز . ولم يكن بحاجة الى اطالة النظر اليه ليدركن انه كان يفكر مثلهن ، مثلن تماماً . حول جميع الموضوعات . وقد وضع في خدمة أفكارهن الصغيرة الضيقة والصلبة سلطته وعلمه الواسع المستمد من الطلحيات النصفية التي تسحقها يده الثقيلة . وتشر السيدات ذوات الأكواب السوداء بالجزء ، فيوسعهن ان يتصرفن يهدوه الى شؤون المنزل ، ويتزهن كلابهن : فالأفكار

المقدسة ، الأفكار الطيبة التي ورثتها عن آباائهم ، ليس عليهم بعد تبعه الدفاع عنها ، فان رجلاً من البرونز جعل نفسه حامياً لها .  
 إن دائرة المعارف الكبرى تكرس بضعة أسطر لهذه الشخصية ، وقد قرأتها في العام الماضي . وقد كنت وضعت المجلد على حافة نافذة . وكان يوسعي أن أرى ، عبر الزجاج ، صلعة امبراز الخضراء . وقد علمت أنه اشتهر حوالي ١٨٩٠ . وكان مفتشاً للاكاديمي . وكان يرسم أشياء جميلة . وقد ألف ثلاثة كتب : « حول الشعبية عند قدماء اليونان » ( ١٨٨٧ ) و « التربية عند رولان » ( ١٨٩١ ) و « وصية شعرية » في عام ١٨٩٩ . وقد مات عام ١٩٠٢ ، حاملاً حشرات تلامذته والمعجبين به من ذوي الذوق الرفيع .

استندت الى واجهة دار الكتب . إنني أدخن غليونني الذي يسد بالانطفاء . وأرى سيدة مسنة تخرج خائفة من الرواق ذي القبة وتتنظر الى امبراز نظرة دقيقة وعنيده . وتجرؤ فجأة ، فتجتاز الساحة بكل سرعة في رجلها وتقف امام التمثال وهي تحرك فكها . ثم تمضي سوداء على البلاط الوردي وتختفي في شق جدار .

ربما كانت هذه الساحة جذلة ، حوالي ١٨٠٠ . بقرميدها الوردي وبيوتها . اما الآن فان فيها شيئاً جاماً وردياً . ظلاً دقيقاً من ففاعة . وهذا صادرٌ من ذلك الرجل القائم هناك على قاعدته . انهم حين صبوا هذا الجامعي في البرونز ، جعلوا منه ساحراً .

وانظر الى امبراز مواجهة . ليس له عينان ، ويكاد لا يكون له أنف . ولحية تأكلها ذلك البرص الغريب الذي يتفرض أحياناً كالوباء على جميع تماثيل حي من الأحياء . إنه يحتمي : وتحمل صدرته ، لدى القلب ، لطفة كبيرة خضراء اللون . وهو يبدو منحرف المزاج مترعجاً . انه طبعاً لا يحيا . ولكنه ليس كذلك فاقد الروح . ان قوة صماء تنبعث منه : فكأنها ربح تردني : ان امبراز بود ان بطردني من ساحة « الزهونات » ولكي لن

أذهب قل ان أهني تدخين هذا الغليون .  
وبنيت فجأة من عظمي شبح كبير ، فأقفر متفضاً .  
- المذرة يا سيدي ، لم أكن أريد ان أزعجك . لقد رأيت أن  
شفيتك كانتا تتحركان . ولا شك في أنك كنت تردد عبارات من  
كتابك ( وضحك ) أنك تقوم بمطاردة الشطرات .

وأنظر الى « العصامي » في ذعر . ولكنه بدا مدهوشاً من دهشي .  
- أليس واحباً يا سيدي ان يتجنب المرء الشطرات في النثر ؟  
ان احترامه لي قد انخفض قليلاً . وأسأله ما الذي ينفذه هنا ، في  
هذه الساعة . فيوضح لي ان معلمه قد اعطاه عطلة ، وأنه قدم نواً الى  
المكتبة . وأنه لن يتناول الغداء ، وأنه سيطالع حتى موعد الإغلاق .  
وأكف عن الاصفاء اليه . ولكنه لا يد من ان يكون قد ابتعد عن  
الموضوع الأدبي . فقد سمعت فجأة .

... ليخي امك مثلك سعادة ان اكتب كتاباً

يجب ان اقول شيئاً ما . وقلت بلهجة ارتباب .

... سعادة ..

فأخبطاً في فهم معنى جوابي . وصارخ بصحح

كان عليّ يا سيدي ان أقول ! كفاءة .

ورقياً الدرج . ليست لديّ رغبة في العمل . وكان لأحدهم قد ترك  
كتاب « اوجيبي غرانديه » على الطاولة ، وكان الكتاب مفتوحاً على الصفحة  
السابعة والعشرين . وقد التقطته بآلية . وأخذت أقرأ الصفحة السابعة والعشرين ،  
ثم الصفحة الثامنة والعشرين . فليست لديّ الجرأة بالسدد من البداية .  
وانتبه « العصامي » نحو زحوف الجسدار بخطوة حية . وعاد بمجلدين  
وضعهما على الطاولة . بيثة كلب عثر على عظمة .

... ماذا نقرأ ؟

بحيل اليّ انه يكره ان يجيبي : فقد تردد قليلاً ، وأدار عينيه الكبيرتين



الشاردين . ثم مدّ لي الكتابين على مضض . انهما « التراب العصوي » و « ابيناديزا او التعليم المفيد » تأليف لاسنيكس . ولكن ؟ اني لا أرى ما يزعمه . فان قراءة مثل هذا الكتب تبدو لي محزنة جداً . وإرضاء لضميري . فلبت صفحات « ابيناديزا » فلم أجد فيه إلا كل ما هو رفيع .

### الساعة الثالثة

تركت « اوجي غراندي » . وانصرفت الى العمل . ولكن بلا حاسة . وكان « العصامي » الذي يرى أنني اكتب . يراقبي في تلكذ واحترام . وبين القبة والقبعة أرفع قليلاً رأسي . فأرى الباقة الكبيرة المنشأة التي نخرج منها عفة الدحاجة . إنه يرتدي ثياباً رثة . ولكن لباسه الداخلي ذو يياص باهر . وقد تناول من على الرف بعضه مجدداً آخر قرأت عنوانه بالقلوب : سهم كوديك « يوميات نورماندية للأسة جولي لافريو . إن قراءات العصامي ستجبرني دائماً .

وتعود ذاكرتي دفعة واحدة اسماء آخر المؤلفين الذين قرأ آثارهم : لامير . لانغلو . لا باليريه . لاسنيكس . لافريو . انه لإشراف . لقد فهمت طريقة العصامي انه يثقف نفسه ومن الالقاء

وأنا منه في نوع من الاعجاب . اية إرادة نحتاج اليها ليحقق في هادوء وعناء حطة واسعة المدى إلى هذا الحد؟ منذ سبعة أعوام (لقد قال لي أنه كان يدرس منذ سبعة أعوام) دخل هذه القاعة ذات يوم في أبهى كبيرة . وقد استعرض بظفر الكتب التي تغطي الجدران من غير أن يحضره عدد . ولا بد انه قال . كما قال راسينيكا تقريباً « انت وأنا . أبى العلم الانساني » ثم ذهب يأخذ اول كتاب على اول رف الى أقصى اليمين . وفتح على الصفحة الاولى . يشعور من الاحترام والرهبة بمزوج بتصميم لا يتزعزع . وقد وصل الآن

الى حرف  $L$  .  $K$  بعد  $J$  ، و  $L$  بعد  $K$  . وقد انقل بقسوة من درس 'مفردات الأجنحة الى نظرية الكائنات' ، ومن كتاب عن تيمورلنك الى مقالة انتقاد كاثوليكية ضد مذهب دارون: انه لم يسحر لحظة واحدة . لقد قرأ كل شيء ، وقد اخترن في رأسه نصف ما يعرفه البشر عن التناسل الذاتي ، ونصف الحجج ضد تشريح الحيوانات الحية . إن خلفه وأمامه عالماً . ويقترب اليوم الذي يقول فيه لنفسه ، وهو يغلث آخر كتاب في آخر رف الى أقصى اليسار: « والآن ؟ » إن هذه ساعة « عصرونيته » ، وهو يأكل بيضة بريئة خبزاً ولوحاً من « غاليتير » . جفناه مبلان ، وبوسمي ان أنامل أهدابه الجميلة المعقوفة - أهداب امرأة . وهو يبعث رائحة تخ قدیم يختلط بها ، اذ يتنفس ، عطر الشوكولا العذب .

#### الجمعة ، الساعة الثالثة

أخذت في شرك المرأة ، أكثر قليلاً من ذي قبل . انني أتجنبها ، ولكن لكي أسقط في شرك الزجاج : اقترب من النافذة ، مرتخي الذراعين ، بلا عمل . الورشة . السياج . المحطة القديمة - المحطة القديمة ، السياج ، الورشة . وأثناء بشفة ، حتى ان دمة تطفر الى عيني . وأمسك الغليون بيدي اليمنى ، ورزمة تبني باليسرى . يجب حشو هذا الغليون . ولكني لست متحمساً لذلك . إن ذراعي تتدليان ، وأنا أستدجيني الى الزجاج . تلك المرأة المعجوز تضايقي . انها تنطط في عناد ، بعينين ضائعتين . وهي تقف أحياناً بيضة مذعورة كما لو ان خطراً غير مرئي قد لامسها . ها هي ذي تحت نافذتي . إن الريح تلصق تنورتها على ركبتها . وتقف لتسوي غلالتها . ان يديها ترتجفان . وتخفي من جديد : وأنا الآن أراها من ظهرها . باللبلة المعجوز ! أنا افترض أنها مستعطف الى اليمين ، في الجادة السوداء . ان أمامها مئة متر تقطعها : فإذا ظلت تمشي على هذا النحو ، فهي بحاجة الى عشر دقائق ، عشر دقائق سابقي

في أثنائها هكذا ، انظر إليها ، وجيبي ملتصق بالزجاج . ستقف عشرين مرة ، ثم تقضي ، ثم تقف ...

انني « أرى » المستقبل انه هناك ، منتصب في الشارع ، لا يكاد يزيد شعوباً عن الحاضر . ما حاجته لأن يتحقق أي جديد يمنحه ذلك ؟ ان العجوز تبعد وهي تخرج ، وتقف ، ثم تشد على خصلة رمادية نفلت من غلالتها . انها تمشي ، لقد كانت هناك ، وها هي الآن هنا ... انني لا أدري بعد أين بلغت من أمرها : هل « أرى » حركاتها ، أم انني « أُنَبِّأ » بها ؟ انني لا أميز بعد الحاضر من المستقبل ، ومع ذلك ، فان هذا يستمر . يتحقق شيئاً فشيئاً ، إن العجوز تتقدم في الشارع الخالي . وهي تنقل نعلها الرجلين الكبيرين . ان هذا هو الزمن ، الزمن عارياً تماماً . انه يأتي متسهلاً للوجود ، انه يُغري بالانتظار ، حتى اذا أقبل ، يحبس المرء بالاشمئزاز لأنه يلاحظ ان وقتاً طويلاً قد انقضى على وجوده هنا . ان العجوز تقرب من زاوية الشارع ، وهي ليست بعد إلا كومة صغيرة من الأقمشة السوداء . أجل ، انني أفر ، هذا جديد حقاً ، فهي لم تكن هناك الساعة . ولكن هذا جديد كامد ، ذابل ، لا يستطيع ابداً ان يفاجيء . انها على وشك ان تنعطف في راوية الشارع ، إنها تنعطف - طوال أبد .

وانتزع نفسي من النافذة . فأجتاز الغرفة وأنا أترنح ، وأندبق بالمرأة ، انظر الى نفسي ، أشتت من نفسي : طوال أبد كذلك . وأخيراً ، أفلت من صورتي . وأمضي لأرغمي على سريري . وانظر الى السقف ، وأود ان أنام . هدوء . هدوء . انني لا أحس بعد الانزلاق ، ولا ملاصقات الزمن . أرى صوراً على السقف . دوائر نور اولاً ، ثم صلياناً . وكان ذلك يرف . ثم ها هي صورة اخرى تتشكل ، في جوف عيني ، هذه . انها حيوان كبير راكم ، وانا أرى قدميه الأماميتين ، وبردعته . اما الباقي ، فغطى بالضباب . غير أنني أتمرره جيداً : انه جَسَل رأته في مراكش ، وهو مربوط بحجر . كان قد ركم ونهض ست مرات على التوالى ، وكان بعض العيبة يضمحكون

وبحر ضونه بأصواتهم .

منذ عامين ، كان ذلك رائماً : لم يكن لي الا ان اغضض عيني ، وسرعان ما يطن رأسي كخليفة : كنت ارى من جديد وجوهاً وأشجاراً وبيوتاً وبابانية من « كاميشي » تغسل وهي عارية في برميل . وروصياً مبتأً يسبل من جرح عريض فاغر ، ودمه كله في مستنقع يقربه . وكنت استعيد طعم الكسكس ، ورائحة الزيت التي تملأ عند الظهر شوارع بورغوس ، ورائحة البساسة التي تخفق في شوارع نطوان ، وصغير الرعاة اليونانيين . كنت منفعلاً . لقد انقضى وقت طويل على هذه الفرحة الداهية . أتراها ستولد اليوم من جديد ؟ شمس محرقة ، تنسل في رأسي بخشونة ، كصفحة فانوس سحري ، تتبعها قطعة من سماء زرقاء ، وقد تسمرت ، بعد بضع انتفاضات . فذهبتني كلياً من الداخل . فن أيّ نهار مراكشي ( او جزائري او سوري ) افضل هذا اللعنان فجأة ؟ وتداعيت أسيل في الماضي .

مكناس . كيف تراه كان اذن ذلك الجيلي الذي اخافنا في زقاق ، بين جامع « بردان » وتلك الساحرة الساخرة التي تظللها شجرة توت ؟ لقد اقبل علينا ، وكانت آني الى يميني . او لعلها كانت الى يساري ؟ هذه الشمس وهذه السماء الزرقاء لم تكونا الا خداعاً . وهذه هي المرة المئة التي اتخذ بها . ان ذكرياتي هي النقود في بورصة الشيطان : فاننا حين نفتحها لا نجد فيها الا اوراقاً ميتة .

اما الجيلي ، فلا اتمثل منه بعد الا عيناً كبيرة مققومة ، حلبيية . تلك العين ، أمي حتى له ، هو ؟ ان الطبيب الذي كان يشرح لي في « باكو » فكرة مستشفيات الدولة للإجهاض ، كان هو ايضاً أجور ، وحين اريد ان اذكر وجهه ، فإنما تبدو كذلك هذه الكرة المبيضة . ان هذين الرجلين لا يملكان الا عيناً واحدة يتبادلانها بالدور ، شأنهما في ذلك شأن « النورن » .

(1) Nomes ومن في الميثولوجيا السكتلاندية القذرات الواثي يقطن في مصائر الناس .  
( المترجم )

وأمر هذه الساحة التي كنت أقصدها في مكثاس كل يوم ، هو اشد بساطة :  
 اني لا اراها بعدُ على الإطلاق . بيد انه يبقى لي الشعور الغامض بأنها كانت  
 ساحة ساحرة ، وهذه الكلمات الثلاث المترابطة ترابطاً لا انفصام له : ساحة  
 مكثاس الساحرة . لا شك في اني اذا اغمضت عيني " او حدثت بالسقف في  
 غموض ، استطعت ان أعيد تأليف المنظر : شجرة في البعيد ، شكل مظلم  
 كثيف يعدو اليّ . ولكنني اغترع هذا كله لمطلّبات القضية . . لقد كان  
 ذلك المراكشي طويلاً وصلباً ، والحق اني رأيتُه فقط حين كان يلسمني .  
 وهكذا ما أزال « أعرف » انه كان طويلاً وصلباً : ان بعض المعلومات  
 المختصرة تظل " ثابته " في ذاكرتي . ولكنني لا « أرى » بعدُ شيئاً : فعبثاً ما  
 بحث في الماضي ، وانا لا أستخرج منه الا اطرافاً من صور ، ولا ادري جيداً  
 ما الذي تمثله ، ولا ما اذا كانت ذكريات او اوهاماً .

والحق ان هذه الاطراف نفسها قد اختفت في كثير من الحالات ،  
 فلم يبقَ بعد الا كلمات : ما يزال بإمكانني ان اروي حكايات ، أروها  
 جيداً جداً ( فانا بالنسبة للحكاية لا اخشى احداً ، الا ضباط البحر المهنيّين )  
 ولكنها ليست بعد الا هياكل . صحيح ان القضية فيها قضية شخص يفعل  
 هذا او ذاك ، ولكنه ليس إياي ، وليس عندي ما هو مشترك معه . انه  
 يتنزّه في بلاد لا اعرف عنها اكثر مما لو انني لم أزرها قط . ويحدث  
 احياناً ، في اثناء السرد ، ان انطق بهذه الاسماء الجميلة التي تقرأ في الأطالس ،  
 من مثل ارانجواز او كانتربري . انها تولّد في صوراً جديدة كل الجدة  
 كذلك التي يشكّلها ، بعد المطالعة ، اولئك الذين لم يسافروا قط : اني احلم  
 على كلمات ، هذا كل ما في الأمر .

على انه يبقى من مئة حكاية مئة حكاية او حكايتان حيتان . وانا اذكرها  
 في تحفظ احياناً . لا اكثر مما ينبغي ، خشية ان ابلّيها . وأتناول احدهما ،  
 فأستعيد الديكور والأشخاص والمواقف . وفجأة اتوقفت : فلقد احسست  
 بشيء تالف ، ورأيت كلمة تنفذ فوق نسج المشاعر . وانا احس ان هذه

الكلمة ستأخذ عما قليل مكان بضعة صور أحبها . وسرعان ما أقف ، وأفكر  
على عجل بشيء آخر . انني لا اريد ان أنعب ذكرياتي . ولكن عبثاً ، ففي  
المرّة القادمة التي اذكرها فيها ، سيكون قسم كبير منها قد تبيّث وتسمّر .  
وارسم حركة مبهمّة تكفي أبهى . لأذهب فأأتي بصوري في مكانس .  
من الصندوق الذي دفعته تحت طاوتي . ما الفائدة ؟ ان مهبجات الشبق  
هذه فقدت كل تأثير على ذاكرتي . ولقد عثرت ذات يوم على صورة  
صغيرة مصفّرة تحت ورق نشاف . وكانت تمثّل امرأة تبسم ، بالقرب  
من جوحس . وتأمّلناها لحظة من غير ان نعرفها . ثم قرأت على قما الصورة  
آني . بورسموث ، ٧ نيسان ٢٧ .

لم يسبق لي ان احسست كاليوم احساساً قوياً بأنني بلا ابعاد خفيّة .  
وانني محدودٌ بحسبي . وبالأفكار الخفيفة التي تتصاعد منه كالفقايع .  
انني أبني ذكرياتي بخاضري . فانا ملقى ومتروك في الخاضر . اما الماضي  
فأحاول عبثاً ان اتصل به : انني لا استطيع ان امرّ .  
الباب يطرّق . انه العصامي : وكنت قد نسيت . لقد وعدته بأن أؤيه  
صور حلتي . ليأخذها الشيطان .

وجلس على كرسي : ولأمت مؤخرته المسند وانحنى صدره الصلب  
الى امام . وقفزت من سريري وأشعلت النور :  
- ولكن كيف ذلك يا سيدي ؟ لقد كنّا في حالة جيدة جداً .  
لا لرؤية الصور ...

وأخذت منه قبعة التي كان حائراً لا يدري ما يفعل بها .  
- أصبح هذا يا سيدي ؟ اتريد حقاً ان تُروني اباهاً ؟  
- طبعاً -

وكان في هذا حساب : فانا آمل ان يصمت ، بينما ينظر اليها . واعتيت  
تحت الطاولة ، ودفعت الصندوق بازاء الأحذية الالامعة ، ثم وضعت على  
رُكبتيه حل ذراعين من البطاقات البريدية والصور : اسبانيا ومراكش الاسبانية

ولكنني ارى من هيته الضاحكة المفتحة اني اخطأت خطأ فادحاً اذ  
حببت اني سأحيله الى الصمت . لقد ألقى نظرة على منظر لسان - سيباستيان  
مأخوذ من جبل ايفالدو ، ثم وضعه باحتراس على الطاولة وظل لحظته  
صامتاً . ثم تنهد :

- آه ! إنك معطوط يا سيدي . اذا كان ما يُقال صحيحاً ، فان السفر  
هو خير مدرسة . اتوافق على هذا الرأي يا سيدي ؟  
فقلت بحركة مبهمه . ومن حسن الحظ انه لم يته .

- لا بد ان ذلك يحدث انقلاباً كبيراً . ولئن كُتِب لي ان اقوم  
برحلة ، فيخيل اليّ اني اودّ ، قبل ان اسافر ، ان اسجل كتابة ادنى  
الخطوط في طبعي ، لأتمكن من ان اقارن لدى عودتي ما كنته وما اصبحت .  
وقد قرأت ان هناك مسافرين تغيروا تغيراً كبيراً جسدياً وروحياً ، حتى  
ان اقرب اقربانهم لم يعرفوهم لدى عودتهم .

وكان يقلّب في شروذ حزمة كبيرة من الصور ، وقد تناول احداها ووضعها  
على الطاولة من غير ان ينظر اليها ، ثم حدّق بكثافة في الصورة التالية التي  
تمثل القديس جبروم منحوتاً على كرمي في كاتدرائية بورغوس .

- هل رأيت هذا المسبح ؟ ذا الجلد الحيواني في بورغوس ؟ ان هناك  
يا سيدي كتاباً عجيباً عن هذه المائل ذات الجلود الحيوانية ، بل وحتى ذات  
البشرية الانسانية . و « العذراء » السوداء ؟ انها ليست في بورغوس ، انها في  
ساراغوس ؟ ولكن ربما كانت هناك صورة منها في بورغوس ؟ ان الحجاج  
يقبلونها ، اليس كذلك ؟ - اقصد صورة ساراغوس . وهناك اثر من قدمها  
على بلاطة ؟ موجودة في ثقب ؟ تدفع الامهات فيه اولادهن ؟

ويدفع بكلنا يديه ، وهو متصلّب تماماً ، ولداً خيالياً . فكأنما هو  
يرفض هدايا ارنالكزيركيس .

- آه ، العادات يا سيدي ، هذا ... عجيب !  
ووجهه اليّ ، وهو يلهث ، فكّه الحماري الكبير . وكانت تنبعث منه رائحة

التبع والماء والثمن . وكانت عيانه الجميلتان الشاردتان تلمعان ككبريتين من نار .  
وكان شعره القليل يحيط بصلعته بهالة من بخار . وتحت هذه الصلعة ، كانت  
جماعات من الساموييد والنيام - نيام والمالغاش والفيوجيان يحتفلون بأغرب  
الأعياد ، ويأكلون آباءهم المسنين وأولادهم ، ويدورون حول أنفسهم على  
دقات الطبل حتى الأغصاء ، ويستسلمون لجنون « الاموك »<sup>١</sup> ، ويعرقون  
موتاهم ، ويعرضونهم على السطوح . ويتركونهم لمجزى المياه على قارب  
نضبه شعله ، ويتضاجعون بالاتفاق ، امهات وابناء ، آباء وبنات ، اخوة  
واخوات . ويبترون أعضاءهم ويخصون أنفسهم ، ويمددون شفاههم بالأطباء  
وينتشون على اجنابهم حيوانات مسيخة .

- هل يمكننا ان نقول مع باسكال ان العادة طبيعة ثانية ؟

وزرع عيبه السوداوين بعيني<sup>٢</sup> ، يلتبس جواباً ، فقلت :

- هذا يتوقف .

وتففس .

- وهذا ايضاً ما كنت اقله لنفسي يا سيدي . ولكني أحذر نفسي

أشد<sup>٣</sup> الحذر . ينبغي على الانسان ان يكون قد قرأ كل شيء .

ولكنه اصيب بالهذيان لدى رؤيته للصورة التالية . فقد اطلق صرخة فرح :

- سيفوتي ! سيفوتي ! لقد قرأت كتاباً عن سيفوتي .

وأضاح بلهجة تباه :

- اني يا سيدي لا اذكر بعد اسم المؤلف . فأحياناً نغيب عني الأسماء :

ن .. نو .. نود ..

فقلت له تعبوية :

- مستحيل ، انك ما تزال عند حرف اللام ، لا فريو ..

وسرعان ما ندمت على عبارتي : فهو ، بعد كل حساب ، لم يحدّثني قط

(١) جنود القتل لدى سكان مالاكيا . (الترجم)



عن هذه الطريقة في القراءة . ولا بدّ ان ذلك هليان سرّي . والواقع انه قد اضطرب وتقدّمت شفتاه هيئة باكية . ثم أخفض رأسه ونظر الى زهاء عشر بطاقات بريدية من غير ان ينبس بحرف .

ولكنني لاحظت بعد ثلاثين ثانية ان حياسة كبيرة تنفخه . وانه يوشك ان يتفجر اذا لم يتكلم :

حين أنتهي من تثقيف نفسي ( وأمامي بعد ست سنوات لهذا ) فسوف انضم . اذا أصبح لي . الى الطلاب والاساتذة الذين يقومون برحلة سنوية الى الشرق الاوسط .

وأضاف في طلاوة :

— اودّ ان ادقّق بعض المعلومات ، واحب كذلك ان يحدث لي ما هو غير متوقّع ، ما هو جديد ، وبكلمة واحدة : مغامرات . وكان قد أخفض صوته واتخذ هيئة الحبث . فقلت له مندهشاً :

— اي نوع من المغامرات ؟

— جميع الانواع يا سيدي . ان المرء قد يخطيء في اختيار قطار ، فيهيط في مدينة مجهولة . او يضيع محفظته ، او يُقبض عليه خطأ فيقضي الليل في سجن . حسبت يا سيدي ان بالامكان تعريف المغامرة هكذا : حدث يخرج من العادي ، من غير ان يكون بالضرورة خارق العادة . يتحدثون عن صحر المغامرة . فهل تبدو لك هذه العبارة دقيقة ؟ اودّ ان اطرح عليك سؤالاً يا سيدي .

— وما هو ؟

فاحمر وابنسم .

— ربما كان ذلك مخالفاً للرصانة ...

— قلّ مع ذلك ...

فقال عليّ وسألني . وعيناه نصف مغمضتين :

— هل وقعت له مغامرات كثيرة . يا سيدي ؟

فأجبت بآلية :

- بضع مغامرات .

واقفيت الى خلف لأتفادى نفسه المويوه . اجل ، لقد قلت ذلك بآلية ، من غير ان افكر بالأمر . والواقع اني عادةً اميل الى الاعتزاز بأنني عرفت مغامرات كثيرة . اما اليوم . فقد كذبت ألفاظ هذه الكلمات حتى اخذني غيظ على نفسي كبير : فقد حبيل اليّ اني اكذب . واني في حياتي كلها لم اعرف ادبي مغامرة . او اني بالأحرى لا اعرف حتى ما تعنيه هذه الكلمة . وفي الوقت نفسه ثقل على كتفي ذلك الحمد نفسه الذي استولى عليّ في هاوي ، منذ اربعة اعوام . حين كان مرسيه يستعجلني ان ألحق به . وكنت احدث ، من غير ان اجيب ، في تمثال هندي صغير . وكانت الفكرة ، هناك ، تلك الكتلة الضخمة البيضاء التي كانت كثيراً ما أثارت اشترازي آنذاك : وكنت لم ارها مرة اخرى منذ اعوام . وقال العصامي :

- هل يمكنك ان اسألك ...

فليخاً ! لعلّه يطالب ان اروي له احدى هذه المغامرات العظيمة ! اني لا اريد ان اقول كلمة في هذا الموضوع . وملت قولي كتفيه الضيقين وقتت وانا اضع اصبعي على احدى الصور :

- هذه هي ساشان ، احمال قريبة في اسبانيا .

- ساشان - حبل بلاس ٢ اني لم اكن اظن ان لها وجوداً حقيقياً . آه ! يا سيدي . كم في حديثك من فائدة . ان المرة برى جيداً انك قد سافرت حقاً .

سرفت العصامي . بعد ان حشوت جيوبه بالبطاقات البريدية والصور والمنحوتات . وقد ذهب مسحوراً وأطفأت النور . وهأنذا الآن وحدي . لست وحدي تماماً . فما تزال هناك ايضاً هذه الفكرة ، تنتظر . ولقد تكوّنّت . وليست هناك كقطة كبيرة . اب لا تشرح شيئاً ، وهي لا تتحرك وتكفي بأن تقول لا . لا . لم تحدث لي مغامرات . وحشوت غايوني وأشعلته وتمددت على سريري وانا اضع معطفاً على

سأقي". ان ما يدهشني ، هو ان أحسني حزيناً ومتعباً الى هذا الحد . فحتى لو كان صحيحاً انه لم يحدث لي مغامرات ، فاعسى ذلك ان يؤثر عندي ؟  
يُخيل اليّ "اولاً" انها قضية كلمات محض . قضية مكناش هذه مثلاً . التي كنت افكر بها الساعة : لقد وثب عليّ مراكشي وأراد ان يضربني بمذبة كبيرة ولكنني قدفته بقبضة ادرسته تحت صدغه ... واذا ذاك اخذ بصرخ باللغة العربية ، وسرعان ما يبرز عددٌ من القذرين لحقوا بنا حتى سوق العطارين . ان بإمكان الناس تسمية ذلك بالاسم الذي يروقهم . ولكنه على كل حال حدث" قد وقع لي .

ان الظلام مطبق ، وانا لا ادري بعدُ جيداً اذا كان غليوني مشتعلًا . ومرة ترام : لمعان احمر في السقف . ثم جاءت سيارة ثقيلة هزت البيت . لا بدّ انها الساعة السادسة .

لم تحدث لي مغامرات . لقد وقعت لي حكايات وأحداث وما الى ذلك ، ولكن لا مغامرات . انها ليست قضية كلام . لقد بدأت اهمم . ان هناك شيئاً احرص عليه اكثر من أي شيء آخر — من غير ان اتنبه اليه تماماً . وهو لم يكن الحب ، وثقه الحمد ، ولا المجد ، ولا الغنى . وانما كان ... على اي حال ، كنت قد تصورت ان حياتي يمكن في بعض الفترات ان تتخذ صفة نادرة وثمينة . ولم تكن ثمّة حاجة الى الظروف الاستثنائية : كل ما كنت اطلبه شيء من الدقة . ان حياتي الحاضرة ليس فيها ما هو لاعم جداً : ولكن بين الفينة والفينة ، حين كانوا يعزفون الموسيقى مثلاً في المقاهي . كنت أرتدّ الى خلف وأقول لنفسني : في الماضي ، عرفت وانا في لندن ، ومكناش ، وطوكيو ، لحظات رائعة ، وحدثت لي مغامرات . وهذا ما يُستترع مني الآن . وعلمت فجأة ، بلا سبب ظاهر ، اني كذبت على نفسي طوال عشرة اعوام . ان المغامرات هي في الكتب . وطبعاً ، كل ما يروى في الكتب يمكن ان يحدث حقاً ، ولكن لا بالطريقة نفسها . وانما كنت حريصاً على طريقة الحدوث هذه بالذات حرصاً شديداً .

وقد كان ينبغي أولاً ان تكون البدايات بداءات حقيقية . يا للحسرة ! انني ارى جيداً الآن ما كنت أريده . بداءات حقيقية ، تظهر كجرس بوق ، كالنغمات الاولى للحن جاز ، فجأة ، واضحة جداً للسأم ، مؤكدة الزمن ؛ من تلك الأسميات التي يقال بعدها : «كنت أنتزه ، وكان ذلك في أمسية من نوار . » ينتزه المرء . إذ يكون القمر قد أطل ، فيها هو خال ، عاطل ، فارغ بعض الشيء . ثم يفكر دفعة واحدة : «لقد حدث شيء ما . » أي شيء : خشخشة خفيفة في العتمة ، طيف خفيف يعبر الشارع . ولكن هذا الحدث الضئيل لا يشبه الاحداث الاخرى . فنحن نلاحظ على التو أنه مقدمة لشكل كبير يضيغ رسمه في الضباب ، ونقول في انفسنا كذلك : «إن شيئاً ما يبدأ . »

شيء ما يحدث لينتهي : ان المغامرة لا تسمح بأن توضع لها وصلة ، فهي لا معنى لها إلا بموتها . والى هذا الموت ، الذي ربما يصبح موتي انا ايضاً ، أواني مدفوعاً بلا عودة . وكل لحظة لا تظهر الا لتجر اللحظات التي تلي . وانا متعلق بكل لحظة من قلبي : انني اعرف انها فريدة ، غير قابلة للاستبدال - ومع ذلك . فانا لن اقوم بحركة لأمنعها من ان تتلاشي . فهذه الدقيقة الأخيرة التي أفضيها - في برلين ، في لندن - بين ذراعي هذه المرأة التي لقبتها عشية الامس - الدقيقة التي احبها بشغف ، والمرأة التي أوشتك ان أحبها - سوف تنتهي ، وانا على يقين من ذلك . عما قليل ، سأقصد بلداً آخر ، ولن أجد ثانية هذه المرأة ، ولا تلك الليلة . انني أنحني على كل ثايسة ، وأحاول أن أستغدها . لا يحدث شيء إلا وأدركه وأثبته في نفسي ، لا شيء . لا الرقة الفائرة من هاتين العينين الجميلتين ، ولا صخب الشارع ، ولا الاشراف الكاذب للعجر : ومع ذلك فان الدقيقة تسيل ، وأنا لا أنقطعها ، وأحب ان تنقضي .

وفجأة ، بعد ذلك ، ينكسر شيء ما . لقد انتهت المغامرة . ويستعيد الزمن رعاونه اليومية . والتفت ، فاذا بذلك الشكل الغنائي الجميل ، وراء طهري ، يستغرق كلياً في الماضي . انه يتناقص ، ويتقلص إذ يحبل ، حتى ان النهاية الآن

لا تشكل إلا كلاً واحداً مع البداءة . وأفكر وأنا أتابع بعيني هذه النقطة الذهبية التي سأقبل - حتى ولو تعرضت للموت او لفقدان ثروة او صديق - ان أعيش ثانية كل شيء ، في الظروف نفسها ، من البدء الى النهاية . ولكن معامرة ما لا تُعاد من جديد ولا تستطيل .

أجل ، هذا ما كنت أريده - وهذا للأسف ما لا ازال أريده . اني اشعر بسعادة كبيرة حين تغني زنجية : فأية ذرى لن ابلغها إذا كانت « حياتي الخاصة » تكون مادة الغناء .

« الفكرة » ما تزال هنا ، الشيء الذي لا يسمى . انها تنتظر . في سكون . وهي تبدو الآن ، وكأنها تقول :

« ماذا ؟ » أهذا ما كنت تريد ؟ الحق ان هذا هو ما لم تحصل عليه قط ( أذكر انك كنت تخدع نفسك بالكلمات ، كنت تطلق اسم المغامرة على برق للسفر خلّب ، ، وعلى غراميات الغيتات ، وعلى المنازعات ، وعلى الزجاجيات الملونة ) وهذا ما لم تحصل عليه أبداً ولا اي شخص آخر غيرك .  
ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

### ظهر السبت

لم يرمي العصامي داخلاً قاعة المطالعة . كان جالساً في أقصى الطاولة الداخلية وكان واضعاً امامه كتاباً ولكنه لم يكن يقرأ . كان ينظر باسماً الى جاره الأيمن ، وهو طالب قدر يقصد دار الكتب غالباً . وقد تركه الآخر يتأمله لحظة . ثم مدّ له لسانه فجأة وهو يكشر تكشيرة فظيعة . واحمرّ العصامي ، وأسرع يُفرق الله في كتابه ويستغرق في قراءته .  
وعدت الى الافكار التي راودتني بالأمس . وكنت جافاً تماماً : كان لديّ سواء ألا تكون قد حدثت لي مغامرات . وانما كان يأخذني الفضول لمعرفة ما « اذا لم يكن ممكناً » ان تحدث مغامرات .

وهذا ما فكرت به : لكي يصبح أطفه حدث مغامرة ، فيجب وبكفي ان يأخذ المرء بـ « سرده » وهذا ما يندعج الناس : إن الانسان هو دائماً سارد حكايات ، هو يعيش عاطفاً بقصصه وقصص الآخرين ، وهو يرى عبرها كل ما يحدث له ، ويسمى لأن يعيش حياته كما لو أنه يحكيها . ولكن لا بد من ان يختار : بين ان يعيش او ان يحكي . فأنا مثلاً حين كنت في هامبورغ مع « إيرنا » هذه التي كنت أحذرها والتي كانت تخافني ، كنت اعيش حياة غريبة . ولكنني كنت في داخلها ، ولم أكن أفكر فيها . وذات مساء ، في مقهى صغير بسان باولي . تركتني فاصدة المغاسل . وبقيت وحدي ، وكان ثمة فونوغراف يعني « السماء الزرقاء » فأخذت أروي لنفسي ما حدث منذ إبحاري . وقلت لنفسي : « في المساء الثالث ، دخلت مرقصاً يدعى « لاغروت بلو » ، فلاحظت امرأة طريفة نصف ثملة . وهذه المرأة ، هي التي انتظرها في هذه اللحظة ، وأنا اسمع « السماء الزرقاء » . وهي التي ستعود لتجلس الى يميني وتحيط عني ببنزاعها . » وأذاك ، أحست بعنف انه كانت لي مغامرة . ولكن « إيرنا » عادت ، وجلست قربي ، وأحاطت عني ببنزاعها ، فاحتقرتها من غير ان اعرف السبب حقاً . وأنا الآن افهم : ذلك انه ينبغي العيش من جديد ، وان انطباع المغامرة قد تلاشى .

حين يعيش المرء ، لا يحدث شيء . كل ما في الأمر ان الديكورات تتغير وان الناس يدخلون ويخرجون . ليس ثمة بدايات قط . ان الايام تضاف الى الايام بلا وقع ولا سبب ، فهي عملية جمع رتيب لا ينتهي . وبين القينة والقينة نرسم مجموماً جزئياً ، فنقول : هذه ثلاثة اعوام سافرت فيها ، ثلاثة اعوام وأنا في بوفيل . كذلك ليس ثمة من نهاية : ان المرء لا يغادر قط امرأة وصديقاً ومدينة مرة واحدة . ثم ان كل شيء متشابه : شتغهاي وموسكو ومدينة الجزائر . فبعد خمسة عشر يوماً ، يصبح كل شيء متشابهاً . وتأتي لحظات - نادرة - يضع فيها المرء النقاط على الحروف ، فيلاحظ انه التصق بالمرأة ، وغرق في حكاية قدرة . ولا يستغرق ذلك اكثر من لمع البرق . ثم يستأنف العرض من

جديد ، ويعود المرء الى القيام بجميع الساعات والايام : الاثنين ، الثلاثاء ،  
الاربعاء . نيسان ، ايار ، حزيران . ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ .

هذا ، هو ان يعيش الانسان . اما حين يروي الحياة ، فان كل شيء يتغير ؛  
غير انه تغير لا يلحظه احد : والدليل انه يتحدث عن قصص حقيقية . كما لو  
انه كان ممكناً ان تكون هناك قصص حقيقية ، ان الاحداث تقع في اتجاه ، ونحن  
نرويها في اتجاه معاكس . ويبدو علينا اننا نبدأ منذ البداية : « حدث ذلك  
ذات مساء جميل من خريف ١٩٢٢ . وكنت آنذاك خادماً كاتب عدل في  
مارمون . » والواقع اننا نكون قد بدأنا من النهاية . انها هنسا ، غير مريئة  
وحاضرة ، وهي التي تمنع هذه الكلمات القليلة أمة البداية وقيمتها . « كنت  
أنتزّه ، وكنت قد خرجت من القرية من غير ان أتنبه ، وكنت أفكر في متاعبي  
المالية . » ان هذه العبارة ، اذا أخذت على ظاهرها ببساطة ، تعني ان الرجل  
كان مستغرقاً ، ضجراً ، على بعد مئة ميل من المغامرة ، وهو بالضبط في ذلك  
النوع من المزاج الذي يدع للأحداث ان تمر من غير ان يراها . ولكن النهاية  
موجودة هناك ، وهي تغير كل شيء . ان الرجل ، بالنسبة إلينا ، قد أصبح  
بطل القصة . وضجره ومتاعبه المالية هي آثمن من ضجرتنا ومتاعبنا ، انها مذهبة  
تماماً بنور العواطف القادمة . وتحضي القصة بالقلوب : لقد كشفت اللحظات  
عن ان تراكم بعضها فوق البعض ، وهي مخطوفة خطأ سريعا بنهاية القصة التي  
تجذبها ، وكل واحدة تجذب بدورها اللحظة التي تسبقها : « كان الليل  
هابطاً . وكان الشارع مقفراً . » إن العبارة ملقاة بإهمال ، وهي تبدو زائدة ؛  
ولكننا لا ندع انفسنا نتخدد بها ، ونقصعها جانباً : انها إرشاد سندر ك قيمته  
فيها بعد . وإن لدينا الشعور بأن البطل قد عاش جميع تفاصيل هذه الليلة  
كأنها إرغاصات ، كأنها وعود ، او انه كان يعيش من التفاصيل ما كان  
وعوداً فحسب ، أمعى وأصم بالنسبة لكل ما لا يرهص بالمغامرة . اننا ننسى  
ان المستقبل لم يكن بعد هناك ؛ ولقد كان الشخص ينتزّه في ليل بلا طلائع ،  
ليل كان يمنحه ثرواته الرتيبة ممتزجة ، ولم يكن يختار .

لقد اردت ان تتابع لحظات حياتي وتنظم كلحظات حياة يتذكرها المرء .  
وكان هذا يعادل محاولة القبض على الزمن من ذنبه .

### الاحد

كنت قد نسبت هذا الصباح ان اليوم يوم احد . ولقد خرجت ومضيت في  
الشوارع على مألوف العادة . وكنت قد حملت « اوجين غرانديه » . ثم شعرت  
فجأة ، ببها كنت ادفع حاجز الحديقة العامة ، ان شيئاً ما يومية إلي . كانت  
الحديقة مقفرة وعارية . ولكن ... كيف أعبر ؟ لم يكن لها مظهرها العادي ،  
بل كانت تبسم لي . وقد ظلت لحظة مستنداً الى الحاجز ، ثم فهمت فجأة ان  
اليوم كان يوم احد . وكان قائماً هناك على الشجر وعلى الاعشاب ، كبسة  
خفيفة . وكان ذلك لا يمكن وصفه ، وكان يقتضي المرء ان يلفظ بسرعة :  
« انها حديقة عامة . في الشتاء ، صباح يوم احد » .

وتركت الحاجز ، وانفقلت نحو البيوت والشوارع البورجوازية وقلت  
بصوت منخفض : « انه يوم الاحد » .

انه يوم الاحد : فقد كان خلف احواض السفن ، على طول البحر ،  
بالقرب من محطة البضائع . وحول المدينة كلها ، اكواخ فارغة وآلات جامدة  
في الظلام . وكان في جميع البيوت رجال يحلقون ذقونهم خلف نوافلهم ، ان  
رؤوسهم مقلوبة ، وهم يحذقون احبائاً في مراياهم وأحياناً اخرى في السماء  
الباردة ليعرفوا ان كانوا سينمون بطفس جميل . وتفتح المواخير ابوابها لربائنها  
الاولين ، من القرويين والجنود . وفي الكتائب ، على ضوء الشموع ، بشرب  
رجل الحمر امام نساء راكعات . في جميع الضواحي ، بين جدران المصانع  
التي لا تنتهي ، أخذت صفوف طويلة سوداء في السير ، متقدمة ببطء نحو  
وسط المدينة . وقد اتخذت الشوارع لاستقبالهم مظهرها الذي تتخذه في ايام  
الاضطراب : فقد اسدلت جميع المخارن ، باستثناء مخازن شارع «تورنوبريد»



ستائرهما الحديدية . ولن تلبث الاعمدة السوداء ان تغشى في صمت هذه الشوارع التي تتمدد ممتدة : فيأتي اولاً عمال سكك تورفيل ونسائهم الذين يعملون في مصابن سان - سامفورين ، ثم صغار بورجوازيي جوكتوبوفيل ، ثم عمال مصانع بينو للغزل والنسيج ، ثم جميع حيرفيتي حي سان - ماكسانس ، اما رجال تياراش فيسكونون آخر الواصلين بترام الساعة الحادية عشرة . ولن يلبث جمع ايام الاحاد ان يولد بين المخازن والابواب المغلقة .

وتدق ساعة النصف بعد التاسعة فأبدأ المسير : ان يوسع المرء ان يرى في بوفيل ، في مثل هذه الساعة من يوم الاحد ، منظرأ هاماً . على ألا يصل متأخراً أكثر مما ينبغي عن ساعة الخروج من القديس الكبير .

ان شارع جوزفين - مولاري الصغير ممت ، ومنه تنبعث رائحة كهف . ولكن ضجة ضخمة تملأه ، ضجة مدوجزر ، كجميع ايام الاحد . وأنعطف في شارع بريزبدان - شامار الذي تتألف بيوته من ثلاثة طوابق ذات شبابيك طويلة بيضاء . ان شارع كتاب العدل هذا مأخوذ كلياً بصخب يوم الاحد الهائل . وتزداد الضجة في عمره جيهه ، وانا اتعرف عليها : انها ضجة تحديها البشر . ثم يحدث فجأة ، الى اليسار ، ما يشبه انفجار ضوء وأصداء . لقد وصلت : هو ذا شارع تورنوبريد . وليس لي إلا ان آخذ مكاني بين امثالتي ، وسأرى السادة النبلاء يتبادلون التحية بالقبعات .

منذ سنتين سنة فحسب ، لم يكن احد ليجرؤ على التنبؤ بمصير شارع تورنوبريد العجائبي . هذا الشارع الذي يطلق عليه سكان بوفيل اليوم اسم « البرادو الصغير » . ولقد رأيت خارطة ترجع الى عام ١٨٤٧ لم يكن هذا الشارع حتى مائلاً فيها . ولا بد انه كان آنذاك زقاقاً متناً أسود ذا ساقية تجحف بمجراها بين البلاط رؤوس السمك وأمعاءه . ولكن « المجلس القومي » أعلن في آخر عام ١٨٧٣ ان من المصلحة العامة بناء كنيسة على ثلة مونمارتر . وبعد أشهر قليلة ، حدث نجل لامرأة مختار بوفيل : لقد جاءت سيدتها القديسة سيسيل تقدم لها نصائح . أكان من المحتمل ان تتوحد النخبة كل يوم احد

لتقصد كنيسة سان - رونييه او كنيسة سان - كلوديان من اجل ان تحضر  
القدّاس مع الباعة ؟ ألم يسبق « للجمعية الوطنية » ان ضربت المثل ؟ ان يوفيل  
تتمتع الآن ، بفضل حماية السماء ، بمركز اقتصادي من الطراز الاول ، أليس  
من الملائم بناء كنيسة حمداً للرب ؟

وقُبِلَت هذه الرؤى : فعقد المجلس البلدي جلسة تاريخية ، وقبل الاسقف  
ان يجمع التبرعات . وبقي اختيار المكان . وكان رأي أسر التجار ومتعهدي  
المراكب ان يُقام البناء على قمة « التلة الخضراء » . حيث كانت تقيم هذه  
الأسر ، « لثسهر القديسة سانت - سيسيل على يوفيل . كما يسهر « قلب يسوع  
المقدس » على باريس » . وغضب سادة جادة « ماريتم » الجدد : إنهم على  
استعداد لاعطاء كل ما يلزم . شريطة ان تبنى الكنيسة في ساحة ماريبيان ؛  
فهم إن كانوا يدفعون للكنيسة ، فانما يقصدون الافادة منها ، وهم لم  
يقضوا لإشعار هذه البورجوازية المتفطرة التي كانت تعاملهم على أنهم  
حديثو النعمة - لم يقضوا لإشعارها بقوتهم ، واقترح الاسقف تسوية :  
فبنيت الكنيسة في منتصف الطريق بين « التلة الخضراء » وجادة « ماريتم »  
في ساحة « هال - او - مورو » التي عُمِدَت ساحة « سانت - سيسيل -  
دولامير » . وهذا البناء الضخم الذي انتهى عام ١٨٨٦ ، كلف أربعة عشر  
مليوناً على الأقل .

ولا بد ان شارع تورنوبريد الواسع ، على قذارته وسوء سمعته . أعيد  
بناؤه من جديد . ودُفِع سكانه بقوة وراء ساحة سانت سيسيل ؛ وأصبح  
« البرادو الصغير » - ولا سيما صباح الاحد - ملتقى الأتقيين والأعيان . وفتحت  
المخازن واحداً فواحداً على ممر النخبة . وهي تبقى مفتوحة اثنين الفصح .  
وطوال ليلة الميلاد . وكل يوم احد حتى الظهر . والى جانب « جوليان »  
المشهور بمعجناته الحارة . يعرض « فولون » بائع الخنوى مصنوعاته  
العظيمة الخاصة من حلوى « البوتي فور » ذات الشكل المخروطي بالزبدة  
البنفسجية التي تملؤها بنسجة من السكر . وفي واجهة مكتبة « دوباتي »

تُرى آخر منشورات « بلون » ، وبعض المؤلفات التكميلية ، من مثل نظرية عن « السفينة » او دراسة عن « الأشرطة » ، او تاريخ كبير مصور لمدينة بوفيل ، ومطبوعات فاخرة معروضة بأناقة مثل « كونيغسمارك » المجلد بمجلد أزرق ، و « كتاب اولادي » لبول دومبر ، المجلد بمجلد اصفر مع زهور أرجوانية . وهناك غيلين « غياطة رفيعة » ، موديلات باريسية « الذي يفصل ياجو بائع الزهور عن بائعين بائع الاكثريات . ويحتل المزين غوستاف ، الذي يستعمل اربعة فنيين ، الطابق الأول من بناية جديدة مطلية بالأصفر .

منذ عامين ، كان حانوت صغير جري ، يقوم عند زاوية عمر « مولين - جيمو » وشارع تورنوبريد ، ما يزال يعرض اعلاناً عن « تو - يو - نيه » المبيد للحشرات . وكان الحانوت قد ازدهر ، اذ كانوا يتنادون على السمك في ساحة سان سيبيل ، وكان قد بلغ آنذاك مئة سنة من عمره . وكان قادراً ما يغسلون زجاج واجهته : من اجل هذا ، كان لا بد من بذل الجهد لكي يميز المرء ، عبر الغبار والبخار ، جمعاً من الاشخاص الشعبية الصغيرة التي ألبت ثياباً قصيرة ذات لون قاري ، تمثل جرداناً وفتراناً . وكانت هذه الحيوانات تغادر سفينة حربية وهي تستند الى النصب ، وما تكاد تمس الارض حتى تقبل فلاحه ترتدي ثياباً أنيقة . ولكنها قد اسودت من الأقدار . فتحملها على الحرب حين تلقي عليها ميد الحشرات . وقد كنت أحب هذا الحانوت كثيراً ، وكان له منظر وقع وعيب ، وكان يكثر في فحة بحقوق الدود والقذارة ، على بعد خطوتين من اغلى كنائس فرنسا كلفة .

ولقد ماتت العقاقيرية العجوز في العام الماضي وباع حفيدها البيت . وقد كان كافياً هدم بعض الجدران : فاذا هي الآن قاعة صغيرة للمحاضرات باسم « لابيونيير » وقد اعطى فيها هنري بورودو ، في العام الماضي ، حديثاً عن تسلق الجبال .

وفي شارع تورنوبريد . ينبغي على المرء ألا يكون عجلاً : إن الأمر تحشي ببطء . ويربح المرء احباً مفعاً من الصوف حين تدخل أسرة برمتها

حانوت فولون او بياجوا . ولكن ينبغي له في فترات اخرى ان يقف حين  
تلتقي أسرتان تنتمي احدهما الى الصف الصاعد . والاخرى الى الصف  
الهابط . فتشابهكان بالايدي تشابكاً صلباً . وأنتدّم بحظي صغيرة ، فأشرف  
على الصفين برأسي وأرى قيعات . محرراً من القبعات . وأكثرها سوداء  
قاسية . وبين القينة والقينة نرى احداها وهي تطير بطرف ذراع كاشفة التماع  
صلعة رقيقاً ، وبعد لحظات ، تعطف على الرأس ، في طيران ثقيل . وفي  
الرقم ١٦ من شارع تورنوبريد ، علقى « اوريان » بائع القبعات ، الاخصائي  
في قبعة « الكبي » ، قبعة كبيرة لأسقف ، كأنها الرمز ، تتدلى طرفها  
الذهبية على بعد مترين من الأرض

ويتوقف الجميع : واذا بفريق يتجمع تحت الطور تماماً . ويتنظر جاري ،  
من غير تفاد صبر ، متدلي الذراعين : وأنا اعتقد جيداً ان هذا المعجوز القصير  
المتنفع الخشوع كالبورسلين ، انما هو « كوفييه » ، رئيس غرفة التجارة  
ويدو مخوفاً جداً لمرط اعتصامه بالصمت . وهو يسكن في قبة « الثلة الخضراء »  
بيتاً كبيراً قرميدي السقف ، نظلّ نوافذه مشرعة ابداً . ثم ينتهي الأمر . فقد  
انقرط الجميع وعاد الى السير . وتشكل جمع آخر ، ولكنه احتل مكاناً اصغر :  
فما كاد يشكّل حتى اندفع الى واجهة غيبين على ان الصف لم يتوقف ،  
وانما هو ينحرف انحرافاً يسيراً ، وتلمّ ستة اشخاص مناسكي الأيدي :  
« صباح الخير ، يا سيدي ، صباح الخير يا سيدي العزيز ، كيف الحال ، ولكن  
تغطّ جيداً يا سيدي ، فانك ستصاب بالبرد ، شكرآ يا سيدي ، ان الطقس  
ليس حاراً . يا عزيزني . أفدّم لك الدكتور لوفرنسوا ، انا سعيدة جداً  
يا دكتور بالتعرف اليك ، ان زوجي يحدثني دائماً عن الدكتور لوفرنسوا الذي  
عالجه معالجة ممتازة ، ولكن تغطّ جيداً يا دكتور ، فانك قد تصاب بأذى في  
هذا البرد . ولكن الدكتور يشعئ بسرعة ، أسمعاً يا سيدي ، انما الاطباء هم اقل  
الناس عناية بأنفسهم . ان الدكتور موسيقي مرموق . اوه ، يا دكتور . لم اكن  
أعرف ذلك ، هل تعزف على الكمان ؟ ان الدكتور ذو موهبة غنية » .

أكدت ان العجوز الصغير الواقف جانباً هو « كوفيه » ، ان هناك في  
ساعة الجمع واحدة . هي السحراء ، تأكله بعينها . فها هي تدم جهة الدكتور  
ويبدو انها تفكر : « هوذا السيد كوفيه لا يتنازل لرؤية شيء » : ان هؤلاء  
اناس من جادة « ماريتيم » ، هم ليسوا من عليا القوم . فلقد العهد الذي اجيء  
فيه الى هذا الشارع لأرى تبادل التحية بالقبعات يوم الأحد . تعلمت ان اميز  
اناس الجادة ، من اناس « التلة » . فحين يرتدي شخص معطفاً جديداً ،  
ولادة طرية . وفيصاً باهراً ، ويتخذ المظاهر المختلفة ، فليس ثمة مجال للانخداع  
بشأنه : انه واحد من جادة ماريتيم اما رجال « التلة الخضراء » فيتميزون بما  
لا ادريه مما يوحي بالشفقة والميوط . انهم كثفين ضيقين وهيئة قحة على  
وجوه هالكة . وأنا اراهم ان هذا السيد الكبير الذي يمسك بيد غلام ، انما هو  
من « التلة » . ان وجهه رمادي تماماً وربطة عنقه معقودة كأنها الخيط .

ويقرب الرجل السمين منا ، فينظر محذقاً بالسيد كوفيه . ولكنه قبل ان  
يبتلع به ، يلفت رأسه وأخذ في مزاح ابوي مع صبيته الصغير . ويقوم بضع  
خطى اخرى ، متجنباً فوق ابنته . وعيناه غارقتان في عينيه . فلا يبدو الا أباً :  
ثم يلتفت فجأة نحونا ، فيلقي على العجوز الصغير نظرة حية ، ويرسم تحية  
واسعة وجافة بلهجة من ذراعه . ولم يكشف الصغير عن نفسه ، رغم  
حيرته : فذلك قضية بين الأشخاص الكبار .

وعند زاوية شارع « باس-دو - في » يصطدم صفتان بصف من المؤمنين  
يخرجون من القداش ، فيتصادم عشرة اشخاص ويتبادلون التحية وهم يدومون ،  
ولكن حركات القبعات تمضي اسرع من ان تستطيع تفصيلها : وفوق هذا الجمع  
الفضخم الشاحب . تنصب كنيسة سانت سبيل كتلتها الشيطانية البيضاء : يياض  
طبشوري على سماء معتمة ، وخلف هذه الجدران الساطعة . تُمسك بين  
جوانبها قليلاً من سواد الليل . وتعود الى السير ، وقد تغير النظام بعض الشيء .  
وكان السيد كوفيه قد دُفع حتى غدا ورائي . والتصفت بجني الأيسر امرأة  
ترتدي ثوباً كحلياً ، وهي قادمة من القداش . انها تطرف بعينها . وهي مبهورة

بعض الشيء بالعودة الى نور الصباح . وهذا السيد الذي يمشي أمامها وله رقبة هزيلة جداً ، هو زوجها .

وكان على الرصيف الآخر رجل يمسك امرأته من ذراعها ، وقد هس لها يضع كلمات في أذنها وأخذ يتسم . وسرعان ما جردت سحتها المائعة من كل تعبير وخطت بضع خطى عمية . ان هذه العلامات لا تخدع : فلا شك في انها سحبيبان . وبالفعل ، لم تمض لحظة حتى قذف السيد يده في الهواء ، حتى اذا اصبحت اصابعه على حدود لبادته ، ترددت لحظة قبل ان تخط على القبة . وفيما كان يرفعها بعذوبة ، وهو يخفض رأسه قليلاً ليساعد على نزولها . قامت زوجته بقفزة قصيرة وهي ترسم على وجهها بسملة نضرة . وتجاوزها طيف وهو ينحني : ولكن بسميتها التوأمين لم تمحيا على الفور ، بل ظلتا بضع لحظات على شفثيها ، في شيء من الارتعاش . وحين التقى السيد والسيدة بي ، كانا قد استعادا جمودهما ، ولكن بقيت لهما هيئة مرحة حول القم .

وانتهى الأمر : ان الجمع اقل كثافة ، وحر كات القبعات اصبحت نادرة وواجهات المخازن تبدو اقل جاذبية ؛ انني في اقصى شارع تورنوبريد . اتراني سأعبر الشارع وأصعد على الرصيف الآخر ؟ احسب اني اكتشفت . فحسبي ما رأيته من هذه الصلعات الوردية ، وهذه السحن الدقيقة ، المحوقة ، المتميزة . سأعبر ساحة ماريتان . واذ كنت انزع نفسي بحيلة من الصف اثيق بالقرب مني رأس سيد حقيقي من قبعة سوداء . انه زوج السيدة ذات الثوب الكحلي . آه ، يا لجمال صلعة الوجه الطويل ، المزروعة بشعر قصير فاس ، ويا للشارب الاميركي الجميل الذي اثبتت فيه خيوط فضية . ولا سبا البسمة ، البسمة الرائعة المدروسة . وهناك نظارة ايضا ، في مكان ما من الأنف .

وكان يلتفت الى زوجته ويقول لها :

— انه رسام جديد في المصنع . وأنا أتساءل عما عساه يفعل هنا . انه صبي صغير طيب ، خجول ، وهو يسألني .

وكان الرسام الشاب الذي اعاد فبته الى رأسه ، اراء زجاج اللحام جوليان ،  
ما يزال متورداً . خافض العينين عتيد الهيئة ، يحتفظ بجميع مظاهر الشهوة  
العنيفة انه بلا شك يوم الأحد الاول الذي يجرق فيه على عبور شارع تورنوبريد  
وهو يبدو كمن يتناول للمرة الاولى . فقد شبك يديه خلف ظهره وأدار  
وجهه نحو الواجهة بيئة حشمة مشيرة تماماً ، وهو ينظر من غير ان يرى  
الى اربعة امعاء لامعة تفتتح على تابلها من البقدونس .

وخرجت امرأة من حانوت اللحام فأمسكت بذراعه . انها امرأته ،  
وهي نظرة صبية بالرغم من جلدتها المتآكل . وهي تستطيع ان تمتشي في  
اطراف شارع تورنوبريد . ولن يعتبرها احد سيدة ؛ فان لمعان عينيها الوقع  
وهيبتها العاقلة الرصينة يخونانها . ان السيدات الحقيقيات لا يعرفن ثمن الأشياء ،  
وهن يحبن الاعمال الخنوية الجميلة ؛ وعيونهن هي زهور جميلة طاهرة ،  
زهور مضمخة قبل الأوان .

وحين آذنت الساعة الواحدة وصلت الى مطعم فيزليز . ان المستين هناك ،  
على مأثور العادة . وقد بدأ اثنان منهم في تناول الطعام . وهناك اربعة يلعبون  
الورق وهم يتناولون المقبل . اما الآخرون فواقفون ينظرون الى لعبهم بينما  
يُعد لهم الطعام . ان اكبرهم ؛ وهو ذو لحية طويلة ، وكيل صرافة ؛ وهناك  
آخر . مفوض مقاعد في «التسجيل» البحري . انهم يأكلون ويشربون  
كما لو انهم في العشرين ؛ وهم يأكلون الكرفب يوم الأحد . اما آخر  
الواصلين . فينادون الآخرين الذين بدأوا طعامهم .

- واذن ؟ انه دائماً الكرفب الرباني ؟

ويجلسون وهم ينتهدون رضى .

- صغبرتي ماريت ، نصف قدح بيرة ، وصحن كرفب .

وماريت هذه فتاة نشيطة وفيما كنت اجلس على طاولة . في الداخل ،  
أخذ عجوز محمرة الوجه يسعل من الغضب بينما كانت تصب له قدح  
فوموت ، وقال وهو يسعل :

- عجباً ! صبي المزيد منه .

ولكنها غضبت بدورها : فأنما لم تكن قد انتهت من الصب :

- ولكن دعني أصب ، من الذي يقول لك شيئاً ؟ انك تشبه الشخص

الذي يزرع نفسه قبل ان يتحدث اليه احد .

فأخذ الآخرون يضحكون .

- لقد أصبت المهدف ؟

وحين اتجه وكيل الصرافة للجalous ، اخذ مارييت من كتفها :

- اليوم هو الأحد يا مارييت . فهل تذهبن الى السينما بعد الظهر .

مع صديقك الصغير ؟

- آه ، نعم . انه يوم الطرايت . اما بشأن الصديق الصغير .

فأنا الذي انعمت النهار .

وجلس وكيل الصرافة ، تجاه عجوز حليق الذقن ، ذي مظهر شقي . ولم

يلت العجوز الحليق ان بدأ قصة حياة . ولم يكن وكيل الصرافة يصغي اليه .

بل كان يكشر ويشد على لحيته . انها لا يصغيان الى بعضها ابداً .

وأعترف على جاري . انه تاجر صغير من الجوار يصحبه زوجته ، ويوم

الأحد ، تأخذ خادمتهما اذنها ، فيقصدان هما المطعم ، ويجلسان دائماً الى

الطاولة نفسها . ان الزوج يأكل قطعة وردية من لحم البقر ، وهو ينظر اليها

عن كئيب وينخر بين الفينة والفينة . اما الزوجة فتحدث حركات بطيئة

في صحتها . انها شقراء قوية في الأربعين من عمرها ذات حدين احمرين

قطيعين . ولها نهدين جميلان قاسيان تحت قبصها من الساتان . وهي تشرق .

كالرجال . زحاجة خمرها الاحمر في كل وجبة .

سأقرأ « اوجيني غرانديه » ، وليس السبب اني اصيب في قراءتها

متعة . وانما لا بد من عمل شيئاً ما . وأفزع الكتاب انفاقاً : ماذا الأم

والابنة تتحدثان عن حب اوجيني الوليد :



« وقبّلت أوجيني يدها وهي تقول :

— كم أنت طيبة يا أمي الحبيبة ؟

وجعلت هذه الكلمات وجه الأم الذي أذهله آلام طويلة يشعّ إشعاعاً .

وسألت أوجيني :

— هل تجدينه مناسباً ؟

فلم تجب الأم غرائده بغير بسمة ، ثم قالت ، بعد لحظة صمت ، بصوت

منخفض :

— اتركك قد احببت ؟ ان ذلك سيكون سيئاً .

قالت أوجيني : — سيئاً ، لماذا ؟ انه يروق لك ، ويروق لنانون . فلماذا

لا يروق لي ؟ هيا يا ماما ، لنهيه مائدة غدائه .

وأقمت بما بين يديها من عمل ، وكذلك فعلت امها وهي تقول لها :

— انك مجنونة !

ولكن لئلاّ لها ان تترك جنون ابنتها بان تشاظرها اياه .

ونادت أوجيني نانون :

— نعم ، ماذا تريدان ايضاً يا آنسة ؟

— نانون ، أأكون عندك قشدة ، عند الظهر ؟

فأجابته الخادم المعجوز :

— عند الظهر ، نعم .

— حسناً ، لمزجتها بكثير من القهوة ، فقد سمعت من يحدث السيد

ديفراشين ان القهوة نوضع بكثرة في باريس . فأكثرني منها .

— ومن اين تريدان ان آتي بها ؟

— اشتريناها .

— واذا التقى بي السيد ؟

— انه في حقله ... »

كان جاري وزوجته قد بقيا صامتين منذ وصولي . ولكن صوت الزوج انتزعني فجأة من قراءتي . اذ قال بلهجة غامضة مرحة :

- قولي ، هل رأيت ؟

فانتفضت المرأة ونظرت اليه ، خارجة من حلم . وصل "ياكل ويشرب" . ثم استطرد باللهجة الحبيثة نفسها :

- ها ! ها !

وساد صمت ، وعادت المرأة فسقطت في حلمها . ثم ارتعشت فجأة وسألت :

- ماذا تقول ؟

- سوزان بالأمس .

قالت المرأة : - آه نعم ! لقد ذهبت لمقابلة فيكتور .

- ما الذي كنت قد قلته لك ؟

ودفعت المرأة صحنها بيثة من فقد صبره :

- انه طعام رديء .

وكانت اطراف صحنها ملأى بأكر من اللحم الرمادي الذي لفظته .

وتابع الزوج فكرته :

- تلك المرأة القصيرة هناك ...

وصمت وهو يتسم بغموض . وكان وكيل الصرافة نجاهنا يلامس

ذراع مارييت وهو يلهث قليلا . وبعد لحظة :

- سبق ان قلت لك ذلك ، منذ ايام .

- ما الذي قلته لي ؟

- انها ستذهب لمقابلة فيكتور .

ثم سألت فجأة بلهجة مذعورة :

- ماذا هناك ؟ الا تحبين هذا ؟

- إنه طعام رديء .

فقال في أهمية :

- ليس الأمر بعدُ كما كان في عهد هيكار . أنعرفين أين هو ، هيكار ؟
- أليس هو في دومرعي ؟
- بلى ، من قال لك ذلك ؟
- انت . فلته لي يوم الأحد .
- وأكلت كسرة خبز كانت ملفاةً على خوان الورق . ثم قالت وهي تملّس يدها الورق على حافة الطاولة ، مترددة :
- أنعرف انك غطيه ؟ ان سوزان اكثر . .
- فأجاب في شرود :
- هذا ممكن ، ممكن جداً يا صغيرتي :
- ونحى بعبه عن مارييت ، ثم اوماً لها .
- ان الطفلس حار .
- واستندت مارييت بأذنه على حافة الطاولة . فقالت المرأة وهي تنتن :
- اوه ! نعم . الطفلس حار . ان المرأة ليختنق هنا ، ثم ان لحم البقر رديء . وسأبلغ المعلم ذلك ، لقد تغير الحال . افتحي قليلاً كوة الباب ، يا صغيرتي مارييت .
- واستعاد الزوج هيئته المرحه
- ولكن ألم تري عينيها ؟
- ولكن منى يا عزيزي ؟
- فقلّدها بمعاد صر :
- ولكن منى يا عزيزي ؟ انت لا تتغيرين : في الصيف ، حين يهطل الثلج .
- تفقد أمس ؟ آه ، حسناً !
- وصحكت . وظهر الى البعد ، ثم قال بسرعة ، في شيء من الجهد :
- عينا قلّة تعوط في الرماد .
- وبدا من شدة الرضى بحيث نسي ما كان يود ان يقول . وأخذها المرح بدورها . من غير فكرة مسبقة :

- ها ! ها ! يا لك من خبيث كبير !  
 ووجهت الى كتفه ضربات صغيرة :  
 — يا لك من خبيث كبير ! يا لك من خبيث كبير !  
 فردّدت في مزيد من الثقة :  
 — ... نقطة نفوطة في الرماد .  
 ولكنها كفّت عن الضحك :  
 — كلا ، انها حقاً رصينة .  
 وانحى فهمس في أذنها حكاية طويلة . ونظرت لحظة فارغة الفم . متوترة  
 الوجه ، حدلة ، كمن يوشك ان يتفجر ضاحكاً . ثم ارتدت فجأة الى خلف  
 وغشت يديه فائلة :  
 — هذا غير صحيح ، هذا غير صحيح -  
 وقال بلهجة متعقّلة رصينة :  
 — أصفي إليّ يا صغيرتي ، ما دام قد قلنا : فلو لم يكن ذلك صحيحاً ،  
 فلماذا تراه قد قلنا ؟  
 — لا ، لا .  
 — ولكن ما دام قد قلنا : إسمعي ، إفرضي ...  
 فأخذت تصحك :  
 — أضحك لأنني فكرت في رينه .  
 — نعم .  
 وضحك هو ايضاً . واستطردت بصوت منخفض ينم عن الأهمية :  
 — إنه اذن لاحظ الأمر يوم الثلاثاء .  
 — بل يوم الخميس .  
 — كلا ، بل الثلاثاء ، انت تعلم بسبب ...  
 ورسخت في الجو شكلاً اهليلجياً . ثم ساد الصمت . وغس الزوج كسرة  
 خبز في مرقه ، وغيّرت مارييت الصحون وحملت لها الحلوى . عما قليل ،

سأخذ أنا أيضاً قطعة حلوى . ومجأة أرسلت المرأة وهي في وضع حالم ، وعلى شفيتها بسمه اعتراض لا تخلو من دهشة ، صوتاً معطوطاً :

— اوه . كلا . انت تعلم !

وكان في صوتها قدر كبير من الشهوانية ، حتى انه انفعَلَ ولا مَسَ رقبتها بيده السمينة . وتحتمت وهي تبسم ، وفمها ممتلئ :

— كفى يا شارل ، اصمت ، انك تثيرني يا حبيبي .

وحاولت ان استأنف قراءتي :

« — ومن اين تريد ان آتي بها ؟

— اشترىها .

— واذا التقى ببي السيد ؟ »

ولكني ظلمت اسمع المرأة تقول :

— اسمي يا مارت ، انني سأضحكها : سأروي لها ...

ثم سكّت جاري وزوجته . وأعطتهما مارييت ، بعد الحلوى ، خوخاً ، فانشغلت المرأة كل الانشغال بأن اخذت تبيض النوى ، برشاقة ، في ملعقتها . وكان الزوج . وعينه في السقف ، يوقع على الطاولة لحناً عسكرياً . فكان من يراهما يعتقد ان حالتهما الطبيعية هي الصمت ، وان الكلام حتى صغيرة تنتابهما احياناً .

« — ومن اين تريد ان آتي بها ؟

« — اشترىها . »

وأغلقت الكتاب ، ومضيت لأتزره .

وجئن لحرجت من مطعم فيزاليز ، كانت الساعة تقارب الثالثة ، وكنت أحسّ بعد الظهر في كل جسمي المثلث . لا بعد ظهري أنا : وانما بعد ظهرهم هم ، ذلك الذي سيعيشه مئة الف من سكان يوفيل بطريقة مشتركة . انهم في هذه الساعة نفسها . بعد غداء الأحد اللذيذ الطويل ، ينهضون عن الطاولة ، وقد مات شيء ما في نظرهم . إن يوم الأحد قد أتلف شبابه الخفيف . ويجب هضم

القروج والحلوى ، وارتداء الثياب للخروج .

وكان جرس سينا الدورادو يُصدي في الهواء الطلق . إنها ضجة يوم الأحد المألوفة ، هذا الجرس في وضوح النهار . وكان أكثر من مئة شخص واقفين في الصف ، يلزأ الجدار الطويل الأخضر . وكانوا ينتظرون بنهم ساعة الظلمات اللذيذة ، ساعة الاسترخاء والاستسلام ، الساعة التي تلتئم فيها الشاشة كأنها حصاة بيضاء تحت الماء ، ثم تحكي وتحلم لهم . وأنها لرغبة غير مجدية : ان شيئاً ما فيهم سيظل مقبضاً ، أنهم خائفون أكثر مما ينبغي ان يُفسد يوم اجدهم . وسيصابون ، عما قليل ، بالخيبة ، كما يحدث كل احد : سيكون القلم سخيفاً ، او سيدخن جاره الغليون ويصق بين ركبتيه ، او سيكون لوسيان مزعجاً جداً ، إذ انه لن يملك كلمة لطيفة يقولها ، او ان وجمعهم بين الأضلاع سيعاودهم اليوم ، اليوم بالذات ، حين قرروا ان يقصدوا السينا . وستنبعث في القاعة المظلمة ، عما قليل . ألوان صغيرة من الغضب الاصم المتنامي .

وواصلت سيري في شارع بيرسان الهادئ وكانت الشمس قد بددت السحب وصفا الجو . وخرجت أسرة من مقصورة هلافاغ ، وكانت الفتاة تزدّر قفازيها على الرصيف ، وكانت في حدود الثلاثين من عمرها . أما الأم ، فقد كانت مزروعة على الدرجة الاولى من السلم ، تنظر امامها باستقامة . وهي تنفس تنفساً عريضاً ، هبته مطمئنة . ولم تكن ترى من الاب إلا الظهر الهائل . كان متحنياً على الففل ، يغلّق الباب بالمفتاح . إن البيت سيبقى خالياً مظلماً حتى عودتهم . وفي البيوت المجاورة ، المغلقة المغفرة ، كان الاثاث والارض الخشبية قد بدأ يطعظفان على مهل . وكان السكان ، قبل ان يخرجوا ، قد اطفأوا النار في موقد غرفة الطعام . ولحق الأب بالمرأتين ، وأخذت الأسرة في السير ، من غير كلام . أين نراهم ذاهبين ؟ ان الناس يقصدون يوم الأحد المقبرة الضخمة ، او يزورون أقارب لهم ، او أنهم يقصدون هلاغبته هلافتته . اذا كانوا احراراً تماماً . وكنت حراً : وقد واصلت سيري في شارع

بريسان الذي يقضي الى متنته « لاغبته » .

وكانت السماء ذات زرقة شاحبة : بعض دحان ، وبعد طير البلشون ،  
وبين القينة والقينة تنحرف سحابة قمر أمام الشمس . وكنت أرى في البعيد  
سياج الاسمنت الابيض الذي يبدو على طول متنته « لاغبته » وكان البحر  
يلتفع عبر الفتحات . وسلكت الاسرة ، الى اليمين ، شارع «امونية - هيلار»  
الذي يصعد الى « التلة الخضراء » . وقد رأيتهم يصعدون بخطى بطيئة . فيشكلون  
ثلاث لطلحات سوداء على الهاع الاسفلت . وانعطفت الى اليسار . فدللت في  
الجمع الذي كان يسير على حافة البحر .

وكان الجمع أكثر اختلاطاً من الصباح . وكان يبدو ان جميع هؤلاء الناس  
لم يملكوا القوة للمحافظة على ذلك التدرج الاجتماعي الجميل الذي كانوا ، قبل  
الغداء . فخوريين به كل القمحر . كان التجار والموظفون يسرون جنباً الى جنب ،  
وكانوا يدعون لأنفسهم ان يلاصهم بالمرافق ، بل ان يصدمهم ويدفعهم ،  
عمال صغار ذوو سحتن بائسة . وهكذا كانت الارستوقراطيات . ، والنخب ،  
والفرق المهنية ، قد ذابت في هذا الجمع الدافئ . وكان يبقى ثمة أناس شبه  
متوحدين ، قد كفوا عن ان يمشلوا .

مستنقع نور في البعيد ، ذلك هو البحر في حالة الجزر . وكان بعض صخور  
مزدهرة تنقب برؤوسها هذا السطح المنير . وعلى الرمل كانت فوارب صيد  
منبطحة ، غير بعيد عن المكعبات الحجرية الدبقة التي قدفت في غير انتظام  
على الرصيف لتحميه من الامواج ، وكانت تدع فيما بينها نفوياً مليئة بالصخب .  
وعند مدخل المرفأ ، كانت مجرفة الرمل تلقي ظلها على السماء التي يبيضها  
الشمس . انها تهدر كل مساء ، حتى منتصف الليل ، وتجرى ألواناً مختلفة من  
الاشياء . اما يوم الأحد ، فان العمال ينتزهون على الارض ، وليس ثمة إلا حارس  
على الشاطئ : وهكذا تصمت المجرفة .

كانت الشمس صافية وشفافة الضوء : خمرة بيضاء . وكان نورها لا يكاد  
يلامس الأجسام . ولا يمنحها ظلالاً ولا بروزاً : فكانت الوجوه والأيدي

تحدث لطخات ذهبية شاحبة . كان جميع أولئك الرجال في معاطفهم يبدون وهم يعومون ببطء على بضع بوصات من الأرض . وبين القينة والقينة ، كانت الريح تدفع الينا أشباحاً ترتجف كأنها الماء . وكانت الوجوه تنظف لحظة وتصبح طيشورية .

ذلك كان يوم الأحد ، كان الجمع محشوراً بين السباح ومداخل المقاصير ، يتدفق موجات صغيرة ، ليذهب فيضيع في ألف مجرى خلف فندق شركة التراسا طليطك . وما أكثر الاولاد ! اولاد في العربات ، وبين الأذرع ، وبالأيدي ، وهم يسرون مثنى وثلاث ، امام ذويهم ، هيئة متكيفة الوقار : كنت قد رأيت جميع هذه الوجوه ، قبل ذلك بساعات ، في ظاهر من الانتصار ، في شباب صباح احد . اما الآن ، فهي تسيل شمساً ، ولا تعبر بعد إلا عن السكون والارتخاء ، وعن لون من العناد .

قليل من الحركة : صحيح . ان ثمة بعد تلويحات بالقبعات ، ولكنها خالية من فحامة الصباح ومن مرحة العصبي . كان الناس يستسلمون للتقهقر قليلاً ، مرفوعي الرأس ، بعيد النظر . موقوفين للريح التي كانت تدفعهم نافخة معاطفهم . وتتبع بين القينة والقينة ضحكة جافة ، سرعان ما تفتق ، صبيحة ام . جانو ، جانو . هل تريد أن . ثم يعود الصمت . رائحة تبغ أشقر خفيفة : انهم المستخدمون الذين يدخنون . سلامبو . عائشة ، سكاير يوم الاحد . وقد حسيتني اقراً ، على بعض الوجوه الأكثر استسلاماً ، شيئاً من الأمي : ولكن لا ، ان هؤلاء الاشخاص لم يكونوا حزبيين ولا مرجحين : وانما كانوا يستريحون . وكانت عيونهم الثابتة والمفتوحة على سمعتها تعكس البحر والسماء ، في غير ما حركة . انهم سيعودون عما قليل الى بيوتهم ، فيشربون فنجان شاي ، مع أفراد العائلة ، على طاولة غرفة الطعام . اما الآن ، فانهم كانوا يريدون ان يعيشوا بأقل كلفة ممكنة ، وان يقتصدوا للحركات ، والكلمات ، والافكار ، ان يصبحوا متمدنين على ظهورهم : انهم لم يكونوا يملكون الا يوماً واحداً ليمحوا تبعاتهم ، ومظهر ايديهم المطلحة ، والنيبات



المرّة التي يخلّصها جهد الأسير يوم واحد . كانوا يشعرون بالدقائق تسيل من بين أصابعهم ، أترام سيناح لهم الوقت لكي يجمعوا من الشباب ما فيه الكفاية حتى ينطلقوا من جديد صباح الاثنين ؟ كانوا يتنفسون بعمق . رثتهم لأن هواء البحر يُبجي : ان أنفاسهم وحدها . أنفاسهم المنتظمة العميقة الشبيهة بأنفاس النائمين ، كانت ما تزال شاهدة على حياتهم . وكنت أمشي بخطى ذئبية ، ولم أكن أدري ما الذي افعله بجسمي القاسي الرطب ، وسط هذا الجمع الفاجع الذي كان يستريح .

وكان لون البحر قد أصبح بلون الحجر الارتوازي . وكانت ترتفع ببطء . وستكون عالية عند هبوط الليل ، وسيكون منتزه « لاغيتيه » هذه الليلة أقر من جادة فيكتور - نوار . وسوف تلتصق في المقدمة . وإلى اليسار ، نارٌ حمراء في الممر الضيق .

كانت الشمس تُهبط رويداً على البحر ، وكانت تحرق بمرورها نافذة مقصورة نورماندية . ورفعت امرأة مبهورة يدها إلى عينيها بحركة متعبة وحركت رأسها وقالت بضحكة مترددة :

— غاستون . إن هذا يبهمني .

فقال زوجها : — هيه ؟ إنها شمس صغيرة لطيفة ، فد لا تدفئ . ولكنها مع ذلك تبحث على اللذة .

وقالت وهي تلتفت إلى البحر :

— كنت أحسب أننا سترأها .

فقال الرجل : — لاحظ لنا بذلك ، فهي في الشمس .

ولابد أنهما كانا يتكلمان عن جزيرة « كايوت » التي كان المفروض أن يرى رأسها الجنوبي بين المنجرفة ورصيف المرفأ .

ورق الضوء . وكان شيء ما ، في هذه الساعة القلقة ، يؤذن بالمساء . لقد أصبح لهذا الحد ماضٍ . وكانت المقاصير والدرايزون الرمادي تبدو وكأنها ذكريات قديمة العهد جداً . وكانت الوجوه تفقد فراغها واحداً فواحداً ،

وأصبح عدد منها رقيقاً تقريباً .  
وكان ثمة امرأة حامل تستند الى شاب أشقر ذي هيئة وحشية . وقد قالت :  
— هناك ، هناك ، انظر .  
— ماذا ؟

— هناك ، هناك ، زمتج الماء .  
فهز كتفيه : لم يكن ثمة من زمتج . وكانت السماء قد أصبحت نقية تقريباً ،  
وردية بعض الشيء ، في الأفق .  
— لقد سمعتها . أصغ إليها ، إنها تترقق .  
فأجاب : — انما ذلك شيء قد صرّ .

والشمع مصباح غاز . وظننت ان مشعل المصابيح قد مر . ان الاولاد  
يترصدونه ، ذلك انه كان يعطي اشارة العودة . ولكن لم يكن ذلك إلا انعكاسة  
الشمس الاخيرة . صحيح ان السماء كانت ما تزال مشرقة ، ولكن الارض  
كانت تسيح في الظل . وكان الجمع يتبدّد ، وكانت زجاجة البحر تُسمع  
بوضوح . ورفعت امرأة شابة ، مستندة بكلتا يديها الى الدرايزون ، وجهها  
الأزرق الذي غططته بالأسود حمرة الشفتين ، رفعت وجهها نحو السماء .  
وتساءلت لحظة عما اذا كنت لن أحب الناس . ولكنه كان ، بعد كل حساب ،  
أحدّهم هم ، لا أحدي .

وكان النور الاول الذي أضاء ، هو نور منارة كايوت ، وتوقف صبي  
صغير بقربي وتعمّ بلهجة انتشاء : « اوه ! المنارة ! »  
وشعرت بقلبي إذا ذاك مليئاً بإحساس مغامرة عميق .

• • •

واتعطفت الى اليسار ، ومن شارع « فواليه » ، بلغت « لوبوني براد » .  
كان السار الحديدى مسدداً على الواجهاات . وكان شارع « تورنوبريد »  
مشرقاً ، ولكنه مقفر ، وهو قد فقد مجده الصباحي القصير ، فليس ثمة ما

يميزه بدء في هذه الساعة ، عن الشوارع المجاورة . وهبت ريح قوية بما فيه الكفاية . وسمعت قبعة الأسقف المصفحة تصر .

انا وحيد ، وقد عاد معظم الناس الى بيوتهم ، انهم يقرأون صحيفة المساء وهم يستمعون الى الراديو . وقد خلف الأحد الذي انتهى مذاق رماد عندهم ، وبدأ فكرهم يلتفت الى يوم الاثنين . ولكن ليس لي انا احدٌ او اثنين : هناك ايام تتدافع في غير انتظام ، ثم فجأة ، التهاعات كهذه الالتهاة .

لم يتغير شيء ، ومع ذلك فكل شيء موجود على نحو آخر . انني لا استطيع ان أصوّر ، ان الامر ، « كالثياني » ، وهو مع ذلك عكسه تماماً : ان مغامرة تحدث لي اخيراً ، وحين أنسامل ، أرى « انه يحدث لي اني انا وأني هنا ، انا الذي ، اشق الليل ، واني لسعيد كبطل رواية .

ان شيئاً ما يتغير : ففي ظلام شارع « باس - دو - في » ينتظرني شيء ما ، وهناك ، عند زاوية هذا الشارع الهاديء سبداً حياتي ، اني أراني أتقدم . بإحساس من حتمية القدر . ان في زاوية الشارع نوعاً من النصب الابيض ، وقد كان يبدو ، من بعيد ، اسود تماماً ، وهو لدى كل خطوة . يميل اكثر فأكثر الى البياض . ان هذا الجسم المظلم الذي يتضح رويداً رويداً خلف لدي انطباعاً خارقاً : فحين يصبح مضيقاً كل الاضواء ، ابيض تماماً ، سأتوقف بقربه تماماً ، وأتذكر اني تبدأ المعامرة . انها قرية جداً الآن ، هذه المنسارة البيضاء التي تخرج من الظلام ، حتى اني أصبت بالخوف : وفكرت لحظة في ان أعود ادراجي . ولكن ليس ممكناً لإحباط السحر . وأتقدم ، وأمد يدي ، وأمس النصب

هو ذا شارع « باس - دو - في » وكتلة كتيبة مانت سبيل الهائلة القابعة في الظل والتي يلتصق زجاج واجهاتها وتصر القبة المصفحة . لست ادري ان كان العالم هو الذي ضيق حدوده فجأة او ان كنت انا الذي يضيق بين الأصوات والأشكال وحدة قوية الى هذا الحد : انني لا استطيع حتى ان أتصور ان شيئاً مما يحيط بي هو غير ما هو .

وأترقب لحظة ، وأنتظر ، وأحس بأن قلبي يحقق ، وأقلب بعيني الساحة المقفرة ، فلا أرى شيئاً . لقد هبت ريح قوية بما فيه الكفاية . ولقد اخطأت ، ان شارع « باس - دو - في » لم يكن إلا عطة : و « الشيء » انما ينتظرني في جوف ساحة « دو كوتون » .

لست متعجلاً لاستئناف السير . وبخيل اليّ اني لمست ذروة سعادتي . ما الذي لم ابدله في مرسيليا وشنغهاي ومكناس لأريح احساساً مليئاً الى هذا الحد ، كهذا الاحساس ؟ اني اليوم لا انتظر بعد شيئاً ، وانا اعود الى بيتي ، في نهاية احد فارغ : انه هنا .

وأمضي من جديد . وتحمل لي الريح صرخة صفارة . اني وحيد ، ولكني أسير كفرقة تهبط نحو مدينة . ان هناك اللحظة سفناً تصدي بالموسيقى في البحر ، وأنواراً تضاء في جميع مدن اوروبا ، وشيوخين ونازيين يطلقون النار في شوارع برلين . وعاطلين عن العمل يضربون ارض نيويورك المبلطة ، ونساءً بالقرب من مراياهن ، في غرفة داخلة ، يضمن « الرئيل » على جفونهن . وانا هنا ، في هذا الشارع المقفر ، وكل طفلة نار تنطلق من نافذة في « نو كولن » ، وكل حشرة دامية تصعد من جرحى يحملون ، وكل حركة دقيقة تأتينا نساء يتبرجن ، نجيب على كل خطوة من خطواتي ، وعلى كل خفقة من خفقات قلبي .

وامام زقاق « جليه » لم اعرف بعد ما ينبغي لي ان افعل . اترام لا ينتظرونني في جوف الزقاق ؟ ولكن هناك ايضاً ، في ساحة دو كوتون ، بأقصى شارع تورنوويريد ، شيئاً ما يحتاج اليّ ليولد . اني ممثلي ضيقاً : فان ادنى حركة تلزمني . ولا استطع ان احدث بما يريدونه مني . ولا بد مع ذلك من الاختيار : اني اضحي بزقاق « جليه » ، وسأجهل دائماً ما كان يجنبه لي . ساحة دو كوتون خالية . اتراني قد اخطأت ؟ بخيل اليّ اني لن اتحمل ذلك اصحيح انه لن يحدث شيء ؟ اني اقرب من أضواء مقهى « مايلي » . اني مضطرب فاقد الاتجاه ، ولا ادري ان كنت سأدخل : اني ألقى نظرة

عبر الواجهات الكبيرة المبخرة .  
القاعة غاصة . والهواء الأزرق بسبب دخان السجائر والبخار الذي تصعده  
التياب الرطبة . امينة الصندوق على صندوقها . انني اعرفها جيداً : انها حمراء  
الشعر مثلي ، وفي بطنها مرض . انها تفقد قليلاً قليلاً تحت تنويرها بسمة  
كثيرة ، شبيهة برائحة البنفسج التي تصعدها احياناً الاجسام وهي في حالة  
التحلل . وتسري في جسمي رعشة من الرأس حتى القدمين : انها ... انها  
هي التي تنتظرنني . كانت هناك ناصية نصفها الأعلى الجامد فوق الصندوق ،  
وكانت تبسم . ان شيئاً ما من جوف هذا المقهى يرتد الى خلف على لحظات  
هذا الأحد المثائرة ، فيصهرها فباً بينها ، ويعطيها معنى : لقد عبرت هذا  
النهار كله لأصل الى هنا ، جبهتي ملتصقة بهذه الواجهة ، لأنأمل هذا  
الوجه الدقيق الذي يفتح على ستار غملي احمر . لقد توقفت كل شيء ،  
لقد توقفت حياتي : ان هذه الواجهة الكبيرة ، وهذا الهواء الثقيل ، الأزرق  
كأنه الماء ، وهذه التبتة السمينة في قعر الماء ، وانا نفسي ، اننا جميعاً  
نشكّل كلاً جامداً ممتلئاً : وامي لسعيد .

وحين ألقيني ثانية في جادة « لارودوت » لم يكن باقياً لديّ بعدُ إلا  
أسفٌ مرير . وكنت اقول : « شعور المغامرة ذاك ، ربما لم يكن ثمّة شيء  
في العالم احرص عليه اكثر منه . ولكنه يجيء حين يشاء ، ويذهب بسرعة  
عجيبة ، وكما اجدني جافاً حين يذهب ! ولكن أتراه يقوم بهذه الزيارات  
القصيرة الساخرة ليدلّل لي اني اضعت حياتي ؟ »

وخلفي ، في المدينة ، في الشوارع الكبيرة المستقيمة ، بأضواء مصابيحها  
الباردة ، كان حادث اجتماعي هائل يحتضر : انه نهاية الأحد .

## الاثني

كيف استطعت ان اكتب ، امس ، هذه العبارة الضخمة اللامعقولة :

« كنت وحيداً ، ولكنني كنت أسير كضفة نهبط الى مدينة ،  
لا حاجة بي الى صغ العبارات . اني اكتب لأوضح بعض الملاحظات .  
يجب الاحتراز من الأدب . ينبغي للمرء ان يكتب كما يفوقه قلمه ، من  
غير ان يبحث عن الكلمات .

والحق ان ما يفترني هو اني كنت مساء امس جزل الانشاء . حين كنت في  
العشرين من عمري . كنت أعمل ، ثم اشرح اني رجل على شاكلة ديكاوت .  
و كنت احسن جيداً اني كنت انتفض بطولة . وكنت استسلم لذلك . كان هذا  
بروق لي . غير اني في اليوم التالي . كان يتتاني مثل الاحتراز الذي احسه كما  
لو انني استيقظ في سرير مليء بالقيء . اني لا أقيء حين أعمل . ولكن الأمر  
يعادل أكثر من ذلك . بالأمس لم يكن لي حتى عذ السكر ، لقد تحمست  
كالأبله . اني محتاج الى تنظيف نفسي بافكار مجردة ، شغافة كالماء .

وشعور المغامرة ذاك . غير صادر حتماً عن الأحداث : ولقد قام على  
ذلك الدليل . وانما هو صادر بالاحرى عن الطريقة التي بها تتسلسل اللحظات .  
ها هي القضية . اني افكر بما يحدث : يشعر المرء فجأة بأن الزمن يمرني ، وان  
كل لحظة تؤدي الى لحظة أخرى . وهذه ان ثالثة . وهكذا دواليك . ان كل  
لحظة ثلاثي . ولا جدوى من محاولة إمساكها الح . الخ . . . واد ذاك . نعرو  
هذه الخاصية للأحداث التي تبدو لنا في اللحظات . ان ما نعص الشكل ،  
يعرئ الى المضمون . وبالأجمال ، يتحدثون طويلاً عن جريان الزمن هذا  
العظيم . ولكنه لا يبدأ ابدأ . اننا نرى امرأة . فننظر بأنها تصبح عجوزاً .  
غير اننا لا « نراها » تشيخ . ولكن نغيثل البنا احياناً اننا نراها تشيخ .  
وانا نحسن تشيخ معها . ذلك هو شعور المغامرة .

ان هذا يسمى . اذا لم أخطيء التذكير ، لأمقلوبية الزمن . وشعور  
المغامرة يعادل بكل بساطة الشعور بلامقلوبية الزمن . ولكن لماذا لا نملكه دائماً ؟  
هل مرء ذلك ان الزمن ليس دائماً ممنوعاً عن القلب ؟ ان هناك لحظات نحسن  
المرء فيها ان يوسع ان يفعل ما يريد ، ان يذهب الى امام او يتراجع الى خلف .

وأن هذا لا أهمية له ، وهناك لحظات أخرى يقول المرء فيها ان الحلقات قد ضاقت ، وليست القضية ، في تلك الحالة ، ان يفوت عليه الأمر ، لأنه لن يستطيع بعد ان يعيده من جديد .

كانت آني ترد إلى الزمن كل ما كان يستطيعه . فحين كانت في جيوتي ، وكنت أنا في عدن ، وحين كنت اقصد لها لأربع وعشرين ساعة ، كانت تنفتن في مضاعفة سوء الفهم بيتنا ، حتى لا يبقى بعد على ذهابي الا ستون دقيقة تماماً . ستون دقيقة ، الوقت اللازم لإشعار المرء بأن الثواني تمر واحدة واحدة . وأنا اذكر احدى تلك الامسيات العظيمة . كان علي ان ارحل عند منتصف الليل ، وكنا قد قصدنا داراً للسينما في الهواء الطلق . وكانت هي على مثل يأسي ، ولكنها كانت تمثّل اللعبة . وعند الساعة الحادية عشرة ، حين بدأ الفيلم الكبير ، تناوات يدي فشدت عليها بين يديها ، من غير ان تنبس بكلمة . وأحسنتي مغموراً بفرحة جافية ، فأدركت ، من غير ان انظر الى ساعتي ، انها كانت الساعة الحادية عشرة . ومنذ تلك اللحظة ، بدأنا نحس الدقائق تجري . وكنا سنفرق في تلك المرة ، لمدة ثلاثة اشهر . وذات لحظة ، عرّضت على الشاشة صورة بيضاء تماماً ، فرق الظلام ، ورأيت ان آني كانت تبكي ، ثم تركت يدي عند منتصف الليل . بعد ان شدتها بعنف ، ونهضت ففضيت من غير ان اقول لها كلمة واحدة . وكان ذلك عملاً موفقاً كل التوفيق .

### الساعة السابعة مساءً

يوم عمل . ولم يكن رديئاً جداً ، لقد كتبت ست صفحات ، في شيء من المتعة . لا سيما وانها كانت تأملات مجردة عن عهد بول الاول . ولقد بقيت ، بعد إدمان الأمس . مزروراً طوال النهار . كان ينبغي الا اطلب العون من قلبي ولكنني كنت احسني في متعة كبيرة وأنا افكك نوابض الاوتوقراطية الروسية . غير ان رولبون هذا يضايقي . انه يبدو شديداً الغموض في اصغر الامور .

ما الذي تراه استطاع ان يفعله في اوكرانيا شهر آب عام ١٨٠٤ ؟ انه يتحدث عن رحلته بهارات محببة :

« ان الأجيال القادمة ستحكم ما اذا كانت جهودي ، التي لا يستطيع النجاح ان يكافئها ، لم تكن تستحق خيراً من انكار وحشي وألوان من الإذلال كان لا بد من تحملها بصمت ، حين كنت أملك في صدري ما أغرس به الحارثين والقيهم في الخوف » .

لقد اتخذت به مرة : كان يبدو مليئاً بالتكهنات المدعية حول موضوع رحلة قصيرة كان قد قام بها الى بوفيل عام ١٧٩٠ . ولقد أضمت شهراً في التحقق من اعماله وحركاته . وتبين في آخر المطاف انه قد جعل ابنه احد مزارعيه يحمل منه . اليس هو بكل بساطة ممثلاً هزلياً دجلاً ؟

انني أحسني مليئاً بالحقد على هذا المختال الصغير الكذاب ، وربما كان ذلك حزناً مصحوباً بالغضب : كان يسحرني ان يكذب على الآخرين ، ولكني كنت اود لو انه استثنائي من ذلك . كنت احب اننا ستفاهم من فوق رؤوس جميع هؤلاء الاموات ، وان الأمر سينتهي به الى كشف الحقيقة لي !! ولكنه لم يقل شيئاً ، لم يقل شيئاً على الإطلاق . لم يقل اكثر مما قال للاسكندر او للويس الثامن عشر الذي كان يخدعه . يعني كثيراً ان يكون رولون شخصاً معترفاً انه خبيث بلا شك : فمن ليس كذلك ؟ ولكن أكان خبثه كبيراً ام صغيراً ؟ انني لا احترم التحريات التاريخية بما فيه الكفاية لكي اضيع وقتي مع انسان ميت لو كان على قيد الحياة لما تنازلت للتمس يده . ما الذي اعرفه منه ؟ ليس بالامكان ان يحلم المرء بحياة اجمل من حياته : ولكن أهو الذي صنعها ؟ ليت رسائله لم تكن مدعية الى هذا الحد .. آه ! كان يشمي معرفة نظره . فربما كانت له طريقة نظيفة لإمالة رأسه على كتفه . او لصب سبابته الطويلة ، في هيئة خبيثة . بجانب انه ، او لإظهار عنف موجز بين كدبتين مهدبتين . ثم ما يلبث ان يفتح ذلك العنف . ولكنه قد مات : وم يبق منه الا « دراسة عن السرائيرية » و « تأملات حول العصبيلة »



لئن أرغيت لنفسي العنان ، لنجحت في تصوّره : انه فيما وراء سحرته  
اللامعة التي سببت كثيراً من الضحايا . انسان بسيط . ساذج تقريباً . انه يفكر  
قليلاً . ولكنه اوتي كياسة عميقة تمكنه في كل مناسبة من فعل ما ينبغي فعله  
بالضبط . ان عبته طاهر ثنائي ، سخي كل السخاء . في مثل اخلاص حبه  
للفضيلة . وهو بعد ان يحون اصدقاءه والمحسنين اليه . يرتد الى الأحداث  
يجد ليستخرج منها العبرة الأخلاقية . انه لم يفكر قط ان له ادنى حق  
على الآخرين . وليس للآخرين ادنى حق عليه : فالحيات التي تمنحها اياه  
الحياة . انما يعتبرها مجانية وغير مبررة . انه يتعلّق بكل شيء تعلقاً شديداً .  
ولكنه يفضل عن كل شيء بسهولة . ورسالته وآثاره لم يكتبها هو نفسه  
قط : واما كلف الكاتب العام بتأليفها .  
ولكن لو كانت القضية ان ابلغ ما بلغته الآن . لكان احرى بي ان  
اكتب رواية عن المركيز دورولبون .

### الساعة الحادية عشرة ليلاً

تناولت العشاء في مطعم « رانديفو دي شامينو » ولما كانت صاحبة  
موجودة . وقد كان لا بد لي من مضاجعتها . ولكن ذلك كان بدافع التأدّب .  
انها تثير اهتمامي قليلاً . فهي مفرطة البياض . ثم ان رائحتها تشبه رائحة  
الطفل الوليد . وقد كانت تشد رأسي الى صدرها في قبض من العاصفة المهبوسة  
وهي تحسب انها تحسن صناعاً اما انا . فقد كنت أشفق فرجها يشروء تحت  
الغطاء . ثم تحدّرت ذراعي . وكنت افكر بالسيد دورولبون ما الذي يعني .  
بعد كل حساب . من ان كتب رواية طويلة عن حياته ؟ وترك ذراعي تمرّ  
على خاصرة صاحبة المطعم . فرأيت فجأة حديقة صمرة ذات اشجار واضحة  
عريضة تتدلّ منها اوراق ضخمة يغطيها الشعر . وكان ثمة نخل يعدو في كل  
مكان ، وحُرُش وسوس . وكان ثمة ايضاً حيوانات اقطع : كانت احسامها

مصنوعة من قطعة خبز محمص كذلك الذي يوضع تحت الحمام . وكانت تحشي جانباً بأرجل عقريية . وكانت الاوراق العريضة مسودة لكثرة ما عليها من حشرات . ومن خلف شجر الصبار . كانت فيلادا<sup>١</sup> الحديقة العامة تشير باصابعها الى فرجها . وقد صحت : « ان هذه الحديقة تصعد رائحة في » . قالت صاحبة المطعم :

— لم اكن اريد ان اوقظك ، ولكن كان لي نحت أليتي<sup>٢</sup> ثنية فاش ، ثم يجب علي ان اهبط الى تحت من اجل زبائن قطار باريس .

### ثلاثة المرفع

جلدت<sup>٣</sup> موريس باريس . كنا ثلاثة جنود . وكان في منتصف وجه احدنا ثقب . واقترب موريس باريس فقال لنا : « هنا حسن ! » وأعطى كلاً منا باقة من البنفسج . وقال الجندي ذو الرأس المثقوب : « لا ادري اين اضعها » فقال له موريس باريس : « يجب ان تضعها وسط الثقب الذي في رأسك » . فأجيب الجندي : « بل سأضعها لك في استك » . وقلبتا موريس باريس ونزعنا عنه لباس عورته . وكان هذا اللباس ثوب كاردينال احمر . ورفعنا الثوب فأخذ موريس باريس يصيح : « انتبهوا ! ان لي سروالاً ذا سر » . ولكننا جلدناه حتى الدم . ورسمنا على مؤخرته . براعم البنفسج . رأس ديروليد<sup>٤</sup> .

انني منذ حين اتذكر احلامي اكثر مما ينبغي . والحق انه لا بد اني انقلب كثيراً في اثناء نومي ، لانني اجد في كل صباح لحافي على الارض . ان اليوم هو ثلاثة المرفع ، ولكن ذلك لا يعني شيئاً هاماً في بوفيل . فانه لا يكاد يتذكر

(١) كاهنة وثنية من جرمانيا : في عهد نيباسيان : والمقصود منه تمثالها طبعاً ( المرسوم )

(٢) شاعر وسياسي فرنسي ( ١٨٤٦ - ١٩١٤ ) رئيس جامعة الوطنيين الاحرار مؤلف

( المرسوم )

« اغاني الجندي »

في المدينة كلها أكثر من مئة شخص .  
واذ كنت اعبط السلم ، ناديتي صاحبة الفندق :  
- ان لك رسالة .

رسالة : كانت آخر رسالة تلقيتها ، من أمين محفوظات مكتبة روان في شهر أيار الماضي . وقاديتي صاحبة الفندق الى مكتبها ، وبسطت لي ظرفاً طويلاً أصفر متسخاً ، أنها رسالة من آني . ها هي خمسة اعوام تنقضي من غير ان اتلقى شيئاً منها . وكانت الرسالة قد ذهبت تبحث عني في منزلي بباريس ، وهي تحمل طابع اول شباط . وخرجت وانا امسك المغلف بين اصابعي ، ولا اجرؤ على فصفه ، ان آني لم تغير ورق رسائلها ، واني اتساءل عما اذا كانت لا تزال تشتره من مكتبة بيكاديلي الصغيرة . واعتقد أنها قد حافظت ايضاً على تسريحة شعرها ، وعلى خصلاتها الطويلة الثقيلة التي لم تكن تريد قصتها ، ولا بد أنها تصارع في صبر امام المرايا لتنقذ وجهها : ليس ذلك بداعي التأنق ولا خوفاً من الشيخوخة ، وانما هي تريد ان تبقى كما هي ، كما هي تماماً . ولعل هذا هو ما كنت اوثره فيها . هذه الأمانة القوية القاسية لأدنى ملمح في وجهها .

وكانت حروف العنوان الصلبة المكتوبة بالخير البتسحي ( أنها لم تغير حبرها كذلك ) ما تزال تلمع قليلاً .  
« السيد انطوان روكتان » .

كم احب ان افراً اسمي على هذه المغلفات ! فلقد عثرتُ من جديد على احدى تلك البسمات وسط الضباب ، وتمثلت عينيها ، ورأسها المائل . كانت نجي . ، اذ اكون جالماً ، فتنزوع امامي وهي تبسم . وكانت تشرف على بقامتها ، وتمسكني من كتفي وتزني بذراعي ممدودتين .

كان المغلف ثقيلاً ، فلا بد انه كان يحتوي على ست صفحات على الأقل . وكانت اصابع بوابة منزلي القديم تعلق بغطائها الذبابي على تلك الكتابة الجميلة :  
« فندق برنانيا - بوغيل »

ولم تكن هذه الأحرف الصغيرة تلتصع .  
وحين فضضت الرسالة ، أحسنتي ، من زوال الهم ، أصغر سنة أعوام :  
« لست أدري كيف تصنع آتي لتنفخ مغلقاتها على هذا النحو : فليس لي  
داخلها شيء أبداً » .

هذه العبارة ، قلتها مرة في ربيع ١٩٢٤ وأنا أجهد ، كالיום ، لأستخرج  
من بطاقة المغلف قصاصة ورق مربعة . ان البطانة روعة : خضراء معتمة مع  
نجوم ذهبية ، فكانها قاشة ثقيلة منشأة . فهي وحدها تزن ثلاثة ارباع المغلف .  
وقد كتبت آتي بالرماس :

« سأعرج على باريس بعد ايام ، تعال لرؤيتي في فندق اسبانيا يوم ٢٠  
شباط . ارجوك . » يجب « ان أراك . آتي »

وكنيت في مكثاس وطنجة ، حين اعود الى غرفتي مساء ، أجد أحياناً  
كلمة على سريري : « أريد ان أراك على الفور » فكنت أهرع ففتح لي آتي ،  
مرفوعة الحاجبين ، في هيئة دهشة : ليس لديها بعد ما تقوله لي ، وقد كانت  
تلومني قليلاً لأنني قد جئت . سوف اذهب ، فلعلها سترفض ان تستقبلني ،  
او ربما قالوا لي في مكتب الفندق : « لم ينزل عندنا احد بهذا الاسم » . ولا  
أعتقد انها ستفعل ذلك . غير انها قد تكتب لي ، بعد ثمانية ايام ، أنها غيرت  
رأيا وأن اللقاء سيكون في مرة أخرى

إن الناس في امحاهم ، وانه لثلاثاء مرفع مسطح ، هذا الذي يؤذن . إن  
رائحة الخشب الرطب تبعث من شارع « المونيليه » كما يحدث حين يوشك  
المطر ان يهطل . اني لا أحب هذه النهارات العجيبة : فان دور السبنا تقدم  
حفلات صباحية . وأولاد المدارس في عطلة ، وفي الشارع هيئة عيد غامضة  
لا نني تمتدب الانتباه ، ثم تتلاشى بمجرد ان يتبه لها المرء .

لا شك في اني سأرى آتي من جديد ، ولكني لا استطيع القول ان هذه  
الفكرة « تفرحي » . فانا منذ تلقيت رسالتها ، أحسنتي عاطلاً عن العمل . ومن  
حسن الحظ ان الوقت ظهر ، لست جائعاً ، ولكني سأكل ، لإجاء الوقت .

وأدخل مطعم « كمبل » ، في شارع « الأورولوجيه » ،  
إنه « علة » محكمة الإغلاق ، وهم يقدمون فيه الكرب والفاصولياء  
طوال الليل . ويقصده الاشخاص لتناول العشاء بعد خروجهم من المسرح ،  
ويُرسل رقباء المدينة اليه السياح الذين يصلون ليلاً وهم جائعون . وفي المطعم  
ثمانتي طاولات من الرخام ، ومقعد جلدي يمتد على طول الجدران . وهناك  
مرآتان أكلتهما لطخات حمراء . وواجهات النافذتين والباب هي من الزجاج  
المحجّر ، ويقوم المشرب والصندوق في تجويفة من الجدار . وهناك أيضاً  
حجرة جانبية لم أدخلها قط ، وهي مخصصة للأزواج .  
أعطيني بيضاً مقلياً بلحم الخنزير .

إن الخادم ، وهي فتاة ضخمة ذات خدين احمرين ، لا تستطيع الامتناع  
عن الضحك حين تتحدث الى رجل .

— ليس لي الحق . هل تريد بيضاً مقلياً بالبطاطا ؟ ان لحم الخنزير محجور  
عليه ، ولا يستطيع ان يقصه إلا صاحب المطعم .

فطلبت صحناً من الفاصولياء . إن صاحب المطعم يدعى كمبل وهو رجل  
قاس .

ومضت الخادم . انني وحيد في هذه الحجرة القديمة الممتعة . وإن في محفظتي  
رسالة من آني ، بمنعي خجل مزيف من ان أعيد قراءتها . وأحاول ان أتذكر  
العبارات واحدة واحدة .

« عزيزي انطوان » .

وأبسم . لا ، بكل تأكيد ، إن آني بكل تأكيد لم تكتب « عزيزي انطوان »  
منذ ستة اعوام — وكنا قد افرقنا باتفاق مشترك — قررت ان اسافر الى  
طوكيو ، وكتبت لها بضع كلمات . ولم يكن بوسعي بعد ان أدعوها « حبيبتي  
الغالية » فبدأت بكل برائة « عزيزتي آني » فأجابتني :

— « انني معجبة بسهولةك في الكلام ، انا لم أكن ولست قط عزيزتك آني .  
وأرجوك ان تعترض انت انك لست عزيزي انطوان . فاذا كنت لا تعرف ان

تدعوني ، فلا تدعني ، هذا الفصل .

وأناول رسالتها من محفظتي . إنها لم تكتب « عزيزي انطوان » . وكذلك ،  
فليس في أسفل الرسالة عبارة التأديب : « يجب ان أراك . آني » . لا شيء .  
مما يجعلني أتحقق من عواطفها . ولا أستطيع ان اشكو من ذلك : فاني أنعرف  
هنا الى شفقتها بما هو « كامل » . كانت تريد دائماً ان تحقق لحظات كاملة .  
فاذا لم يكن الظرف ملائماً ، كتبت عن أن تهتم بشيء ، وكانت الحياة تختفي  
من عينها . وكانت تعيش بكسل ، وعليها هبشة فتاة كبيرة في سن العفوق .  
او أنها كانت تخلق اسباب التزاع معي :

— انك تمشط كالبورجوازي ، بكل أهية . وتسعل في مندليك بكل رضى .  
وكان ينبغي ألا أجب . كان ينبغي ان انتظر : وقد كانت ترتعش فجأة ،  
لدى إشارة لم أدر كها . وتفسى ملامحها المسرحية الجميلة وتبدأ عملها التلمي .  
كان لها سحر جذاب لا يقهر : وكانت تتمتع مغنية بين أسنانها وهي تنظر في  
كل ناحية . ثم كانت تتحب باسمة ، فتقبل علي تهزتي من كفتي ، وتظهر  
وكأنها تعطي أوامرها الى كل الأشياء التي تحيط بها . وكانت تشرح لي ، بصوت  
منخفض وسريع ، ما كانت تنتظره مني .

واسمع . انك راغب في ان تبذل جهداً ، أليس كذلك ؟ لقد كنت شديد  
الخافة . في المرة الماضية . أترى كم يمكن هذه اللحظة ان تكون جميلة ؟ انظر  
الى السماء ، انظر الى لون الشمس على السجادة . كل ما فعلته اني ارتديت  
ثوبي الاخضر . ولم اصبح شفتي بعد بالحمرة ، انني ممتعة جداً . ارجع الى  
الحلف ، واذهب فاجلس في الظل ؛ هل انت فاهم ما ينبغي لك ان تفعل ؟  
حسناً ، نفصل ؟ ما احفك ! حدثني .

وكنتم أحسن ان نجاح العملية كان بين يدي : كان للحظة معنى غامض  
كان يجب توضيحه وإنجازها ، يجب ان يعمل بعض الحركات ، ويقال بعض  
الكلمات : وكنتم مرهقاً تحت عبء مسؤوليني ؛ كنت أوسع عيني ولا أرى  
شيئاً . وكنتم أنجبت وسط طقوس كانت آني تحرقها لتوها وكنتم أمزقها

بذراعي الكبريت كأنها خيوط عنكبوت. وفي تلك اللحظات، كانت تعقد عليّ بكل تأكيد، سأذهب لرؤيتها، اني احترمها وما زلت أحبها من كل قلبي. وأتمنى او ان احداً غيرها قد أوتي حظاً كبيراً وبراعة اكبر في لعبة اللحظات الكاملة.

كانت تقول: « ان شعرك انقطع بفسد كل شيء ». مما تريد ان يصنع برجل احمر الشعر ؟

وكانت تبسم. وقد فقدتُ اولاً ذكرى عينيها، ثم ذكرى جسمها الطويل واحتفظت اطول مدة ممكنة بيسمتها، ثم فقدتها ايضاً، منذ ثلاثة اعوام. ولكنها عادت الساعة فجأة، حين كنت اتناول الرسالة من يد صاحبة الصندوق، وقد حسبتني ارى آني وهي تبسم. وما زلت احاول ان اذكروها: إن بي حاجة لأن أحس كل الخنان الذي توحيه لي آني، وهو هنا، هذا الخنان. انه قريب جداً، وهو لا يطلب إلا ان يولد. ولكن البسمة لا تعود ابداً: انتهى الأمر. وأنا أبقى فارغاً جافاً.

ودخل رجل يرتعش برداً:

— سادتي، سيداتي، مساء الخير.

وحلّس من غير ان يتزعزع معطفه المخضر. وأخذ يفرك يديه الطويلتين فيما بينهما وهو يشبك أصابعه.

— ماذا أقدم لك ؟

فانتفض، وفي عينيه القلق:

— ايه ؟ اعطني قدح « بير » بالماء.

فلم تتحرك الخادم. وكان وجهها في المرأة، يبدو وكأنه نائم. صحيح ان عينيها مفتوحتان، ولكنهما ليستا إلا شقّين. انها هكذا، فهي لا تستعجل في خدمة الزبائن، وهي تأخذ دائماً لحظة لتحلّم بطلباتهم. ولا بد انها تفكر بالزجاجة التي ستأخذها من فوق المشرب، وبرقعة الورق البيضاء وعليها حروف حمراء، وبالمشروب الكثيف الأسود الذي ستصبّه: فذلك شبيه بما

لو كانت تشرب هي نفسها .

وأدس رسالة آني في عنقوتي : لقد اعطيتني ما كانت تستطيع ، انني لا  
استطيع ان أرتد الى المرأة التي أخذتها بيديها وطوتها ووضعها في الظرف . ولكن  
هل من الممكن التفكير بأحد في صيغة الماضي ؟ اننا طوال تبادلنا الحب لم نسمح  
لأدنى لحظة من لحظتنا ، ولا لأيسر همونا ان تنفصل عنا ونظل في  
الحلف : الاصوات ، والروائح ، وألوان النهار ، وحتى الافكار التي لم  
نتصارع بها ، كنا نحمل كل شيء ، وكان كل شيء يبقى حياً متيقظاً : ونحن  
لم نكف عن التمتع بها وعن التألم منها في الحاضر . يستوي في ذلك كل ذكرى ،  
وحب عفيف لا يلين ، حب بلا ظلال ، ولا تراجع ، ولا ملجأ . ثلاثة أعوام  
حاضرة معاً . من اجل هذا افترقنا : فأننا فقدنا القوة على تحمل ذلك العبء .  
ثم فجأة ، حين تركتني آني ، انهارت الأعوام الثلاثة مرة واحدة ، ودفعة  
واحدة ، في الماضي . ولم يحدث حتى ان تأملت . وكنت أحسني فارغاً . ثم  
عاد الزمن يجري ، وكبر الفراغ . وبعد ذلك ، في سايفون ، حيث عزمت  
على العودة الى فرنسا ، تلاشى كل ما كان ما يزال باقياً - من الوجوه الاجنبية  
والامكنة والارصفة على شواطئ الالهة . وهكذا ، ليس ماضي بعد إلا ثقباً  
هائلاً . اما حاضري . فهو هذه الخادم ذات الثوب الاسود التي تحلم بالقرب  
من المشرب ، وهذا الرجل القصير . إن كل ما اعرفه من حياتي ، يخيل إلي  
أنني تعلمته في الكتب . ان قصور بيناريس ، وسطيحة الملك « لبرو » ومعابد  
جاوة بسلامها الكبيرة المحطمة ، انعكست ذات لحظة في عيني ، ولكنها بقيت  
هناك ، في أماكنها . والقرام الذي يمر بالقرب من فندق برنتانيا لا يحمل  
مساءً على زجاج نوافذه انعكاس لافتة النيون ، انه يلتهم لحظة ويبعد بزجاج  
أسود .

وهذا الرجل لا يكف عن النظر إلي : انه يضجرتني . انه يتظاهر بالامية  
المناسبة لغامته . وتعزم الخادم اخيراً على خدمته . وترفع بكسل ذراعها الكبيرة  
السوداء فتناول الزجاجاة وتحملها مع قدح .



- تفصل يا سيدي .

فقال بتلطف : - السيد أشبل

وصئت من غير أن تجيب . ومجأة يسحب نعمة إصبعه من أنفه ويضع كفها  
يديه مسوختين على الطاولة . وكان قد أغنى برأسه إلى الخلف ، وأخذت عيناه  
تبرقان . وقال بصوت بارد

- يا لفتاة المسكينة !

وتنتفض الخادم ، وأنتفض أن أيضاً : إن له تعبيراً غير قابل للتعريف ،  
وما كان دهشة ، كما لو أن آخر قد نكلم . إنا ، نحن الثلاثة ، مترعجون .  
وكانت الخادم هي أول من به . إنها لا تمكك حبلاً . وقد حدثت السيد  
أشبل في مصوب . إنها تعرف جيداً أنه نكبتها يد واحدة لتنتزع من مكانه  
ونافي به خارجاً

- ولماذا كوني ، يا ترى ، فتاة مسكينة ؟

فردد ونظر إليها مختاراً ثم صاحت وتعمد وجهه بألف لية ، وقام بحركات  
حبيبة من فصته :

- الحمد أعجبها ذلك . ولكن الناس يقولون هذا هكذا . يقولون : فتاة  
مسكينة من غير قصد

ولكنها أولئك ظهروا ومصب إلى خلف المشرب . لقد جرححت حقاً .  
وضحك مرة أخرى

ها ها ! لم أكن أفد . ذلك ؟ لقد عصب . لقد عصب !

إن ذلك وهو ينوحه إلي .

ولويك رأسي ويرفع قدحه قليلاً ، ولكنه لا يفكر بأن يشرب . إنه  
يطرف بعينه بينة مأخوذة وخائفة ، فكأنه يخهد في أن تذكر شيئاً . وكانت  
الخادم قد جنست إلى الصدوق ، وتناولت الصوف وعاد كل شيء إلى الصمت ،  
ولكنه لم يكن بعد الصمت نفسه . هذا هو المظهر إنه يصفق الزجاج المحجر  
صعفاً خفيفاً . ولئن كان ما إلى في الشارع صبية متذكرون ، فلا شك في

انه سيجعل اقتعتهم الكرتونية طرية ملطخة .

وأضاءت الخادم المصاييح : صحيح ان الساعة لم تكد تتجاوز الثانية ، ولكن السماء سوداء تماماً ، وهي لا ترى رؤية كافية تمكنها من ان تحيط ضوء رقيق ، إن الناس في البيوت ، ولا شك في أنهم هم أيضاً قد أضاءوا ، أنهم يقرأون ، وينظرون الى السماء من النافذة . ان الامر ، بالنسبة إليهم ، شيء آخر . لقد شاعوا بطريقة أخرى . أنهم يعيشون وسط الهبات والهدايا ، وكل قطعة من أثاثهم تذكّر . ساعات ، اوسمة ، صور ، أصداف ، مثقلات ورق ، حواجز خشبية ، شالات . ان لهم غزائن مملأ بالزجاجات والأقنعة والثياب القديمة والصحف ، لقد احتفظوا بكل شيء . ان الماضي يذخ من يذخ المالكين . فأين تراني سأحتفظ بماضي ؟ ان المرء لا يضع ماضيه في جيبه ، وإنما ينبغي ان يكون له بيت ليقع فيه . إنني لا أملك غير جسمي ، ولا يستطيع رجلٌ وحيد ، بجسمه وحده ، ان يوقف الذكريات ، فهي تمرّ به عرضاً . ولا ينبغي لي ان أشكو : فأنا لم أرد إلا ان اكون حراً .

وتحمل الرجل القصير وتنهّد ، وقد تراكم في معطفه ، ولكنه كان ينتصب بين القينة والقينة ويتخذ مظهر التعالي . هو أيضاً ، ليس له ماض . واذا بحث أحدنا جيداً ، فسوف يجد بلا شك . لدى أقرباء كفوا عن معاشرته ، صورة تمثله في عرس ، وهو يضع باقة مكسورة ، ويرتدي قبضاً ذا صدره ، وقد نبت له شارب شاب قاس . أما انا ، فأعتقد انه لم يبق مني حتى هذا .

ها هو ذا ما يزال ينظر إليّ . وهو سيجدني هذه المرة . فأحسني متصلاً . ليس ما يبتاوداً : كل ما هنالك اننا متشابهان . انه وحيد مثلي ، ولكنه أشدّ مني إيقالاً في الوحدة . ولا بدّ انه ينتظر « غيثانه » او شيئاً من هذا القبيل . وإذن ، فان هناك الآن اشخاصاً « يتعرّفوني » ويفكرون ، بعد ان يجدجوني : « ان هذا منّا » حسناً ؟ ما الذي يريده ؟ لا بدّ انه مدرك ان احدنا لا يستطيع ان يصنع شيئاً للآخر . ان العائلات قائمة في بيوتها ، وسط ذكرياتها . أما نحن ، فخطامان بلا ذاكرة . ولئن نهض فجأة . ووجهه في الكلام . فسأب في الهواء .

وانفتح الباب في صخب : انه الدكتور روجيه .

— مرحباً بالجميع .

ودخل شرساً ، شاكراً ، وساقاه الطويلتان نصطكآن قليلان وتكادان لا تحملان قامته . انني غالباً ما أراه يوم الأحد في مطعم فيز اليز ، ولكنه لا يعرفني . وهو في جسمه يشبه معلّم جواتفيل القدامى : أذرع كالسيقان ، دورة الصدر تساوي مئة وعشرة ، وهم لا يتأسكون على اقدامهم وقوفاً .

— جان ، صغبرتي جان .

ونظط حتى المشجب ليعلق به قبعته اللبديّة . وطوت الخادم شغلها وأقبلت بلا عجلة ، متناومة ، لتستخرج الطبيب من مشمعه .

— ماذا تأخذ ، يا دكتور ؟

فتأملها بجِد . هو ذا ما أدعوه وجه رجل جميل . ان الحياة والمشاعر العنيفة قد استهلكته وحفرته . ولكن الطبيب قد فهم الحياة وهيمن على مشاعره وقال بصوت عميق :

— لا أندري على الإطلاق ما الذي أريده .

وتداعى للسقوط على مقعده قبالي : ومسح جبينه ؛ إنه يحس الراحة والرضى اذ لا يكون واقفاً على ساقيه . وان عينيه تخيفان ، عيناه كبيرتان سوداوان ، متعجرفان .

— سأطلب ... سأطلب — قدحاً من الكالفادوس<sup>١</sup> ، يا ابنتي .

وجعلت الخادم تتأمل هذه السحنة المخدّدة الهائلة ، من غير أن تأتي حركة . انها عالمة . ورفع الرجل القصير رأسه وهو يتشم بسمّة متحررة . وكان صحيحاً : ان هذا الانسان الضخم قد حرّرتنا . لقد كان هنا شيء فطيع يوشك ان يأخذنا . وتنفست بقوة : إننا الآن بشرٌ نجاة بشر .

— متى يأتي خري ؟

فانتفضت الخادم ومضت . وبسط هو ذراعيه الضخمتين وأخذ الطاولة

---

(١) عسّر الخناج .

من حافتها . ان السيد أشبل فرح " غاية الفرح ، وقد كان يود " جذب انتباه الطبيب . ولكنه عبثاً قد ارجع ساقيه وقفز على المقعد ، فهو من الضلالة بحيث يحدث ضجة .

وحلت الخادم الكالفادوس ، وبحركة من رأسها دلت الطبيب على جاره . وأدار الدكتور روجه قائمه ببطء : انه لا يستطيع ان يحرك رقبته ، وصاح :

— عجباً ! هذا انت ايها القذر ؟ ألم تحت ؟

وتوجه الى الخادم :

— هل تقبلون ذلك عندكم ؟

ونظر الى الرجل القصير بعينه المتوحشتين . نظرة مستقيمة نضع الأمور في نصابها . وتابع موضحاً :

— انه مجنون قديم .

ولم يبدل أي جهد ليُظهر انه يمزح . انه يعلم ان المجنون القديم لن يقضب ، وانه سيستم . وهذا ما حدث : فقد اُتسم الآخر في مذلة . مجنون قديم : انه يسترخي ، ويحمته حمياً من نفسه بالذات ، ولن يحدث له شيء اليوم . والأعجب من ذلك ، هو انني انا نفسي قد استعدت اطمئنانني . مجنون قديم : هكذا كان اذن ، ولم يكن غير هذا .

وضحك الطبيب ، ورماني بنظرة واحدة متواطة : لا شك في ان ذلك بسببي — ثم اني ارتدي قبصاً نظيفاً — انه يريد ان يشاركني بمزاحه . ولم أجب على تمهيداته : واذاك ، جرت عليّ ، من غير ان يكفّ عن الضحك ، نار حديثه المائلة . وجعلنا نتبادل النظر في صمت بضع لحظات ، كان يحذني وهو يصطنع النظر الحبير ، كان يصتغي . في فئة المجانين ؟ ام في فئة السوق ؟ ومع ذلك ، فهو الذي صرف بصره : تيبّ يسير امام شخص وحيد ، لا اهمية اجتماعية له ، وذلك امر لا يستحق التحدث عنه ، انه يُنسى على الفور ، ولفّ سيكارة وأشعلها ، ثم ظلّ جامداً بعينين ثابتتين قاسيتين ، على غرار الشيوخ .

التجاعيد الجميلة ، انه تملكها جميعاً خطوط الجبين المعترسة ، الرجل الاوز ، والثنيات المريرة لكل جهة من القم ، بصرف النظر عن الجبال الصعراء التي تتدل تحت ذقنه هوذا رجل معطوف ان ما يراه ولو من ابعد مكان ، يقول لنفسه انه لا بد ان يكون قد تألم ، وانه واحد من الذين عاشوا . والحق انه يستحق وجهه ، لانه لم يستخف لحظة بطريقة الحفاظ على ماضيه واستعماله : كل ما هنالك انه حشاه ، واتخذ منه تجربة لاستعمال النساء والشبان .

ان السيد اشيل سعيد كما لا بد انه لم يكن منذ وقت طويل ، انه يتألم اعجاباً ، وهو يشرب قدحه من « البير » بجرعات صغيرة يفتح لها خديته ، لقد عرف الطبيب حقاً كيف يأخذه ! ان الطبيب ليس هو الشخص الذي يسحر بمجنون قديم الى درجة ان تحدث نوبته ، ان ما يحتاجونه ضربة مفاجئة ويضع كلمات كأنها السوط . ان للطبيب تجربته ، فهو محترف للتجارب : ان الاطباء والكهنة والقضاة والضباط يعرفون الانسان كما لو انهم صنعوه .

« حسن » انجل من اجل السيد اشيل . اننا من طينة واحدة . وينبغي لنا ان نتجنب ضدتهم . ولكنه تخل عني وانحاز الى جانبهم : وهو يؤمن انما محضاً بها ، « بالتجربة » . لا بتجربته ، ولا بتجربتي . وانما بتجربة الدكتور روجيه ، كان السيد اشيل يشعر الساعة بأنه عجيب ، وكان لديه احساس بأنه وحيد . اما الآن فهو يعلم ان ثمة آخرين في مثل وضعه ، آخرين كثيرين : فلقد التقى بهم الدكتور روجيه ، وسيكون بوسعهم ان يروي للسيد اشيل قصة كل منهم ويقول له كيف انتهت . كل ما في الأمر ان السيد اشيل « حالة » تتلخص في سهولة بوضع افكار عامة .

كم اود ان اقول له انهم يخدعونه ، وانه لعبة بيد الغامضين محترفو تجربة ؟ لقد قضوا حياتهم في الكسل المخدر والسبات ، ولقد تروا جواً على عجل ، بدافع من نفاد الصبر ، وصنعوا اطفالاً بالانفاق . لقد اتفقوا الناس الآخرين في المقاهي ، وفي حفلات الأعراس ، وفي حفلات الدفن وبين

الفينة والفينة ، كان يأخذهم الانتدفاع ، فيتخبطون من غير ان يفهموا ما يحدث لهم . ان كل ما حدث حولهم ابتداء وانتهى خارج نطاق نظرهم ، اشكالٌ طويلة غامضة ، وأحداثٌ آتية من بعيد قد لامستهم بسرعة ، وحين ارادوا ان ينظروا ، كان كل شيء قد انتهى ، وبعد ذلك ، حين بلغوا الاربعين ، عمدوا صنوف عنادهم الصغيرة ويضعة امثال باسم تجربة ، وبدأوا يجعلون انفسهم آلات توزيع اوتوماتيكية : درهمان في الشق الأيسر ، وها هي حكايات مقلغة بورق فضتي ، ودرهمان في الشق الأيمن ، وها هي نصائح ثمينة تلتصق بالأسنان كالكاراميل المائع . وسيكون بوسعي انا ايضاً ، في هذا الصدد ، ان أدعى للدخول الى بيوت الناس ، بحيث يقولون فيما بينهم انني رحالة كبير ازاء « الخالد » . اجل ، ان المسلمين يمرّون راكعين ، وتستعمل القابلات القانونيات الهندوكيات ، عوضاً عن نبات الارغوتين ، الزجاج المسحوق في روث البقر ، وفي بورنيو ، حين تصاب الفتاة بالطمث ، تقضي ثلاثة ايام وثلاث ليال عل سطح بيتها . وقد رأيت في فينيسيا عمليات دفن في « الفوندول » ، وحضرت في إشبيلية اعياد « الاسبوع المقدس » ، كما شاهدت « آلام المسيح » لاوبر اميرغو . وبالطبع ، ليس ذلك كله الا « عينة » هزيلة عن معلوماتي : فبوسعي ان انقلب فوق كرسي وأبدأ في لمجة تسلية :

« اتعرفين جيهلافافا ، يا سيدتي العزيزة ؟ انها مدينة صغيرة عجيبة من مدن مورافيا مكثت فيها عام ١٩٢٤ » ...

وعند نهاية قصتي يتولى الكلام رئيس المحكمة الذي رأى حالات كثيرة : « كم هذا صحيح ، يا سيدي العزيز . وكم هو انساني : لقد رأيت حالة مشابهة في بدء حياتي القضائية . كان ذلك عام ١٨٠٢ ، وكنت قاضياً مناوياً في ليموج » ...

غير انهم بالغوا بازعاجي بهذا في شياشي . بالرغم من انني لم اكن من اسرة محترفين . ولكن هناك ايضاً هواة . انهم امناء السر ، والموظفون ، والتجار ، ولولئك الذين يصغون الى الآخرين في المقهى : انهم يحسّون انفسهم متفخين ،

حين يقاربون الأربعين من العمر ، بتجربة لا يشيغون ان يُسبّلوها في الخارج . ومن حسن الحظ انهم قد صنعوا اولاداً ، فهم يجربونهم على ان يستهلكوها عن كتب . انهم يودّون ان نصدق ان ماضيهم لم يضع ، وان ذكرياتهم قد تركّزت وتحولت بعدوبة الى « حكمة » . فيا للماضي المناسب ! ماضي جيب ، كتاب صغير مذهّب ، مليء بالحكم الجميلة . « صدقوني ، انني احذّركم عن تجربة ، وكل ما اعرفه قد قبسته من الحياة » . اترى « الحياة » قد حلت عبء التفكير عنهم ؟ انهم يشرحون الجديد بالقديم — وقد شرحوا القديم بأحداث اشدّ قديماً ، على غرار اولئك المؤرخين الذين يجعلون من لينين روبسييراً روسياً ، ومن روبسيير كرمويلاً فرنسياً : فهم في آخر المطاف لم يفهموا شيئاً على الإطلاق ... اننا نكتشف وراء أهميتهم كسلاً شرساً : فهم يرون مظاهر ترى امامهم ، فيتشاءمون ، ويفكرون بأن لا شيء جديداً تحت السماوات . « مجنون قديم » — وكان الدكتور روجيه يفكر بغموض في مجانين آخرين لا يذكر احداً منهم بصورة خاصة . والآن ، لن يستطيع شيء مما سيفعله السيد اشيل ان يفاجئنا : « ما دام » مجنوناً قديماً !

انه ليس مجنوناً قديماً : بل هو خائف . ممّ عساه يكون خائفاً ؟ ان من يريد ان يفهم شيئاً ، يقف تجاهه وحده ، من غير عون ، وماضي العالم كله لا يملك ان يقدم اية خدمة . ثم يختفي الشيء ، وما فهم منه يختفي معه .

اما الأفكار العامة فهي اكثر اغراءً ومغادة . ثم ان المحترفين وحتى الهواة يتسهي بهم الامر الى ان يكونوا على حق . ان حكمتهم توصي بانارة اقل ما يمكن من الضجة ، وبالعيش اقل ما يمكن ، وبالتداعي للنيان . وأفضل حكاياتهم حكايات الطاشين الشاذين الذين قالوا عقابهم . اجل : ان الامر يجري هكذا ، وليس ثمة من يقول العكس ، ربما لم يكن السيد اشيل مرتاح الضمير جداً ، وربما يقول لنفسه انه ما كان يبلغ هذا المبلغ لو انه استمع الى نصائح ابيه واخته الكبرى . وبحق للطبيب ان يتكلم : فانه لم يخسر حياته ولم يفوتها ، لقد عرف ان يكون مفيداً . وهو ينتصب ، هادئاً وقادراً ، فوق هذا

الخطام ، انه صخرة .

كان الدكتور روجيه قد شرب قدح الكالفا دوس . وكان جسمه الكبير منكوساً ، وجفناه مسترخيين بثقل . وللمرة الاولى ، ارى وجهه من غير العينين : فكانه قناع كرتوني ، كتلك الأقنعة التي تباع اليوم في الحوانيت ، ان تحدّيه لوناً وردياً مريعاً ... وبدت لي الحقيقة فجأة : ان هذا الرجل سيموت عما قريب . وهو يعرف ذلك بالتأكيد ، وحسبُه ان يكون قد نظر الى نفسه في مرآة : فهو يزداد كل يوم شبهاً بالجنة التي سيكونها . بهذا تتلخص تجربتهم ، ولهذا السبب قلت لنفسي غالباً ان رائحة الموت تنبعث منها : فذلك هو دفاعهم الأخير . ان الطبيب يودّ كثيراً ان يصدق الأمر . يودّ لو يقع الواقع الذي لا يُحتمل : من انه وحيد ، بلا خبرة ، ولا ماض ، وأن له عقلاً يتدبّر ، وجسماً ينحلّ . من اجل هذا تراه قد بنى جيداً هذيانه التعويضي الصغير ، ورتبه جيداً ، وغلقه جيداً : فهو يقول لنفسه انه يتقدّم . ان له فجوات في الفكر ، لحظات تدور الأمور فيها دوراناً فارغاً في رأسه ؟ ذلك ان حكمه كفّ عن ان يمتاز بعجلة عهد الشباب . انه لا يفهم بعد ما يقرأ في الكتب ؟ ذلك انه قد اصبح الآن شديد البعد عن الكتب . انه لا يستطيع بعد ان يقوم بعمل الحب ؟ ولكنه قام به . فأن يكون المرء قد قام بعمل الحب ، أفضل كثيراً من ان يستمر في القيام به : انه بالارتداد الى خلف يحكم ويقارن ويفكر . ولكي يستطيع ان يتحمّل رؤية هذا الوجه المريع ، وجه الجنة ، في المرايا ، فانه يجهد للاعتقاد بان دروس التجربة قد نُقشت فيه .

ويدير الطبيب رأسه قليلاً ، ويفتح جفناه ، فينظر اليّ بعينين ورّدهما النعاس . وأبتسم له . انني أودّ لو تكشف له هذه البسمة كل ما يحاول ان يخفيه عن نفسه : ان هذا هو ما سوف يوقفه ، اذا استطاع ان يقول لنفسه : « هو ذا انسان » يعرف « اني ساموت ا » ولكن جفنيه يسبلان من جديد : انه ينام . وأخرج ، تاركاً السيد أشيل يسهر على نومه .

لقد انقطع المطر ، وأصبح الهواء عذباً ، وكانت السماء تُقلب في هدوء



صوراً جميلة سوداء : وكان ذلك أكثر من كافٍ لصنع إطار لحظة كاملة ،  
لقد كان جذباً بآتي ، لكي تعكس هذه الصور ، أن تولد في قلبها عبرات  
صغيرة معتمة . أما أنا . فلا أحسن انتهاز الفرصة : اني امضي تائهاً ،  
غالباً وساكتاً ، تحت هذه السماء التي لا تُستعمل .

### الأربعاء

ويجب ألا اخاف و

### الخميس

كُتبت أربع صفحات . وبعد ذلك ، فترة طويلة من السعادة . ينبغي  
الآن البالغ في التفكير بقيمة « التاريخ » ، فأن ذلك يوشك أن يفتري منه .  
يجب ألا انشر أن السيد دورولبون يمثل ، في الساعة التي هو فيها ، التبرير  
الوحيد لوجودي .

سألقى آتي بعد ثمانية أيام .

### الجمعة

كان الضباب من الكثافة ، في جادة « لاروتوند » ، بحيث حُجب من  
الحكمة أن احاذي جذران « الكازيرن » ، وكانت أضواء السيارات إلى يميني  
تطرد امامها نوراً مبتلاً ، وكان مستحيلاً أن يعرف المرء أيان كان ينتهي  
الرصيف . وكان حولي اشخاص ، وكنت اسمع وقع اقدامهم ، واحياناً ،  
طنين كلامهم : ولكني لم اكن ارى احداً . وذات مرة ، تشكلت على مستوى  
كفّي وجه امرأة ، ولكن الضباب ما لبث أن ابتلعه ، ومرة اخرى ، لاسمّي  
آخر وهو يلهث بشدة . ولم اكن ادري اين انا ذاهب ، فقد كنت شديد

الاسترقاق : كان يبغى التقدم بحلر ، وجس الارض بطرف القدم ، بل ومد اليدين الى امام . والحق اني لم اكن اصيب أية متعة بهذا التمرين . ومع ذلك ، واني لم اكن افكر بالعودة الى غرفتي ، فقد كنت مأخوذاً ، واخيراً ، لمحت في البعيد بعد نصف ساعة عازلاً ازرق ، واذ توجهت اليه . بلغت طرف شعاع كبير . عرفت فيه مقهى مايلي الذي كان يحرق بأصواته الضباب .

ان لمقهى مايلي اثني عشر مصباحاً كهربائياً ، ولكن لم يكن مضاءً منها الا اثنان . احدهما فوق الصندوق . والاخر في السقف . ودفعني الخادم الوحيد الى زاوية مظلمة .

— ليس من ها يا سيدي ، فانا انتظف .

وكان يرتدي ستر . بلا صدره ولا باقة منشأة ، مع قبض ابض محطط بالبنفسجي . وكان يتشاب ويظهر اليّ هيئة عابسة وهو يمر أصابعه في شعره .

— فتجاء قهوة مع «الكرواسان» .

وفرك عينيه من غير ان يجيب . وابتعد . وكانت العتمة تحبط بي حتى عينيّ . ظلمة مثلوجة قلقة . ان المدفأة لم تكن مضاءة ، بلا شك . ولم اكن وحدي . كانت امرأة ذات بشرة شمعة جالسة قبالي ، تتحرك بداها بلا انقطاع ، تارة لتلامس قبضها ، وتارة لتسوي بقبعتها السوداء على رأسها . وكانت بصحية رجل طويل اشقر كان يأكل خبز « البريوش » من غير ان ينس محرف . وبدا لي الصمت ثقيلاً . وكانت بي رغبة لأشعل غايوني ، ولكن كان يرعجني ان اجذب انتباهها بفرقة عود ثقاب .

جرس نلعون . وتوقفت البدن : وظلنا معلقين بالقميص . وتباطأ الخادم في الاجابة ، وظلّ يكس على مهل . قبل ان يقرر اخيراً الذهاب لرفع السماعة . « آلو ؟ السيد جورج ؟ مرحباً . يا سيد جورج ... نعم ، يا سيد جورج .. المقيم ليس هنا ... نعم . لا بد انه قد هبط .. آه » في مثل هذا الطقس الضبابي عاداته ان يهبط حوالي الثامنة .. نعم ، يا سيد جورج ،

سأفكر إليه الرسالة . مع السلامة ، يا سيد جورج ،  
كان الضباب يظل على زجاج النوافذ كستار ثقيل من المخمل الرمادي  
والضيق وجهه بالزجاج ذات لحظة ثم انحنى  
وقالت المرأة بلهجة شاكبة :

- إرسل لي حثائي

فقال الرجل من غير أن ينظر

- به عبر منحل

معضت . وأخذت يدها لتلمس قبضها ورقبتها كأنها عنكبوتان

كبيران

- بل ، بل ، إرسل لي حثائي

فانحنى بيته مرعجة ولمس قدمها لمساً خفيفاً تحت الطاولة

لقد فعلت

فانحنى في رضى ونادى الرجل الخادم .

كم هو الحساب ؟

فقال الخادم : كم قطعة « بربروش » أخذتما ؟

وكنت قد حققت عبي حتى لا أبعدو كمن يحدسهم . وبعد نصف ثوب .

سحب بعض ورقعات ، ورأيت طرف ثوبه ونعلين ملوثن بوحل جاف

وثنيهما نعل الرجل . وكانا يرتان مدينتين « تقديماً نحوي » ثم تسمرأ

وسمرا نصف استدارة . كان يرتدي معطفه وفي هذه اللحظة ،

أخذت يده تبط على التوبة . تحت أي ذراع صلبة وترددت قبلاً ،

وهي تحت التوبة

وقال لرجل - من تحت على استعداد .

واحتجبت يده وجاءت تلمس نجمة عريضة من الرجل على الخداء

الأيمن ثم حست

فقال الرجل - أوف ؟

وكان قد تناول حفية قرب المشجب . وخرجا ، ورأيتهما يدلغان في الضباب .

وقال لي الخادم : وهو يحمل لي قهوتي :

— أنهما فنانان ، وهما اللذان قدما « نغمة » الاستراحة في سينما بالاس .  
إن المرأة تعصب عينها وتقرأ الاسم الاول للمشاهدين وعمرهم . وهما ذاهبان اليوم ، لأنه يوم الجمعة ، وفيه يتغير البرنامج .

وذهب ليأتي بصحن من « الكرواسان » كان على الطاولة التي عادرها الفنان .

— لا حاجة بي إليها .

لم تكن بي رغبة لأكل تلك القطع من « الكرواسان » .

— يجب ان أظنى « الكهرباء » مصباحان ليزون واحد . في الساعة التاسعة صباحاً : إن المعلم سيناقتني الحساب .

وغمرت العتمة المقهى ، كان ضوء هزيل . ملطخ بالرمادي والأحمر ، يسقط الآن من واجهات الزجاج العليا

— أريد ان أرى السيد فاسكيل

ولم أكن قد رأيت العجوز داخله . وهبت نفحة هواء مثلوج ، فانرمت لها .

— لم يهبط السيد فاسكيل بعد .

فاستطردت تقول : — ان السيدة فلوران هي التي بعثني . أنها متوعدة ، وهي لن تأتي اليوم .

والسيدة فلوران هي أمينة الصندوق . ذات الشعر الأحمر .

وقالت العجوز : — إن هذا الخنس مزعج . لا يناسب بطنها

فاتخذ الخادم هيئة اهتمام وأجاب :

— إنه الضباب ، وهذا شبيه بشأن السيد فاسكيل ، ويدهشني انه لم يهبط .

لقد طلبوه على التلفون . وهو عادة ، يهبط في الساعة الثامنة .

فقطرت العجوز آلياً الى السقف :

- انه فوق ؟

- نعم ، تلك غرفته .

فقالت العجوز بصوت محطوط ، كما لو انها كانت تتحدث الى نفسها :

- لنفرض انه مات ...

فغير وجه الخادم عن عيظ شديد وقال :

- آه ! شكراً لك . شكراً !

لنفرض انه مات ... لقد ألمت هذه الفكرة بذهني . وهذا حقاً نوع الافكار

التي تراود المرء في هذا الطقس من الضباب .

وخرجت العجوز . وكان عليّ ان أحذو حذوها : فقد كان الطقس بارداً

ومظلماً . وكان الضباب يتسرب من تحت الباب . وكان يوشك ان يصعد ببطء

ويغرق كل شيء . ولو كنت في المكتبة البلدية ، لوجدت نوراً

وناراً .

ومن جديد أقبل وجه "يسحق" على الزجاج ، وكان بكشعر . فقال الخادم

في غضب وهو يخرج راکعاً :

- انتظر قليلاً .

واستحي الوجه ، فبغت وحدي . وأحييت عسل نفسي باللائمة المبررة التي

غادرت لعمري لا بد ان يكون الضباب قد غمرها الآن ، فاذا دخلتها . فلا بد

ان يأخذني الخوف .

وفرقع شيء ما في العنمة . خلف الصندوق . وكان ذلك صادراً عن السلم

الخاص : أترأه المدير يهبط أخيراً ؟ لا ، إن احداً لم يظهر ، كانت الدرجات

تفرقع من تلقاء نفسها . وكان السيد فاسكيل ما يزال نائماً . وربما كان قد

مات فوق رأسي . "عثر عليه ميتاً في سريره . ذات صباح ضبابي" - وفي

هوان اصفر : في المنهى . كان الزبائن يشربون من غير ان يشعروا ...

ولكن ، أكان ما يزال في سريره ؟ أترأه لم يسقط . جاذباً الكحاف معه ،

صادماً رأسه بالأرض الخشبية ؟

إنني أعرف السيد فاسكيل معرفة جيدة . وقد سألت أحياناً عن صحي ، انه انسان صبور مرح ، ذو لحية مرتبة : فإذا مات ، فلا بد ان يكون السبب نوبة ، وسيكون بلون الباذنجان ، ولسانه خارج فمه ، ولحيته في الهواء ، ورقبته بنفسجية تحت الشعر المجعد .

كان السلم الخاص يضيغ في الظلام . وكنت لا أكاد أستطيع ان أميز الكرة من الدرايزين . ينبغي عبور هذا الظلام . وسوف يفرق السلم . وفوق ، سأجد باب الغرفة ...

إن الجسم هناك ، فوق رأسي . اذا صعدت ، فسأدير مفتاح الضوء : وسألمس تلك البشرة الدافئة . لأرى . ولم أستطع الاحتمال بعد . فتهضمت ، اذا فلجأني الخادم في السلم ، فسأقول له اني سمعت ضجة .

وعاد الخادم فجأة ، وهو يلهث ، وصاح :

— نعم ، يا سيدي .

الأحقق ! وأقبل نحوي .

— فرنكان .

فقلت له : — سمعت ضجة فوق .

— إن الوقت ليس باكراً !

— نعم ، ولكنني اعتقد ان هناك شيئاً ما : فكأنها حشرات ، ثم إنها قد

حدثت ضجة عجيبة .

وفي تلك اللحظة المظلمة ، بهذا الضباب خلف الزجاج ، كان ذلك يبدو

طبيعياً جداً . انني لن أنسى نظرة عينيه تلك

وأضفت بمخاتلة : — عليك ان تصعد لترى .

قال : — أوه ، لا : أخشى ان يوبخني . كم هي الساعة ؟

— الساعة العاشرة .

— سأصعد اليه في العاشرة والنصف ، إن لم يهبط .

وقت بغطرة نحو الباب .

هل انت ذاهب ؟ ألا تبقي ؟

لا .

أكانت حشرة حقيقية ؟

قلت له وأنا أهم بالفرج :

لا أدري ، ربما كان ذلك لأنني كنت أفكر فيه .

وكان الضباب قد انحسر قليلاً ، وأسرعت في سلوك شارع « تورنوبريد » .

كنت بحاجة الى اذنيه . ولكنني أصبت بالحمية : كان ثمة نورٌ بكل تأكيد ،

وكان يسيل على زجاج الحوائث . ولكنه لم يكن نوراً مرحباً : كان ابيض كل

البياض بسبب الضباب ، وكان يسقط على كتفيك كماء « الدوش » .

كثير من الناس ، ولا سيما من النساء : خادصات ووصيفات ومديرات

ايضاً ، من هاتيك اللواتي يقرن : « انني اشترى بفسى . فهذا أضمن » .

وكن يشمن الواجهاً قليلاً ، ثم ينتهي بين الأمر الى الدخول .

وتوقفت امام بائع اللحوم جوليان . وكنت أرى بين القينة والفيسنة ، عبر

المرأة ، يبدأ توميء الى الارجل المحشوة بالكماة والى الامعاء . وإذا ذلك ، كانت

فتاة سمينة شقراء تنحني ، مبدولة الصدر ، وتأخذ بين اصابعها طرف اللحم

الميت . وقد كان السيد فاسكيل ميتاً في غرفته . على بعد خمس دقائق .

وبعث فيها حولي عن مرتكز صلب ، عن حاية لي من أفكاري . ولكنني

لم أجد : رويداً رويداً ، كان الضباب قد تمزق ، ولكن شيئاً ما مغلقاً كان

باقياً يشمطني في الشارع . ربما لم يكن تهديداً حقيقياً : فهو قد امتحى ،

شفافاً . ولكن هذا بالذات هو ما كان ينتهي باشاعة الخوف . وأسندت جبيني

بالواجهة . ولاحظت على « مايونيز » بيضة معدة على الطريقة الروسية فطرة

ذات لون احمر معتم : كان ذلك دماً . وكان هذا الامر على ذلك الاصفر بشر

اشمئزازي .

وفجأة . حدثت لي رؤية : لقد سقط احد الاشخاص ، وجهه الى امام

يتزف في صحون الطعام . وكانت البيضة قد تدرجحت في الدم ، وانفصلت عنها قطعة البندورة التي كانت تكللها . فسقطت حراء على اللون الاحمر . وكان المايونيز قد سال قليلاً : فاذا هو بحيرة من القشدة الصفراء تقسم قناة الدم الى ذراعين .

« إن هذا غاية في البلادة . فيجب ان أنتفض . اني ذاهب للعمل في دار الكتب » .

العمل ؟ كنت أعلم جيداً اني لن أكتب سطرأ واحداً . انه نهار آخر يضيع ، ورايت ، وأنا أعبر الحديقة العامة : على المقعد الذي اعتدت ان أجلس عليه ، رداء كبيراً أزرق جامداً . هذا الانسان لا يصاب بالبرد .

وحين دخلت غرفة المطالعة ، كان العصامي بهم بأن يغادرها . وارتمى علي :

— يجب ان اشكرك يا سيدي . إن صورك قد جعلتني أقضي ساعات لا تنسى .

وغرقتني لحظة أمل إذ رآته : ربما كان من الأيسر قضاء هذا النهار ، حين نكون اثنين . ولكن ، مع العصامي لن نكون اثنين إلا في الظاهر . وضرب يده على مجلده ، كان « تاريخ الأديان » .

— يا سيدي ، لم يكن ثمة من هو أكفأ من « نوسايه » لمحاولة وضع هذا المؤلف التركيبي . أهذا صحيح ؟

كان الوهن بادياً عليه ، وكانت يدها ترنجان . وقلت له :

— إن وجهك يتم عن التعب .

— آه ، أظن ذلك يا سيدي . ذلك انه حدث لي حادث كرهه .

وكان الحارس قادماً نحونا : انه كورسيكي قصير غضوب ، ذو شاربين شبهان شارببي ضارب طبل كبير . وهو ينتزه ساعات طويلة بين الطاولات ، صافقاً نعليه . وهو في الشتاء يصبق في مناديل يجففها بعد ذلك على الموقد . واقترب « العصامي » حتى كان فمه يزفر امسام وجهي ، وقال لي بلهجة



ساراة :

— لن أقول لك شيئاً أمام هذا الرجل . اذا كنت تريد ، يا سيدي ؟...

— ماذا ؟

فاحمر وجهه ، وتمايل كشحاه بلطافة :

— سيدي ، آه يا سيدي : لاني أرغمي في الماء . هل تشرفني بتناول الغداء

معي يوم الاربعاء ؟

— بكل رضى .

وكانت رغبتي في تناول الغداء معه تشبه رغبتي في شق نفسي . وقال

المصامي :

— أية سعادة تحققها لي !

ثم أضاف بسرعة :

— سأتي لاصطحابك من بيتك ، اذا كنت تريد .

واغضى ، ولا شك ان ذلك كان خوفاً من أن أغير رأيي إذا ترك لي الوقت

الكافي لذلك .

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف . وقد اشتغلت حتى الثانية إلا ربعا ،

وكان عملاً رديئاً : صحيح ان كتاباً كان تحت نظري ، ولكن ذهني كان

ما يني يرجع الى مقهى مابلي . ترى ، أليكون السيد فاسكيل قد هبط الآن ؟

الحق انني لم أكن اؤمن كثيراً . في أعماقي ، بموته . وهذا بالذات ما كان

يزعجني ! كانت هذه فكرة عاتية لم أكن أستطيع ان اقتنع بها ولا ان أنجس

منها . وكان نعل الكورسيكي يصطفقان على الارض الخشبية . وقد أتى مرات

عديدة يتزور أمامي ، وعليه هيئة من يريد التحدث إلي . ولكنه كان يعدل .

ويبتعد .

وحوالي الساعة الواحدة ، خرج آخر المطالعين . ولم أكن جائعاً : وكنت

خاصة لا أريد ان اذهب . وعملت فترة أخرى ثم التفتفت : كنت أحسني

مكفئاً بالصمت .

ورفعت رأسي : كنت وحيداً . ولا بد ان الكورسيكي قد هبط الى زوجته التي كانت بوابة المكتبة ، وكانت بي رغبة لسماع صوت قدميه . وكل ما سمعته صوت سقوط محم في الموقد . وكان الضباب قد غشي القاعة : ليس الضباب الحقيقي ، الذي كان قد تبدد منذ وقت طويل — وإنما الضباب الآخر ، ذلك الذي كانت الشوارع ما تزال ملأى به . والذي كان يخرج من الجدران ، ومن الأرض المبلطة . انه لون من لآكثافة الاشياء ، وكانت الكتب ما تزال هنا ، بالطبع ، مصفوفة وفق الأجدية على الرفوف ، بظهورها السوداء او السمراء وطابعها ا ع . أف ٧٩٩٦ ( استعمال للعموم — أدب فرنسي ) او أ ع ، ط ( استعمال للعموم ، علوم طبيعية ) . ولكن ... كيف أفسر ؟ انها عادة ، بقوتها وكثافتها ، مع الموقد ، والمصابيح الخضر ، والنوافذ الكبيرة ، والسلام ، تسد المستقبل . وما دام المرء باقياً بين هذه الجدران ، فان ما سيحدث ينبغي ان يحدث الى يمين الموقد او يساره . حتى ولو كان على القديس دنيس ان يدخل حاملاً رأسه بين يديه ، فيجب ان يدخل من اليمين ، وأن يمشي بين الرفوف المخصصة للأدب الفرنسي والطاولة المخصصة للقارئات . وإذا لم يحس الأرض ، اذا عام على ارتفاع عشرين ستيماً من الأرض ، فان عتقه الدامية ستكون على ارتفاع رف الكتب الثالث . وهكذا نجد هذه الاشياء ، على الأقل ، في تثبيت حدود ما هو محتمل الوقوع .

ولكنها اليوم لم تكن تثبت شيئاً على الإطلاق : بل كان يبدو ان وجودها بالذات موضع شك . وانها كانت تعاني اكبر المشقة للانتقال من لحظة الى أخرى . وشددت بين يدي بقوة المجلد الذي كنت أقرأ فيه : ولكن أعنف المشاعر كانت قد ضعفت . ولم يكن شيء ليبدو حقيقياً ، وكنت أحسني غامطاً بديكور كرتوبي يمكن ان يتزعزع فجأة من مكانه . كان العالم ينتظر ، وهو "ممسك نفسه" ، وهو يتصاغر : كان ينتظر نوبته ، غشيانه ، كما حدث للسيد أشيل ، في ذلك اليوم .

ونَهَضت ، لم يكن بوسعي بعد ان أتماسك وسط هذه الاشياء التي لحقها

الضعف والوهن . وقت لألقي نظرة من القاعدة على رأس امبراز . ونحتمت  
« كل شيء » يمكن ان يحدث . « كل شيء » يمكن ان يحصل . بالطبع ،  
ليس نوع ما هو فطيع الذي اخترعه البشر ، إن امبراز لن يأخذ في الرقص  
على قاعدته ! وإنما سيكون شيئاً آخر .

ونظرت في ذعر الى هذه الكائنات غير الثابتة التي ربما انتهت بعد ساعة  
او بعد دقيقة . أجل ، لقد كنت هناك كنت أعيش وسط هذه الكتب الزائفة  
بالمعارف ، التي كان بعضها يصور الاشكال التي لا تتغير للأجناس الحيوانية .  
وكان بعضها الآخر يشرح أن كمية الطاقة تحتفظ بنفسها كلياً في العالم ، كنت  
هنا ، وفقاً قرب نافذة كان لزجاجها علامة انعكاس محددة . ولكن ما أصعبها  
من حواجز ! انني أفترض ان العالم يتشابه من يوم لآخر ، بداعي الكسل .  
انه يبدو اليوم وكأنه يريد ان يتغير . وإذا ذلك يمكن ان يحدث « كل شيء » .  
« كل شيء » .

ليس لدي وقت أنيحه : إن اصل هذا القلق يعود الى قصة مفهى مايلي .  
يجب ان أعود اليه ، وأن أرى السيد فاسكيل على قيد الحياة . وأن ألتبس عند  
الحاجة لحية او يديه . وعند ذلك ، ربما أنحرر .

وتناولت معظفي على عجل ، وألقيته على كسفى من غير ان ارتديه . اني  
أهرب . وفيما كنت أعبر الحديقة العامة ، وجدت في المكان نفسه الرجل ذا الرداء ،  
وكان له وجه متمتع هائل بين أذنين قرمزيتين من فرط البرد .

وكان مفهى مايلي بشع من بعيد . لا بد أن المنصايح الاثني عشر كانت  
مضادة كلها . وحشت خطوي : كان ينبغي ان أنتهي من الأمر وألقيت أولاً  
بنظرة عاجلة من الفتحة الكبيرة المزججة ، كانت القاعة خالية . لم تكن أمينة  
الصندوق هناك . ولا الخادم . ولا السيد فاسكيل .

وكان عليّ ان أبذل جهداً كبيراً لأدخل ، ولم أجلس . بل صحت :  
« غارسون ! » فلم يجب احد . كان ثمة فنجان فارغ على طاولة وقطعة سكر  
على الصحن .

- أليس هنا أحد ؟

كان ثمة معطف يتدلى من مشجب ، وكانت مجلات مكرومة في صناديق كروتونية سوداء موضوعة على طاولة ذات عمود واحد . وأرهفت سمعي لأدنى صوت ، ممكساً انفاسي . وفرقع السلم انفاص فرقة خفيفة . وفي الخارج ، صغارة باخرة . وخرجت متقهقراً . من غير ان أعادر السلم بميني . أعرف جيداً : ان الزبائن نادرون ، في الساعة الثانية بعد الظهر . كان السيد فاسكيل مريضاً ، ولا بد انه كان قد أرسل الخادم في مهمته لعودة بطبيب . نعم ، ولكن القضية اني كنت « بحاجة » لأن أرى السيد فاسكيل . وعند مدخل شارع تورنوبريد . التفت ، وتأملت في اشتزاز انقضى المشع الخالي . كانت الشبايك مقفلة ، في الطابق الاول .

واستولى عليّ ذعرٌ حقيقي . ولم اكن ادري اين كنت انجه بعد . وعدوت بمحاذاة احواس السفن ، واتعطت الى الشوارع المقفرة في حيّ « بوفاري » : كانت البيوت تنظر اليّ هارباً بعيونها الكثيرة . وكنت اردّد نفسي في ضيق : اين اذهب ؟ اين اذهب ؟ يمكن ان يحدث « كل شيء » . وبين القينة والقينة ، كنت اقوم بنصف استدارة فجائية ، خافق القلب : ما الذي كان يحدث في ظهري ؟ ربما كان ذلك سيبدأ خلفي . حتى اذا التفت ، مجأة ، يكون الاوان قد فات . وما دام في مكنتي ان احذف في الاشياء . فلن يحدث شيء . وكنت انظر الى كل ما كنت استطيع النظر اليه . من الطرق والبيوت وقناديل الغاز ، وكانت عيناى تتقلان بسرعة من احداها الى الاخرى ، لتفاجئها وتوقفها وهي في إبان نحوها . ولم تكن هبتها طبيعية جداً ، ولكني كنت اقول لنفسى في قوة : ان هذا قنديل غاز ، وهذا نبع ، وكنت احاول ، بقوة بصري . ان احيلها الى مظهرها اليومي . وقد التقيت مرات عديدة عانات في طريقي : « مفهى سكان بريثانيا » ، « حانة البحرية » . وكنت اقف . وأتردد امام سنائرها المصنوعة من التول الوردى : ربما لم تلمس ، هذه « العلب » المحكمة جيداً ، وربما كانت ما تزال تنطوي على اثاره من عالم الأمس ، معزولة ، منسية ،

ولكن كان ينبغي دفع الباب ، والدخول . ولم اكن اجرو ، فكنت امضي في سبيل . وكانت ابواب البيوت خاصة : تخفي . كنت اعشى ان تنفتح من تلقاء نفسها . وانتهى بي الأمر الى السير وسط الشارع .

وأفضيت فجأة الى عطة « احواض الشمال » . قوارب صيد ، بخوت صغيرة . ووضعت قدمي على حلقة حديدية محفورة في الحجر . هنا ، بعيداً عن البيوت ، بعيداً عن الابواب ، سيحاح لي ان اعرف لحظة راحة . وعلى الماء الهادي المنقط بحبوب سود . كانت سداة تعوم .

« و تحت » الماء ؟ ألم تفكر بما عساه يكون تحت » الماء ؟

حيوان ؟ بيت سلحفاة غارق الى منتصفه في الوحل ؟ ان التي عشر زوجاً من الأرجل تفلح الوعاء على مهل . والحیوان يرتفع قليلاً ، بين القبة والقبة . في جوف الماء . ودنوت ، مترصداً حركة ما ، تموتجاً خفيفاً . وظلت السداة جامدة ، وسط الحبوب السود .

وفي تلك اللحظة : سمعت اصواتاً . كان قد آن الاوان لذلك . واستدرت على نفسي ، وواصلت سيري .

وأدركت الرجلين اللذين كانا يتكلمان ، في شارع « كاستيغليون » . ولدى سماعها وقع اقدامي ، ارتعشا بعنف والتفتنا معاً . ورأيت عيونها القلقة تنجس نحوي ، ثم خلفي ، ترى اذا كان شيء آخر قادماً . لقد كانا اذن مثل ، لقد كانا اذن خائفين ؟ وحين تجاوزتهما ، تبادلنا النظر : ولولا قليل ، لتبادلنا الكلام . ولكن الأنظار عبرت فجأة عن الحذر . ان المرة في مثل هذا اليوم لا يتحدث الى اي كان .

وألفيتني في شارع « بوليه » ، وأنا ألتفت . واذن ، فقد حكم القدر : انني سأعود الى « دار الكتب » وسأتناول رواية . وأحاول ان اقرأ . واذ حاذيت حاجز الحديقة العامة . لمحت الرجل ذا الرداء . كان ما يزال هناك ، في الحديقة المقفرة ، وكان انفه قد اصبح في مثل احمرار اذنيه . وكنت اهم بدفع الحاجز ، ولكن تعبير وجهه ستمرني : كان يغض

عينه ويقهفه نصف قهقهة . بيته بليدة مسرحية . ولكنه كان في الوقت نفسه يحدق في شيء امامه لم اكن استطيع رؤيته ، بنظرة قاسية جداً وكثيفة جداً ، حتى انني التفت فجأة .

كان ثمة تجاهه . فتاة صغيرة في حوالي العاشرة من عمرها . فاعرة فيها ، رافعة إحدى قدميها ، تتأمله بهيرة وهي تشد بعصية على متدبل عنقها وتمدد وجهها المدبب الى امام .

وكان الرجل يتشم لنفسه ، كمن يوشك ان يقوم بعمل مازح . وفجأة نهض واضعاً يديه في جيبي ردائه الذي كان يتدلى حتى قدميه . وخطا خطوتين فانداحت عيناه . وحسب انه سيسقط . ولكنه ظل يتشم بسمعة متتامة .

وفهمت فجأة : الرداء ! وكنت اود ان امتنع ذلك . وكان حسي ان اسلم ، او ان ادفع الحاجز . ولكني كنت مسحوراً ، بدوري ، بوجه الطفلة الصغيرة ، كانت ملاحظتها متمددة بالخوف ، ولا بد ان قلبها كان يخفق خفقاً مريباً : غير اني قرأت على خطم هذه القارة شيئاً ما قوياً وشريراً . لم يكن ذلك فضولاً . بل كان الاخرى لوناً من الانتظار المطمئن . وأحسنتني عاجزاً : كنت في الخارج ، عند حافة الحديقة ، عند حافة مأساتها الصغيرة ، ولكنها هما ، كانا مشدودين احدهما الى الآخر بقوة رغائبها الغامضة ، كانا يشكّلان زوجاً . وأسكت انفاسي ، وكنت اريد ان ارى ما الذي سبرتسم على ذلك الوجه الذي بدأ بشيخ . حين يعمد الرجل ، خلف ظهري ، الى ابعاد ذبول ردائه .

ولكن الصغيرة تفضت رأسها فجأة ، وأخذت تعدو ، متحررة . وكان الرجل ذو الرداء قد رأيته : وكان هذا ما أوقفه . وقد ظل لحظة جامداً وسط الممر . ثم مضى . مستدير الظهر . وكان رداؤه يصطفيق ببريلة ساقه . ودفعت الحاجز . وأدركته بقفزة ، وصححت :

— إيه ! إسمع !

فأخذ يرتعش . وقلت له بتأدب ، حين مررت به :

— إن خطراً شديداً يفتل على المدينة .

دخلت قاعة المطالعة ، وتناولت « لارشارتروز دوبارم » التي كانت موضوعة على طاولة . وكنت أحاول أن أستغرق في قراءتي ، وأن أجد ملجأ في إيطاليا المشرقة كما وصفها ستاندال . وكنت أبلغ ذلك بالتدريج ، وهلست قصيرة ، ثم كنت أسقط ثانية في ذلك النهار المهدد ، قبالة شيخ قصير كان يتنحى ، وشاب كان يحلم وهو مستلق على كرسبه .

وكانت الساعات تنقضي ، والواجهات تصبح سوداء . وكنا أربعة ، بالإضافة إلى الكورسيكي الذي كان يسجل على طاولته آخر مقتنيات المكتبة . كان هناك ذلك المعجوز القصير ، والشاب الأشقر ، وامرأة شابة تعدّ شهادة الليسانس ، وأنا . وكان احدهما يرفع رأسه بين الفينة والفينة ، فيلقي نظرة سريعة خلدرة على الثلاثة الآخرين ، كما لو أنه كان يخشاهم . وذات لحظة ، اخذ المعجوز القصير بضحك : فرأيت المرأة الشابة ترتعش من رأسها إلى قدميها . ولكنني كنت قد نهجأت بالقلوب عنوان كتاب كان يقرأه : إنه رواية مرحة . الساعة السابعة إلا عشر دقائق . وفكرت فجأة أن دار الكتب كانت تغلق أبوابها في الساعة السابعة . سيُلقي بي مرة أخرى في المدينة . فأين عساني اذهب ؟ وما الذي سأفعله ؟

وكان المعجوز قد انجز روايته ، ولكنه لم يكن ليذهب . كان يضرب الطاولة بأصابعه ضربات منتظمة جافة . وقال الكورسيكي :

— أيها السادة سنغلق الابواب عما قليل .

فانتفض الشاب ورماني بنظرة موجزة . وكانت المرأة الشابة قد التفتت إلى الكورسيكي ، ثم اخذت كتابها من جديد ، وبدت وكأنها تفرق فيه .

وقال الكورسيكي ، بعد خمس دقائق :

— اننا نغلق .

فهز المعجوز رأسه بهيئة مترددة . ودفعت المرأة الشابة كتابها ، ولكن من

غير ان نهض .  
ودُهِش الكورسيكي . وقام بعدة خطوات مُرددة ، ثم ادار مفتاحاً  
كهربائياً فانطلقت المصابيح على طاولات المطالعة ، وظل المصباح المركزي  
وحده مضاءً . وسأل العجوز على مهل :

— ينبغي ان نذهب ؟

ونَهَض الشاب متباطئاً ، على مضض . وقد اتفق من الوقت أكثر من  
اي آخر ليرتدي معطفه . وحين خرجت ، كانت المرأة ما تزال جالسة ،  
وقد بسطت احدى يديها على كتابها .

وفي اسفل السلم ، كان الباب يفرقه لليل ، وانفلت الشاب ، وكان  
في الطليعة . فهبط السلم على بظء ، واجتاز الممر ، وتلبّث لحظة عند  
العتبة ، ثم ارتقى في الليل واختفى .

وحين بلغت اسفل السلم ، رفعت رأسي ، وبعد لحظة ، غادر العجوز  
الصغير قاعة المطالعة ، وهو يزور معطفه . وحين هبط الدرجات الثلاث  
الاولى ، اندفعت غاطساً وانا مغمض عيني .

وأحسْتُ على وجهي مذاعبة صغيرة رطبة . وكان ثمة في البعيد من يصفر .  
ورفعت جفني : كانت السماء تمطر . مطر عذب هاديء . وكانت الساحة  
مضاءةً ، يسكون ، بقناديلها الأربعة . ساحة رقيقة تحت المطر . وكان  
الشاب يعتمد بغطى واسعة ، كان هو الذي يصفر : وأخذتني الرغبة ان  
اصبح بالآخرين اللذين لم يكونا قد عرفنا بعد ، أن يوسعها ان يخرجنا بلا  
خوف ، وان الخطر قد زال .

وظهر العجوز القصير على العتبة . فحكتُ خدّه بهيئة مرتبكة . ثم ابتسم  
ابشامة عريضة ، وفتح مظلته .

### صباح السبت

شمس فاتنة . مع ضباب خفيف يتعبدُ بطقس جميل ذلك النهار . وقد



تناولت فطوري في مقهى مابلي .  
وقد منحتني السيدة فاوران ، امنية الصندوق ، بسمة عذبة . وصحت  
من طاولتي :

— هل يكون السيد فاسكيل مريضاً ؟

— نعم . يا سيدي ، انه « كريب » شديد . وهو مضطر الى ملازمة فراشه  
بضعة ايام . ولقد وصلت ابنته هذا الصباح من دنكرك . وستقيم هنا للعناية به .  
انني سعيد حقاً بأن ارى آني من جديد ، للمرة الاولى منذ تلقيت رسالتها .  
ما الذي فعلته منذ ستة اعوام ؟ اترانا ستضايق حين نلتقي من جديد ؟  
ان آني لا تعرف ما هو الضيق . سوف نلتقاني كما لو انني تركتها امس .  
المهم الا انتصرف بحفاوة ، الا ازعمها بايديه ذي بدء . وان اذكّر الا  
امدّها يدي ، حين تصل : انها تحفر ذلك .

كم يوماً سنبقى معاً ؟ ربما عدت الى بوفيل . يكفي ان تعيش فيها  
بضع ساعات ، ان تنام ليلة في فندق برنتايا . وبعد ذلك ، سيختلف  
الموقف . ولن اشعر بعد بالحرف .

### بعد الظهر

حين فلت ، في العام الماضي ، بزيارتي الاولى لشحف بوفيل ، استوقفتني  
صورة اوليفه بلايني . اسبب خطأ في النسب ؟ ام في المنظور ؟ ما كنت  
لأستطيع ان اثبت ، لكن شيئاً ما كان يزعجني : ان هذا النائب لم يكن  
مستقر الهيئة على قماش لوحته .

وعدت بعد ذلك لأشاهده عدة مرات . ولكن ضبقي لم يكن ينقضي لم  
اكن اريد الإقرار بأن بوردوران ، الخائر على جائزة وما وعلى ست مداليات  
اخرى ، قد ارتكب غلطة في الرسم

ولكني تبينت الحقيقة ، بعد ظهر هذا اليوم . ولما اقلب صفحات مجموعة  
قديمة لصحيفة « ساتيريك بوفواو » ، وهي صحيفة شانناج انهم صاحبها في

أثناء الحرب بالخيالة . وسرعان ما غادرت دار الكتب ودعيت اليوم بحولة في الصحف .

وعبرت عتمة الممر بسرعة . ولم تكن خطواتي لتحدث أية ضججة على البلاطات البيض والسود . وكان شعب "كامل" من الجص يلوي حولي أذرعته ، وقد لمحت عبر حاجبين كبيرين أواني مشققة وصحوناً وإنساناً بقدمي نيس ، أزرق أصفر ، يقوم على قاعدة . كانت تلك قاعة « برقرار باليدي » المخصصة للبراميك وللغنون الصغرى ولكن البراميك لا يضحكني . كان ثمة سيد وسيدة يرتديان ثياب الحداد ويتأملان هذه الأشياء المطبوخة باحترام .

ووفق مدخل القاعة الكبرى - أو قاعة بوردوران - رونيديا - كانوا قد علقوا ، منذ وقت بعيد بلا شك ، لوحة كبيرة لم أكن أعرفها . وكانت تحمل توقيع ريشار سيفيران ، وتدعي « موت العازب » . وكانت اللوحة هبة من الدولة .

كان العازب متمعداً على سرير مدعوك ، عازياً حتى الشقاق ، وقد اخضر صدره قليلاً ، كما يجدر بالأموات . وكانت الأغطية والشرائط المدعكة ثم عن احتضار طويل . وانسمت وأنا أذكر السيد فاسكيل . أنه لم يكن وحده ، فابنته كانت تعني به . وعلى اللوحة ، كانت الخادم ذات الملامح الشريرة . قد فتحت درج خزانة وأخذت تعد الدراهم . وكان باب مفتوح يتبع ، في الظل ، رؤية رجل ذي قبة كان ينتظر ، وقد انصفت سيكارة بشفته السفلى . وبالقرب من الجدار ، كانت قطة تلحق حلياً بلا اكترات .

لم يكن هذا الرجل قد عاشى إلا لنفسه . وعقاباً صارماً وجديرأ به ، لم يجه أحد فيمنع له عينيه ، وهو على سرير الموت . وكانت هذه اللوحة تعطيني انذاراً أخيراً : أن الأول لم يفت بعد ، وقد كان بوسعني أن أعود على اعتقاسي . ولكن لأعرف جيداً هذا ، إذا تجاهلت ذلك الانذار : أن ثمة في القاعة الكبيرة التي ساد عليها أكثر من مئة وخمسين صورة معلقة على الجدران ، فإذا استثنينا بضعة شبان نُزِعوا باكراً من أسرهم ، ومديرة ميم ، فليس في الذين

مُثَلُّوا هناك واحد قد مات اعزب ، وليس فيهم من مات بلا اولاد او بلا وصية او بلا تناول الأسرار . ان هؤلاء الناس الذين كانوا على علاقة طيبة مع الرب ومع الناس ، في ذلك اليوم كما في الايام الاخرى ، قد دلفوا على مهل الى الموت ، ليذهبوا فبطالوا بنصيب الحياة الابدية الذي كان يحق لهم . ذلك انه كان يحق لهم كل شيء : الحياة والعمل والثروة والقيادة والاحترام واخيراً الخلود .

فرغت الى نفسي لحظة . ثم دخلت . وكان ثمة حارس ينام قرب نافذة . وكان نور اشقر يستقط من الواجهات فيخلف لطخات على اللوحات . لم يكن ثمة ما هو حي في هذه القاعة الكبيرة المستطيلة ، باستثناء قطعة اخذها الخوف عند دخولي فهربت ولكني احسست نظراً مئة وخمسين زوجاً من العيون تحط علي .

ان جميع الذين كانوا ينتمون الى غبة بوفيل بين ١٨٧٥ و ١٩١٠ كانوا هنا ، رجالاً ونساء . وقد رسمهم رونودا وبوردوران برقة وعناية . لقد بنى الرجال كنيسة سانت - سيسيل - دولامير . وأسسوا عام ١٨٨٢ اتحاداً مجهزاً المراكب والتجار في « بوفيل » لكي يجمعوا في ضمة قوية جميع ذوي الارادة الطيبة . ويسهموا في الانعاش القومي ويحبطوا محاولات الاحزاب التخريبية ... وقد جعلوا من بوفيل افضل مرفأ تجاري فرنسي تجهيزاً لتفريغ الفحم والخشب . كان عمالهم تمديد المحطات وتوسيعها . وقد اعطوا « المحطة البحرية » كل الاتساع المطلوب ، وعمقوا حتى ١٠,٧٠ امتار ماء الإرساء للجزر المنخفض . وذلك بواسطة عمليات متصلة لجرف الرمل . وفي عشرين عاماً . ارتفعت حولة سفن الصيد التي كانت ٥٠٠٠ برميل في عام ١٨٦٩ ، الى ١٨٠٠٠ برميل ، بفضل جهودهم . انهم لم يكونوا يراجعون عن بذل اية تضحية لتسهيل نجاح افضل ممثلي الطبقة العاملة ، ولذلك انشأوا بمحض مبادرتهم مختلف مراكز التعليم التكنيكي والمهني التي ازدهرت تحت جناح رعايتهم . وهم قد حطّموا اضراب عمال المرافئ الشهير عام

١٨٩٨ ووجهوا الوطن اولادهم عام ١٩١٤ .

أما النساء ، رفقات هؤلاء المناضلين الكرمات ، فقد أنشأن معظم المؤسسات الخيرية وملاجيء الفقراء ومشاكل البنات . ولكنهن كنّ ، قبل كل شيء ، زوجات وأمّهات . وقد ربّين اولاداً جَمِليّين ، وعلمنهم واجباتهم وحقوقهم والدين ، واحترام التقاليد التي صنعت فرنسا .

وكان طابع الصور العام يميل الى الأسمر المعتم . وقد كانت الالوان القابعة مُبعّدة ، بدافع من الاحتشام . ومع ذلك ، فإن ثلج الشعر والسوالف في لوحات رونودا الذي كان يؤثر رسم الشيوخ ، كان يحسم الالوان على ارضيات سوداء وكان يبدع في رسم الايدي . اما عند بوردوران الذي كانت طرائقه أقل وضوحاً ، فإن الايدي كانت مهملّة بعض الشيء ، خلافاً للياقات المنشأة التي كانت تلمع كالمرمر الابيض .

كان الحر شديداً ، وكان الحارس يشخر على مهل . وألقيت نظرة دائرية على الجدران : فرأيت أيادي وعيوناً ، وهنا وهناك ، كانت لطخة ضوء تأكل وجهاً . وإذا كنت متجهاً نحو صورة اوليفه بلافيي ، استوقفتني شيء ما : كان التاجر « باكوم » يسقط على من الرواق نظرة مشرقة .

كان واقفاً ، مميلاً رأسه بعض الشيء الى خلف ، ممسكاً بيده قبعة عالية وقفازين يلزاه بتطلونه الرمادي . ولم أتمالك ان اكنّ له بعض اعجاب : فأنني لم اكن أرى فيه شيئاً وسطاً ، شيئاً يمكن النقد منه : إن له قدمين صغيرتين ، ويدين دقيقتين ، وكثفي مصارع عريضتين ، وأناقة خفيفة ، مع إثارة من جموح الهوى . وكان يهب الزوار ، في بشاشة ، نقاوة وجهه الذي لا تجعد فيه ؛ بل ان ظل ابتسامة كان يرفّ على شفتيه . غير ان عينيه لم تكونا بتسمان . وكان يوحى انه في حواري الحسين : كان نضراً وقتياً كما لو أنه في الثلاثين . كان جميلاً .

وعدلت عن رأسي ان فيه خطأ . ولكنه ، هو ، لم يتركني . فقد قرأت في عينيه حكماً هادئاً مصرّاً .

وفهمت آنذاك كل ما كان يفصلنا : إن ما يمكن أن أفكره بصدده لم يكن ليدركه ؛ كان مجرد تحليل نفسي ، كذلك الذي يُصنع في الروايات . ولكن حكمه كان يخترقني كالسيف ويضع حتى حقي في الحياة موضع التساؤل وقد كان هذا صحيحاً ، وكنت دائماً أدركه : لم يكن لي حق الحياة . لقد ظهرت اتفاقاً . وكنت موجوداً كحجر ، كتبة ، كجراثومة . كانت حياتي تنمو صعبة ، وفي كل اتجاه . وكانت ترسل لي احساناً إشارات غامضة ، وأحياناً أخرى لم أكن أشعر إلا بطين لا غاية له .

أما بالنسبة لهذا الرجل الجميل ، الخالي من النقائص ، الذي مات اليوم ، بالنسبة لجان باكوم ، ابن باكوم « الدفاع الوطني » ، فقد كان الأمر مختلفاً : إن خفقات قلبه وأصوات أعضائه كانت تجيشه بشكل حقوق صغيرة نفية فجائية . ولقد استعمل ، طوال ستين عاماً ، بلا ضعف ولا هوادة ، حق الحياة ، يا للعينين الرماديتين الرائعتين ! لهنّما لم تعرفا أدنى شك . وكذلك باكوم ، إنه يخطيء فقط .

لقد قام دائماً بواجبه ، واجبه كله ، واجبه كابن وكزوج وكأب وكفائد . وكان أيضاً قد طالب بحقوقه دون ما هوادة : حين كان صبياً ، طالب بحقه بأن يُربى تربية جيدة ، في أسرة موحدة ، حق وارث لاسم غير ملطخ ، وارث لعمل مزدهر ، وكزوج ، طالب بحقه بأن يعنى به ويحاط بالحُب المعطوف ، وكأب ، طالب بحقه بأن يُحترم : وكفائد ، طالب بحقه بأن يطاع ، دون مأسس . ذلك أن الحق ليس إلا المظهر الآخر للواجب . ولا بد أن نجاحه الهائل ( إن أسرة باكوم هي اليوم أغنى أسرة في بوفيل ) لم يدهشه قط . إنه لم يقل لنفسه قط أنه كان سعيداً ؛ وحين كان يحقق إحدى رغباته ، كان ينصرف إليها في اعتدال ، قائلاً « انني استريح » . وهكذا كانت الرغبة تدخل هي أيضاً في صف الحق ، فتفقد نفاستها الاعتدائية . وقد لاحظت أنه كان إلى يساره ، فوق شعره الرمادي المزرق ، كتب « مصفوفة عسل رف » وكان تجليدها جميلاً ؛ لقد كانت بالتأكيد من أمهات الكتب الكلاسيكية . ولا ريب

في ان باكوم كان يعبد ، مساء ، قبل ان ينام ، قراءة بضع صفحات من كتب « صديقه القدم مونتاني » او انشودة لهوراس في الاصل اللاتيني . ولا بد انه كان يقرأ ، أحياناً أخرى ، مؤلفاً معاصراً ، على سبيل الاطلاع . وعلى هذا النحو ، عرف « باريس » و « بورجيه » . وكان يضع الكتاب بعد فترة ويستم . فيصبح نظره . وقد فقد تنبّهه ، شبه حالم . وكان يقول : « ما أبسط ان يؤدي المرء واجبه ، وما اصعب ذلك ! »

ولم يسبق له قط ان قام بارتداد آخر على نفسه : لقد كان قائداً . وكان ثمة قواد آخرون معلقين على الجدران : بل لم يكن ثمة غير ذلك . كان قائداً ، ذلك الشيخ الطويل المخضر اللون الجالس على أريكته . وكانت صدرته البيضاء نذكيراً ناجحاً بشعره القضي ( في هذه الصورة المرسومة خصوصاً لغايات التسلية الخلقي ، والتي كانت الدقة فيها تبلغ حد الوسواس ، لم يكن الهمم الغني غائباً ) وكان يضع يده الطويلة الدقيقة على رأس صبي صغير . وكان كياض مفتوح يستريح على ركبتيه اللتين كانتا محاطتين بغطاء . ولكن نظره كان يشبه في البعيد . كان يرى جميع هذه الاشياء التي لا يراها الشبان . وكان اسمه قد كتب على معبته من الخشب المذهب ، تحت صورته : وكان المفروض ان يسمى باكوم او بارونين او شينيو . فانه لم يخطر لي ان اذهب فأرى : فبالنسبة لأقاربه . ولهذا الصبي ، ولنفسه ، كان بكل بساطة الجد ؛ فاذا كان الآن يحكم بأن الساعة قد حانت ليطلع حفيده على مدى واجبانه المقبلة ، فانه سيتكلم عن نفسه بصيغة الغائب .

— عيد جدك بأن تكون عاقلاً ، يا صغيري الحبيب ، وبأن تدرس جيداً في العام القادم . فربما غاب الجد . في العام القادم . لقد كان ، في مساء الحياة ، ينشر على كل انسان طبيته الرحيمة . ولو كان يراتني انا بالذات — ولكنني شفاف لزاء نظراته — لوجدت في عينيه الرحمة : سوف يفكر بأنه كان لي في الماضي جدود . ولم يكن يطلب شيئاً : إن المرء حين يبلغ هذه السن يفقد كل شهوته . لم يكن يطلب إلا ان يحتمض الناس

صوتهم قليلاً حين يدخل ، وإلا ان تحصل البسات ، حين يمر ، ظلاً من حنان واحترام ، وإلا ان تقول بنت زوجته أحياناً : « إن أبي هائل » انه أفنى منا جميعاً » ، والا ان يكون وحده القادر على تهدئة غضب حفيده بأن يضع له يديه على رأسه وأن يستطيع ان يقول له بعد ذلك : « ان الجدة هو الذي يُحسن ان يؤاسي هذه الموم الكبيرة » . وإلا ان يأتي ابنه ، يضع مرات في العام ، ليطلب نصائحه حول القضايا الدقيقة ، وإلا ان يحسن أخيراً أنه هادئ ، مطمئن ، عاقل الى ابعد حد . ولقد كانت يد السيد العجوز تلامس ملازمة خصلات شعر حفيده : كان ذلك شبه بركة . بم عساه كان يفكر ؟ بماضيه المشرف الذي كان يمنحه حتى التحدث بكل شيء . وأن تكون له الكلمة الأخيرة في كل شيء . إنني لم أكن ذلك اليوم بعيداً بما فيه الكفاية : لقد كانت التجربة أكثر من دفاع ضد الموت ، كانت حقاً : حق الشيوخ .

والجنرال اوبري ، المعلق في الرواق ، بسيفه الكبير ، كان هو ايضاً قائداً . وكذلك الرئيس هيبير ، المتعلم المرهف ، صديق امبراز . كان وجهه طويلاً ومتناسباً ذا ذقن لا ينتهي ، تنقطة خصلة زغب صغيرة تحت الشفة السفلى : وكان يبرز فكه قليلاً ، بحيث تبدو عليه هيئة من يعرض على التمييز ، او على اصدار اعتراض مبني ، كجشاة خفيفة . كان يحلم ، وكان يحسك بريشة أوزة : هو ايضاً كان ، لعمرى ، بسترع ، وكان ذلك بقرض الشعر . ولكن كانت له عين القادة السرية .

والجنود ؟ كنت في وسط القاعة ، قبل أنظار جميع هذه العيون الجادة . انني لم أكن جداً ، ولا أباً ، حتى ولا زوجاً . ولم أكن أفرع ، وأكاد لا ادفع إلا بعض الضرائب : لم أكن استطيع ادعاء حقوق المكلف ، ولا حقوق الناخب ، حتى ولا حق السرف المتواضع الذي تصفيه على المستخدم عشرون عاماً من الطاعة . وكانت حياتي قد بدأت تدهشني بصورة جادة . ألم أكن مجرد مظهر .

وقلت لنفسي فجأة : « هيه ! انني انا الجندي ! » وأضحكني ذلك ،

بلا حقد .

ورد لي بسمة "جيلة رجل" خمسيني "سجين" . وكان رونودا قد رسمه في حمة ، ولكنه لم يُصَف عليه لمسات بالغة الحنان بالنسبة للأذنين المثلثتين الدقيقتين ، ولا للبدن خاصة ، الطويلتين العصيتين بأصابعهما المنفرجة : انهما يدا عالم او فنان حقيقتان . وكان وجهه مجهولاً عندي : ولا يداني غالباً ما مررت باللوحة من غير ان أنبئه اليه . واقتربت فقرأت : « ريمى باروتين ، مولود في بوفيل ، عام ١٨٤٩ ، أستاذ في مدرسة الطب بباريس » .

باروتين : لقد سبق للدكتور واكفيلد ان حدثني عنه :

« التقيت ذات مرة في حياتي رجلاً طويلاً . كان يدعى ريمى باروتين . وقد تابعت محاضراته خلال شتاء ١٨٠٤ ( وأنت تعرف أنني قضيت عاصمتي في باريس لأدرس فن التوليد ) وقد أفهمني ما هو القائد . وأقسم لك انه كان يملك تباراً يكثر بنا حتى يصبح بإمكانه ان يفقدنا طوعاً الى آخر الدنيا . وكان الى ذلك انساناً نبيلاً : كان يملك ثروة ضخمة يخصص قسماً كبيراً منها لمساعدة الطلاب الفقراء » .

هكذا أوحى لي امير العلم هذا . اذ سمعت به للمرة الأولى ، ببعض المشاعر القوية . وهابدا الآن أمامه ، وهو يتسم لي . وكم كان في بسمة من ذكاء وبشاشة ! وكان جسمه السمين يستريح باسترخاء في جوف اريكة جلدية كبيرة . لقد كان هذا العالم البعيد عن الغرور يوحى للتسلس فوراً بالاطمئنان والرضى . ولولا روحانية نظراته لمال الانسان الى اعتباره رجلاً أقرب الى السذاجة .

وليس المرء بحاجة الى وقت طويل ليدرك سر نفوذه : لقد كان محبوباً لأنه كان يفهم كل شيء ، وكان بإمكان المرء ان يقول له كل شيء . وبالأجمال كان يشبه رينان بعض الشبه ، مع مزيد من التميز . كان من هؤلاء الذين يقولون :

« الاشتراكيون ؟ الحقيقة اني ، انا ، اذهب أبعد مما يذهبون ؟ » . وحين



يتبعه المرء في هذا الدرب الخطر ، فانه لن يلبث طويلاً حتى بهجر ، وهو يرتعش ، الأسرة والوطن وحق التملك وأقدس القيم . بل إنه ليشك لحظة بحق النخبة البورجوازية في القيادة . وخطوة اخرى ، وإذا بكل شيء فجأة يعود الى نصابه ، قائماً على أسس صلبة ، بصورة مدعشة . فإذا التفت بعد ذلك ، لمح خلفه الاشتراكيين ، وقد ابتعدوا . وأصبحوا صغاراً ، وهم يلوحون بمندبلهم صائحين : « إنتظرنّا ! »

والحق اني كنت اعرف ، عن طريق واكفيلد . أن « المعلم » كان يحب ، كما يقول هو نفسه مبسماً . ان « يولند الأرواح » . ولما كان قد بقي شاباً ، فانه كان يحب ان يحيط نفسه بالشباب : كان غالباً ما يستقبل شبان الأسر المرموقة الذين كانوا يتجهون الى قراءة الطب . وقد قصده واكفيلد غير مرة وتناول الطعام في منزله . وكان « المعلم » يذلف مع ضيوفه الى غرفة التدخين ، بعد الغداء ، فيعامل هؤلاء الطلاب معاملة الرجال ، بالرغم من انهم لا يكونون قد تجاوزوا بعد تدخين سيكارتهم الاولى : فيقدم لهم السيكار . وكان يتمدد على ديوان ليتحدث طويلاً . وعيناه نصف مغمضتين ، يحيط به جميع تلاميذه العطاش . وكان يبتعث ذكريات . وپروي حكايات يستخرج منها عبراً عميقة نافذة . وإذا اتفق ان كان بين هؤلاء الشبان الذين ربّوا تربية صالحة ، شاب مشاكس معاند ، فان ياروتين كان يولييه اهتماماً خاصاً . كان بدعوه للكلام ، ويستمع اليه باهتمام ، ويقدم له أفكاراً وموضوعات للتأمل . وكان يأتي يوم بالضرورة ، يحتل فيه الشاب بالأفكار السمحة ، ويشور للعداوة التي يلقاها من ذويه ، وبتعب من كونه يفكر وحده وضد الجميع . فإذا هو يطلب من « المعلم » ان يستقبله على افراد ، فيبوح له ، وهو يتمم من فرط الخجل ، بأخفى أفكاره وآلامه وآماله . وكان ياروتين يشده الى صدره ويقول له : « انني أفهمك . وقد فهمتك من اليوم الأول » . وكانا يتحدثان ، ويمضي ياروتين بعيداً ، ويمتن في البعد حتى يجد الشاب مشقة في متابته . وبعد بضـع

مقابلات على هذا النحو ، يمكن للمرء ان يلاحظ تقدماً محسوساً لدى الشاب المتحرد . إنه يتبصر طريقه ، ويتعلم ان يعرف الصلات العميقة التي كانت تربطه بأسرته ومحيطه ، وبفهم أعمق دور النخبة الرائع . وينتهي الأمر بالتمعة الشاردة التي تبعت بارونين عخطوة خطوة ، الى ان تجد نفسها ، بسحر ساحر ، وقد عادت الى « الخطيرة » ، واعية ، ناضجة ، لقد شفى من النفوس ، بقول واكفيلد منها حديثه ، أكثر مما شفيت من الاجسام .

كان ريمى بارونين يتشم لي يشاشة . وكان حائراً ، يسعى الى ان يفهم وضعي ليتطلف به على مهل ويعبثني الى الخطيرة . ولكني لم أكن أخافه : انني لم أكن نعمة . ونظرت الى جبينه الجميل الذي لا أثر فيه للتجمع ، وبطنه الصغير ، وبده المبسوطة على ركبته . وبادلكه بسنته ثم تركته .

وكان جان بارونين ، اخوه ، رئيس جمعية S. A. B. يعتمد بكلتا يديه على حافة طاولة عملة بالأوراق ، وكان يوضعه كله بغير الزائر بأن الجلسة كانت قد انتهت . كان نظره خارقاً ، كان كأنه مجرد . وكان يلتصق بالحق الصافي . وكانت عناية لاهوتان ثلثهما وجهه كله . وقد رأيت تحت هذا الذهب شفتين رقيقتين مشدودتين . تشبهان شفتي صوفي . وقلت لنفسني « عجبا ، إنه ريمى بارونين . » والتفت الى « المعلم الكبير » : انني إذ أنفحصه ، على ضوء هذا الشبه ، اترى فجأة على وجهه العذب ما لست أدريه من الجفاف والألم . من طابع الأسرة . وعدت الى جان بارونين .

كان لهذا الرجل بساطة الفكرة . ولم يكن باقياً منه سوى عظم ولحم ميت و « حق صاف » ومكر . حالة تلك حفيظة . حين يستولي « الحق » على انسان . وليس ثمة تعزيم يستطيع ان يطرده . ولقد كرّس جان بارونين كل حياته للتفكير به « حقه » : لا شيء آخر . ولو كان بدلاً مني حين كنت أشعر بصداق خفيف كلما كنت متحفاً ، لشر في صدغيه بنق اسم في ان يعني به . وكان ينبغي ألا أعمل أبداً على الإيمان في التفكير ، وألا أيلفت انتباهه الى وقائع غير سارة . الى مونه الممكن ، والى آلام الآخرين . ولا شك

في أنه قال لزوجته ، وهو على سرير الموت ، في تلك الساعة التي تواضع فيها الناس ، منذ سقراط ، على التعلق ببعض الكلمات الرفيعة ، قال لزوجته ، كما قال احد اخواني لزوجته التي كانت قد سهرت عليه اثنتي عشرة ليلة : « انتي لا اشكرك انت ، يا تيريز ، فانت لم تقومي الا بواجبك » . وحين يبلغ رجل هذا المبلغ ، فيجب ان ترفع القبة احتراماً له .

كانت عيناہ اللتان حدثت فيهما بدهشة شديدة ، تومثان لي بالانصراف . ولكني لم أنصرف ، وكنت بكل تأكيد قليل الخجل . ولكوني قد تأملت طويلاً في مكتبة الاسكوريال صورة لغيلب الثاني ، كنت اعلم ان المرء حين ينظر مواجهة الى وجه يتججر بالحق ، فان هذا التججر ينطفئ بعد لحظة ، ليخلف أثراً من رماد : وهذا الأثر هو الذي كان يهمني . .

كان باروتين يتمّ عن مقاومة جميلة . ولكن نظره انطلقاً فجأة ، وأصبحت اللوحة شاحبة . ما الذي كان باقياً ؟ عيناہ عمياوان ، والقلم الدقيق الشبه بحية ميتة ووجنتان . وجنتا صبي شاحبتان مستديرتان : كانتا تتمددان على قاشة اللوحة . ولم يسبق لعمال جمعية S. A. B. ان لاحظوهما قط : فانهم لم يكونوا يقفون في مكتب باروتين وقتاً كافياً لذلك . لقد كانوا ، اذ يدخلون ، يلتفون هنا النظر المربع كالجلدار . وقد كان الخسدان : من الخلف ، في منجى ، أبيضين رخوين . ترى ، كم كان على روجه ان تنق من الوقت لتلاحظهما ؟ عامين ؟ خمسة اعوام ؟ التي اتصور أنها ذات يوم ، اذا كان زوجها نائماً الى جانبيها ، وشعاع من القمر يلامس انفه . او حين كان يهضم في مشقة ، عند الظهر الفاطط ، مستلقياً فوق اريكة ، وعيناہ نصف مغمضتين . وبقعة شمس على ذقنه ، جرثومت على ان تنظر اليه مواجهة : فاذا هذا اللحم كسله يبرز من غير حماية ، متورماً ، رائلاً ، فاجراً بغموض ولا ريب في ان السيدة باروتين ، منذ ذلك اليوم ، قد تسلّمت القيادة .

خطوت بضع خطوات الى الخلف ، وشملت بنظرة واحدة جميع هذه الشخصيات الكبيرة : باكوم ، الرئيس هيبير ، الاخوين باروتين ، الخنرال

اوري كانوا قد اعتسروا جميعاً قيحات عالية ، وكانوا يلثقون ، يوم الأحد ، في شارع تورنويرد ، السيدة غرانيان ، زوجة المختار التي رأت القديسة سيسيل في نومها . فكانوا يوجهون لها تحيات احتفالية كبيرة ضاح مرها .

كانوا قد رُسموا بدقة كبيرة ، ومع ذلك ، فان وجوههم كانت ، تحت الريشة ، قد جردت الصعف الخفي لوجوه الرجال . كانت طامانهم واضحة كالخوف ، حتى اشدتها ضعفاً : عبثاً كنت ألتصق بها قرابة ما مع الشجر والحوان ، مع افكار الأرض او الماء . كنت اعتقد جيداً انهم لم يُحسبوا بهذه الضرورة ، وهم على قيد الحياة . ولكنهم حين انتقلوا الى الخلود ، عهدوا بأنفسهم الى رسام مشهور لكي يُحدث على وجوههم . بصورة خفية ، تلك العمليات من الجرف والتقب والسقي التي غيروا بها البحر والسهول حول مدينة بوفيل . وهكذا استعيدوا ، بمساعدة روتودا وبوردوران . « الطبيعة » كلها : خارج نفوسهم وداخلها . ان ما كانت هذه اللوحات المتعنة تبه لأنتظاري ، انما كان هو الانسان ، مفكراً به ثانية من قبل الانسان ، مع اجمل فتح حققه الانسان ، كزينة وحيدة : باقة « حقوق الانسان والمواطن » . انني معجب بحكم الانسان وسلطته ، من غير فكرة مبينة .

وكان سيد وسيدة قد دخلوا . وكانا يرتديان السواد وبماولان ان يتضاءلا ، وقد نوقفا مأخوذتين . على عتبة الباب ، وحسر الرجل رأسه بألية ، لفات المرأة منفصلة جداً :

— آه ، حساً !

واستعاد الرجل برودته بأسرع منها ، وقال بلهجة احترام :

— انه عهد برمته .

فقالت المرأة : — نعم ، انه عهد جدتي .

وخطوا بضع خطوات ، فالتقيا بنظر جان باروتين . واشت السيدة فاعرة القم . اما السيد ، فلم يكن معزراً : كان يبدو مبته متواضعة . ولا بد انه كان يعرف جيداً النظرات التي تبعث على الرهبة والجلسات المقصورة . وقد جذب

زوجته من ذراعها على مهل وقال :

— انظري الى هذا .

كانت بسمه ريمي باروتين تعود دائماً بالراحة والرضى على المتواضعين ،  
واقتربت المرأة فقرأت في اجتهاد :

« صورة ريمي باروتين ، المولود في بوفيل ، عام ١٨٤٩ ، استاذ في  
مدرسة الطب بياريس ، بريشة رونودا .

قال زوجها : — باروتين . من اكااديمية العلوم ، بريشة رونودا من  
« الاتسيتو » . ان هذا من « التاريخ ! »

فهزت السيدة رأسها ثم نظرت الى « المعلم الكبير » ، وقالت :

— كم هو جميل ، وكم يبدو ذكياً !

فأنى الزوج حركة واسعة ، وقال ببساطة :

— ان هؤلاء جميعاً هم الذين صنعوا بوفيل .

فقلت السيدة بلهجة عطوف :

— لقد احسنوا صنعاً بوضعهم جميعاً معاً . هنا .

كنا ثلاثة جنود نقوم بعملية مناورة في هذه القاعة الواسعة . وكان الزوج  
يفضحك احتراماً ، في صمت ، ثم رماني بنظرة قلقة وكف فجأة عن الضحك .

وقد استدرت وذهبت التزوع تجاه صورة اوليفيه بلافيي . وغمرني مشعة  
عذبة : الواقع اني كنت على حق . كان ذلك عجباً حقاً !

وكانت المرأة قد اقتربت مني . فقالت . وقد تشجعت فجأة :

— غاستون . تعال !

فأقبل الزوج نحونا . وتابعت المرأة :

ان هالك شارعاً باسم هذا الرجل : اوليفيه بلافيي . اتعرفه ، ذلك  
الشارع الصغير الذي يتسلق « الرابية الخضراء » . قبل ان تصل الى

جوكستابوفيل .

وأضافت بعد لحظة :

— انه لم يكن دمث الأخلاق .

— نعم . ولا بد انه كان يجد كثيراً من المحنجنين الشرسين .

كانت العبارة موجّهة اليّ . وقد نظر اليّ الرجل من زاوية عينه وأخذ بضحك في شيء من الصخب ، هذه المرة ، بيّنة متفطرسة منتظمة ، كما لو انه كان هو نفسه اوليفيه بلافيّني .

لم يكن اوليفيه بلافيّني بضحك . كان يصوب نحونا فكّه المنقبض ، وكان حلقومه بارزاً .

وحدثت لحظة صمت وانثناء ، ثم قالت السيدة :

— لكأنني به بهم بأن يتحرك .

فأوضح الزوج عمراعاة :

— كان تاجراً كبيراً لقفطن . ثم تعاطى السياسة ، وكان نائباً .

وكنت اعرف هذا . فتذّ عامين استشرت بشأته « القاموس الصغير لرجال بوفيل الكبار » من وضع الاب مورييه . وقد نسخت المقال .

« بلافيّني اوليفيه — مارتيا ، ابن السابق ، ولد ومات في بوفيل ( ١٨٤٩ —

١٩٠٨ ) درس الحقوق في باريس وحصل على درجة الليسانس عام ١٨٧٢ .

وقد تأثر جداً بفتنة « الكومون » التي أجبرته ، ككثير من الباريسيين ، على اللجوء الى فرساي تحت حماية المجلس الوطني ، فأقسم ، وهو ما يزال في

السنّ التي لا يعلم فيها الشبان الا باللذة ، « على ان يكرّس حياته لإعادة النظام »

وقد اوى بعده : فبمجرد عودته الى مدينتنا ، أسّس « نادي النظام » الشهير

الذي كان يجمع كل مساء ، لمدة سنوات طويلة ، اهمّ تجار بوفيل ومجهزيها .

وهو النادي الارستوقراطي الذي قيل عنه ، على سبيل الفكاهة ، انه كان أكثر

انغلاقاً من « الجوكي » ، احدث حتى عام ١٩٠٨ تأثيراً طيباً على مقدرات

مرفأنا التجاري الكبير ، وقد تزوج اوليفيه بلافيّني ، عام ١٨٨٠ ، ماري —

لويز باكوم ، صغرى بنات التاجر شارل باكوم (أنظر هذا الاسم) وأسّس ،

عند موت هذا الأخير ، دار باكوم — بلافيّني واولادهما . وبعد ذلك بقليل ،

الضمت الى السياسة العمالة ورشح نفسه للنيابة .

« وقد قال في خطاب له مشهور ، ان البلاد تعاني اخطر مرض : وهو ان الطبقة الموجهة لا تريد ان تنفرد بعد . فن الذي سيقود ، ايها السادة ، اذا كان اولئك الذين جعلتهم وراثتهم وتربيتهم وتجربتهم اجدر الناس بممارسة السلطة ينصرفون عنها بداعي التخلي او التعب ؟ لقد سبق ان قلت غير مرة : ان القيادة ليست حقاً للنخبة . بل هي واجبها الرئيسي . انني اتضرع اليكم ايها السادة : لينتدب مبدأ السلطة الى نصابه »

وقد انتُخب في الثورة الاولى يوم 4 تشرين الاول ١٨٨٥ ، واعيد انتخابه باستمرار منذ ذلك التاريخ . وقد ألقى بضعة خطب لامعة تميز فيها بفصاحة قوية صلبة . وكان في باريس عام ١٨٩٨ حين انفجر الاضراب المريع ، فانتقل بسرعة الى بوفيل حيث اصبح محرك المقاومة . واتخذ مبادرة التفاوض مع المضربين . ولكن هذه المفاوضات التي أملت لها روح مصالحة عريضة . قطعت بسبب وقعة جوكستابوفيل . ومعلوم ان تدخلنا سرياً قام به الجيش قد أعاد الهدوء الى النفوس .

وكان موت ابنته لوكتاف الذي دخل مدرسة البوليتكنيك وهو بعد فتي ، وكان يريد ان يجعل منه قائداً ضربة هائلة أصابت اوليفيه بلايني في الصميم . ولم ينهض بعد هذه الضربة . فمات بعد ذلك بعامين في شباط ١٩٠٨ .

مجموعات خطب : « القوى المعنوية » ( ١٨٩٤ . نافد ) « واجب العقاب »

( ١٩٠٠ . ألفت جميع خطب هذه المجموعة بصدد قضية دريفوس . نافد )

« ارادة » ( ١٩٠٢ . نافد ) وقد جُمعت بعد موته خطبه الأخيرة مع بعض

رسائل لأخصائه تحت عنوان Labor Improbus ( دار بلون ١٩١٠ ) في

علم الصور . ان له صورة ممتازة بريشة بوردوران في متحف بوفيل .

صحيح ايها صورة ممتازة وقد كان اوليفيه بلايني يعمل شارباً صغيراً

اسود . وكان وجهه الزيتوني يشبه قليلاً وجه موريس باريس . ولا شك ان

الرجلين قد تعارفا . فقد كانا يجلسان على مقعد واحد . ولكن نائب بوفيل لم

يكن يملك لا لبالية رئيس « جامعة الوطنيين » . كان صليبا كالمرأوة ، وكان ينبع من اللوحة كما ينبع شيطان من قمحه . وكانت عيناه تغدحان شرراً : كان اليؤبؤ اسود والقرنية محمرة . وكان يفرص شفثيه الصغيرتين الريانتين ويشد يده اليمنى على صدره .

لكن أفلقتني : هذه الصورة ! لقد كان بلاهبي يبدو لي أحياناً مفراط الطول ، وكان أحياناً أخرى يبدو لي مفرط القصر . أما اليوم ، فاني اعرف ما كان امامي

كنت قد علمت الحقيفة وأنا اقلب حريدة « ساتيريك » برفيلوا . وكان عدد يوم ٦ تشرين الثاني ١٩٠٥ مخصصاً لبرمه لبلافني . وقد مثله على الملاط صعباً . معلماً يعرف الاب كومب . مع هذه الفدلكة : « قل الأسد » . وكان كل شيء يتصح منذ الصلحة الاولى : كان طول اولفيه بلاهبي متراً وثلاثة وخمسين . وكانوا يهزأون بقامته القصيرة وصوته الضفدعي الذي جعل مجلس النواب اكثر من مرة . ينفجر ضاحكاً . وكانوا ينهونه بأنه يضع اكعاً من الكاوتشوك لتعليه وبالمقابل . كانت السيدة بلافني . وهي من اسرة باكوم حصاناً وبضيف المؤرخ قوله . « وهذا يعني ان ضعفه يساوي نصفها » . متر وثلاثة وخمسون ! نعم : ان بوردوران كان . بعناية فائقة . قد احاطه بجميع تلك الاشياء التي لا تعرضه للتصغير ، مقعد منخفض محشو ، اريكة واطلة . رف . طاولة فارسية صغيرة . على انه منحه القامة نفسها التي كان يملكها جاره جان بارونين ، وكانت للوحنتين الأبعاد نفسها . وكان ينتج من ذلك ان الطاولة الفارسية الصغيرة المرسومة في اللوحة الاولى كانت في مثل كمر الطاولة الخائفة المرسومة في الأخرى . وان المقعد المنخفض المحشو كان بمحاذاة كتف بارونين . وكانت العين تقوم بالمقابلة بصورة غريزية . وكان هذا مصدر الزعاجي .

أما الآن . فان بي رغبة لتضحك متر وثلاثة وخمسون ! لو اردت ان اتحدث الى بلافني . لوجب علي ان اتعجب او انطوي على الركبتين . ولم اكن



لأدهش بعد أن يرفع انفه في الهواء بمثل هذا التحدي : ان قدّر الرجال الذين يملكون هذه القامة بقرّر دائماً على بعد بضع بوصات فوق رؤوسهم .  
يا لقوة الفن المعجبة ! لن يخلد شيء من هذا الرجل القصير ذي الصوت الثاقب ، الا وجه مهادد ، وحركة رائعة وعينان داميتان تشبهان عيني الثور .  
الطالب المذعور بسبب « الكومون » ، النائب القصير الهادر : هذا ما اخذه الموت ولكن الذي خلد ، بفضل بوردوران ، هو رئيس « نادي النظام » وخطيب « القوى المعنوية » .

— اوه ! يا « ليبو » الصغير المسكين !  
كانت السيدة قد اطلقت صرخة مخنوقة : فقد كان تحت صورة اوكتاف بلافيني ، « ابن السابق » ، عبارة قصيرة خطتها يدٌ تقية :  
« مات في مدرسة البوليتكنيك عام ١٩٠٤ »

— لقد مات ! شأنه في ذلك شأن الابن ارونديل . كان له مظهر الذكاء ، وكَم شق ذلك على امه . دون ريب ! والحق أنهم يرهقونهم جداً في تلك المدارس الكبيرة . ان العقل يعمل ، حتى في اثناء النوم . اما انا ، فأحب كثيراً هذه القبعات ذات القرنين ، انها توحى بالاناقة . هل هي تُسمى « الكاسوار » ؟  
— لا . ان قبعات « الكاسوار » يلبسها سكان سان سير .

وتأملت بدوري طالب البوليتكنيك الذي مات صغيراً ، والحق ان بشرته الشمسية وشاربه المفكّر يكفيان لإيقاف فكرة موت قريب . والواقع انه كان قد تنبأ بمصيره : فان نوعاً من الاستسلام يبدو في عينيه المشرقتين اللتين كانت تنفذان الى اللعيد . ولكنه في الوقت نفسه ، كان يرفع رأسه عالياً ، وكان بهذا الثوب العسكري بمثل « الجيش الفرنسي » .

وردّد مقطوعة ، طالب في البوليتكنيك قد مات : اي شيء ادعى الى الحزن ؟

وسرت على مهل في الرواق الطويل ، محبباً من غير ان افف الوجوه النبيلة التي كانت تخرج من الظل : السيد يوسوار . رئيس المحكمة التجارية ، السيد

فابي رئيس مجلس ادارة مرفأ بوفيل المستقل ، السيد بولانج ، التاجر مع أسرته ، السيد رانوكان ، مختار بوفيل . السيد دولوسيان ، المولود في بوفيل ، سفير فرنسا في الولايات المتحدة وشاعر ، مجهول في ثياب المحافظ ، الام سانت ماري - لويز ، مديرة الميّم الكبير ، السيد والسيدة تيريزون ، السيد ثيوست - غورون ، المدير العام لمجلس الحكاه ، السيد بوير المدير الرئيسي « لتسجيل البحري » ، السادة بربون ، مينيت ، غرولو - لوفيفر ، الدكتور بان وروجه ، بوردوران نفسه ، مرسوماً بريشة ابنه ييار بوردوران . نظرات شفافة باردة ، ملامح دقيقة ، افواه رقيقة ، السيد بولانج كان ضخماً وصارماً ، الام سانت - ماري - لويز ذات ثقي بارع ، السيد ثيوست - غورون كان قاسياً على نفسه قسوته على الآخرين . اما السيدة تيريزون فقد كانت تقاوم مرضاً عميقاً من غير ان تهين . وكان فيها المتعب الى ابعد حدّ يعبر عن عذابها تعبيراً كافياً . ولكن هذه المرأة الثقية لم تقل قط « انني متألّة » . وكانت تقاوم وتنتصر : كانت تشكل جداول طعام وترثس جمعيات خيرية . وكانت احياناً ، وهي في وسط عبارة من العبارات ، تسبل جفنيها على مهل ، فتغادر الحياة وجهها . ولم يكن هذا الاسترخاء يدوم اكثر من لحظة ، فقد كانت السيدة تيريزون سرعان ما تفتح عينيها وتستأنف عبارتها . وكانوا يتمتعون في المشغل : « مسكينة السيدة تيريزون ! انها لا تشكو ابداً » .

كنت قد عبرت صالة بوردوران - روتودا بكل طولها . واستندرت ، وداعاً ابنتها الزنيقات الثاعمة في معابدك المرسومة ، وداعاً ابنتها الزنيقات الجميلة ، موضع فخرنا وسبب وجودنا ، وداعاً ايها « القذرون » .

### اللاتين

انقطعت عن تأليف كتابي عن رولبون ، انتهى الأمر انني لا « أستطيع » بعدُ ان اكتبه . فما الذي سأصنعه غيائي ؟ كانت الساعة الثالثة . وكنت جالساً على طاولتي . وكنت قد وضعت على

جاليي رزمة الرسائل التي سرقها في موسكو ، وكنت اكتب :  
« اهتم البعض بنثر عدد من الاشاعات المؤذية . ولا بد ان السيد دورولبون  
قد وقع في هذه المناورة مادام قد كتب لحفيده ، بتاريخ ١٣ أيلول ،  
انه قد كتب وصيته »

كان التركيز حاضراً : وبانتظار ان اسجله نهائياً في الوجود التاريخي ،  
كنت اعبره حياتي . وكنت أحسّ به حرارة خفيفة في جوف معدتي .

وخطر لي فجأة اعتراض "لن يقصّر الناس في توجيهه اليّ" : كان رولبون  
بعيداً عن ان يصارح بالحقيقة حفيده الذي كان يريد ان يستغله ، اذا فشلت  
قضيته ، كشاهد نفي بالقرب من بول الاول . فقد كان ممكناً جداً ان يكون  
قد اخترع قصة الوصية ليظهر بمظهر الساذج .

ولكن هذا اعتراض "نافه لا يثبت شيئاً . غير انه يكفي مع ذلك لإغراقي  
في حلم شرس . لقد تمثلت فجأة الخادم السمينة التي تعمل في مطعم  
« شي كميل » ، ورأس السيد اشيل الشارد ، والقاعة التي احسنتي فيها  
منسياً . متروكاً في الحاضر . وقلت لنفسني في ضجر :

« كيف استطيع ، انا الذي لم تكن لي قدرة حفظ ماضي بالذات ،  
ان اؤمل امكان اتقاذ ماضي رجل آخر ؟ »

واخذت ريشتي وحاولت ان اعود الى العمل ، وكان لديّ ركام  
كبير من هذه التأملات حول الماضي والحاضر والعالم . ولم اكن اطلب  
الا شيئاً واحداً : ان يتركوبي أنني كتابي بهدوء .

ولكن حين وقع بصري على دفتر الورق الأبيض ، أخذت بمظهره ،  
فقيت ، وريشتي في الهواء ، أتأمل هذا الورق الباهر : كم كان قاسياً  
ولامعاً . كم كان حاضراً ! لم يكن فيه شيء الا من الحاضر . ولم تكن الأحرف  
التي خطبتها عليه قد جفت بعد ، ومع ذلك فقد كفتت عن ان تخصني .

« اهتم البعض بنثر الاشاعات المؤذية » ...

كنت قد فكرت بهذه العبارة وتأملتها ، وقد كانت اولاً بعض نفسي .

أما الآن . فقد حُفرت في الورق . فهي تفت كتلة صدي . وأنا لا أنرمها بعد . بل لم يكن بوسعي أن أفكر بها ثانية . كانت هنا . قبالي . وعشاً ما التمس فيها إشارة للمصدر الأصلي . إن بوسع كل إنسان آخر أن يكتبها . ولكني ، أنا ، لم أكن متأكداً أنني كتبتها . والأحرف الآن . لم تكن بعد لتلعب ، بل كانت جافة . كان هذا أيضاً قد اختفى : لم يكن باقياً بعد شيء من الناعمة الوقت .

وألقيت نظرة فلقية فيما حولي : حاضراً ، ولا شيء غير الحاضر . أثاث خفيف وصلب . مليئة بخاضرها . طاولة ، سرير . خزانة ذات مرآة — وأنا نفسي . كانت طبيعة الحاضر الحقيقية تكشف عن نفسها : لقد كانت ما هو كائن . وكل ما لم يكن حاضراً ، غير كائن . إن الماضي لم يكن كائناً . على الإطلاق . لا في الأشياء ، حتى ولا في فكري . صحيح أنني ، منذ وقت طويل ، كنت قد فهمت أن ماضي قد فاتني . ولكنني أظن . حتى ذلك الحين . أنه انسحب بكل بساطة . خارج متناولي . إن الماضي في نظري لم يكن إلا وضعاً في الشئ : كان طريقة أخرى للوجود . حالة من العطفة واللاعمل ، إن كل حدث ، حين ينتهي دوره ، يدلف من تلقاء نفسه إلى علية ويصبح حدثاً شرفياً : فاشتق أن يتخيل المرء العدم ! أما الآن ، فقد كنت أعرف : إن الأشياء هي برمتها ما تبدو عليه — و « خلفها » ... لا شيء .

واستغرقتني هذه الفكرة بضع دقائق أخرى . ثم قمت بحركة كتفين عنيفة لأتحرك وجلبت نحو ي دفتر الورق .

« ... إنه قد كتب وصيته » .

وفجأة غرمني اشتتاز هائل ، وسقطت الريشة من يدي وهي تبصق حبراً . ما الذي حدث ؟ هل كنت أحس « الغثيان » ؟ لا ، لم يكن الأمر كذلك ، فقد كان للفرقة هينها الحانية اليومية . وكانت الطاولة تكاد تبدو لي أثقل فقط . وأسلمت ، وقلم حبري اكتشف . كل ما في الأمر أن السيد دورولبون قد مات للمرة الثانية .

لقد كان الساعة هنا ، في ، هادئاً وحاراً ، وكنت أحس أنه بين القبة  
والقبة ، يتحرك. لقد كان حياً جداً ، أكثر حياةً في نظري من « العصامي »  
أو من صاحبة مقهى « رانديهو دي شامينو » . لاشك في أنه كانت له أهواؤه  
وكان يمكن أن يبقى بضعة أيام من غير أن يظهر ، ولكنه كان غالباً ، في  
أوقات جميلة خفية ، يخرج أفنه ، كالكيوشي المختص بعلم فباس الرطوبة الجوية ،  
فكنت ألمح وجهه الكامد ونعديته الأزرقين وحتى حين لم يكن يظهر كان  
يقل على قلبي ، وكنت أحسني ممثلاً .

أما الآن . فانه لم يكن باقياً منه شيء . كما لم يكن باقياً على هذه الآثار من  
الحبر الخاف ، أكثر من ذكرى الناعها القريب . كانت تلك غلطتي : إن  
الكلمات الوحيدة التي كان ينبغي ألا تقال ، نطقت بها : قلت إن الماضي  
لم يكن موجوداً ودفعة واحدة ، في غير صخب ، عاد السيد دورولبون الى  
عدمه .

وتناول رسائله في يدي ، وجسنتها في نوع من اليأس ، وقلت لنفسني :  
« انه هو ، انه مع ذلك هو الذي رسم هذه العلامات ، واحدة واحدة .  
لقد استند الى هذا الورق ، ووضع إصبعه على الصفحات ليمنعها من ان تنقلب  
تحت ريشته . »

بعد فوات الأوان . هذه الكلمات لم يكن لها من معنى بعد . لم يكن ثمة ما هو  
موجود غير رزمة ورق اصفر كنت أشده بين يدي . صحيح انه كان ثمة تلك  
القصة المعقدة : حفيد دورولبون الذي اغتاله عام ١٨٩٠ شرطة القيصر ،  
وأوراقه المصادرة والمقولة الى مركز « الاضبارات » السرية ، والمقولة بعد  
مئة وعشر سنوات من قبل السوفييات الذين استولوا على الحكم . الى مكتبة  
الدولة حيث سرقها عام ١٩٢٣ . ولكن ذلك لم يكن يبدو حقيقياً ، ولم أكن  
أحتفظ بأية ذكرى حقيقية من هذه السرقة التي رتكبتها انا بالذات . ولعليل  
وجود هذه الاوراق في غرفتي ، لم يكن صعباً العثور على مئة قصة أخرى أجدر  
التصديق . إنها كلها ، تجاه هذه الاوراق الخشنة ، تبدو جوفاء خفيفة

كالقفايع . فبدلاً من ان أعتمد عليها ليتم الاتصال بيني وبين رولبون ، سيكون من الأفضل على الفور ان أتمجه الى الطاولة الدائرية . ان رولبون لم يكن موجوداً بعد . على الإطلاق . ولئن كان قد بقي منه بعض العظام ، فإنها تكون موجودة لذاتها ، مستقلة كل الاستقلال . وهي ليست بعدُ إلا قليلاً من الفوسفات وكربونات الكلس مع أملاح وماء .

وقت محاولة أخيرة ، فرددت كلمات مدام دوجانلي التي كنت أتذكر بها التركيز عادة : « وجهه الصغير المجعد ، التغليف النقي ، المنقط بالجذري ، كان ينبض بنخب فريد يقفز الى العينين مهما بذل من جهد لإخفائه » .

وظهر لي وجهه بوداعة : وأتفه المقرن ، وخداه الأزرقان ، وبسمته . وكنت استطيع ببسر ان أرسم ملامحه ، وربما بسهولة أكثر من الماضي . غير ان ذلك لم يكن بعدُ إلا صورة في " تخيلاً " . وتنهدت ، وتداعيت للانقلاب الى وراء ، على مسند كرسي . براودني شعور غريبة لا يُحتمل .

دقت الساعة الرابعة . ها قد مرت ساعة على وجودي هنا ، متدلي الذراعين فوق كرسي . لقد بدأ الغلام يهبط . وباستثناء ذلك لم يتغير شيء في هذه الغرفة : إن الورق الابيض ما زال على الطاولة ، قرب قلم الحبر والمحبرة ... ولكنني لم اكتب بعدُ انداً على الورقة المبدوءة . ولن أقصد بعدُ أبداً دار الكتب ، سالكاً شارع " الموتليه " وجادة " لارودوت " ، لأطالع فيها الاضبارات

إن بي رغبة لأن أقفز على قدمي وأخرج ، وأن أفعل أي شيء لأنشغل ولكن اذا رفعت اصبعاً ، اذا لم أبق هادئاً كل الهدوء ، فأنا أعرف جيداً ما سيحدث لي . انني " لا أريد " ان يحدث لي بعد . إن ذلك سيأتي دائماً قبل الأوان . انني لا أنحرك ، وأنا أقرأ بآلية ، على ورقة الدفتر ، المقطع الذي تركته غير ناجز :

« اهتم البعض بنشر الإشاعات المؤذية ولا بد ان السيد دورولبون قد وقع

في هذه المناورة ، ما دام قد كتب لحفيده ، بتاريخ ١٣ ايلول ، أنه قد كتب وصيته .

لقد انتهت قضية رولبون الكبرى ، كما تنتهي عاطفة كبرى مهووسة .  
فبني ايجاد شيء آخر . حين كنت في شانغهاي ، منذ بضعة اعوام ، خرجت ذات مرة فجأة من حلم ، وكنت في مكتب مرسييه ، فاستيقظت . ثم حلمت حلمًا آخر ، كنت فيه اعيش في بلاط القياصرة ، في قصور بلغ من برودتها أن رواسب من الثلج كانت تشكل في الشتاء ، فوق الأبواب . وأنا اليوم أستيقظ تجاه دفتر من الورق الأبيض . ان المشاعل ، والأعياد المثلجة . والبزات الرسمية ، والاكتاف الجنبلة الراعشة ، قد اخضت كلها . وقد بقي بدلًا منها شيء ، ما في الغرفة الدافئة ، شيء لا أريد ان أراه .

كان السيد دورولبون شريكى : كان بحاجة إليّ ليكون ، وكنت بحاجة إليه حتى لا أحسّ بكوني . كنت انا أقدم المادة الخام . هذه المادة التي كان عليّ ان أعيد بيعها ، والتي لم أكن أدري ماذا أصنع بها : الوجود ، «وجودي» . كانت مهمته هو ان يمثل . كان يقف قبالي ، وكان قد استولى على حياتي لكي يمثل لي حياتي . ولم أكن ألاحظ بعد أني كنت موجوداً ، لم أكن موجوداً بعد فيّ أنا ، بل فيه ، كنت آكل ، وله كنت أنفّس ، وكان لكل حركة من حركاتي معناها في الخارج ، هناك ، قبالي تماماً ، فيه ؛ لم أكن أرى بعد يدي التي كانت ترسم الحروف على الورق حتى ولا الجملة التي كنت قد كتبتها . ولكن ، خلف ، فيها وراء الورقة ، كنت أرى المركز الذي كان قد طالب بهذه الحركة التي كانت تمدد الوجود وثبته . اني لم أكن إلا وسيلة لجعله يعيش ، فقد كان سبب وجودي ، وكان قد حررني من نفسي . فما الذي سأعمله الآن ؟

المهم ألا أنحرّك ، ألا أنحرّك .. آه !

إن حركة الكتفين هذه ، لم أستطع أن أمسكها ...

إن الشيء الذي كان ينتظر ، قد تبّه ، فانقض عليّ ، واذب فيّ ، فأنا

ممتلئ به . انه يتحرك . انها ملاساة في كل مكان تدوب وتلاشي . بعلوبة كبيرة . إن في في ماء مزيداً ، وأنا أبتلعه فيسيل في حلفي ، ويداعبي - وها هوذا يولد من جديد في في . إن في في دائماً وأبداً بركة صغيرة من الماء المبيض - الحففي - يلامس لساني . وهذه البركة هي ايضاً أنا . وكذلك اللسان . والحقي هو أنا .

إنني أرى يدي التي تفتح على الطاولة . إنها تعيش - وهي أنا . إنها تفتح ، وتبسط الأصابع وتومئ . انها مقلوبة على ظهرها . وهي تُربني بطنها السمين . إنها تشبه حيواناً مقلوباً ، أصابعها هي أرجلها . وأنا أنسلى بتشريكها . بسرعة كبيرة ، كأرجل سرطان وقع على ظهره . السرطان ميت : والأرجل تتكوى وتترند الى باطن اليد . وأنا أرى الأظافر - الشيء الوحيد الذي لا يحيا في . ومرة اخرى ، تنقلب يدي ، وتبسط على بطنها ، فهي توليني الآن ظهرها ، ظهر فقفي . ملتصع بعض الشيء . فكأنه سمكة ، لولا الزغب الأحمر عند ملتقى الاصابع . إنني أحس يدي . انها هذان الحيوانان اللذان يتحركان في نهاية ذراعي . وتحك يدي إحدى هاتين الرجلين ، يظفر رجل أخرى ، وأحس ثقلها على الطاولة التي ليست إني . انه طويل ، طويل ، هذا الشعور بالثقل ، وهو لا ينقضي . وليس ثمة سبب لكي ينقضي . انه ، لطول وقته ، يُحتمل .. وأسحب يدي ، وأضعها في جبي . ولكني أحس فوراً ، عبر القماش ، حرارة فمخذي . وسرعان ما انشل يدي من جبي . وأدعها لتدلى على مستد الكرسي . وهأنذا الآن أحس ثقلها في طرف ذراعي . انها تثقل قليلاً ، مترخية . انها كائنة . ولا ألح : انني حينما وضعتها ، فانها مستمرة في الكينونة ، واستمر في الاحساس بأنها كائنة ، انني لا استطيع ان احذفها ، ولا ان احذف بقية جسمي ، الحرارة الرطبة التي تلوّث قبضي ، ولا هذا الشحم الحار الذي يدور بكسل ، كما لو أنه يحرك بالملقعة ، ولا جميع هذه الأحاسيس التي تنتزه هنا في الداخل ، تروح ونحي ، وتصعد من مخاصرتي الى إبطني او تأسن ببطء ، من الصباح حتى المساء ، في ركنها المعتاد .



وأهض متفضلاً : ليتني كنت أستطيع الكف عن التفكير ، اذن لكان ذلك أفضل . ان الافكار هي أنفه شيء في الدنيا . أنفه من لحم الجسد . إنها تمتلئ بلا انتهاء وتختلف مذاقاً عجيماً . ثم ان هناك الكلمات ، داخل الافكار ، الكلمات غير الناجزة ، الرسوم الابداعية للعبارة التي تعود دائماً وأبداً : « يجب ان انتهم ... مات ... السيد دو رول ميت ... انا لست ... اني ... » كفى ، كفى ، وذلك لا ينتهي ابداً . وهذا أسوأ من الباقي لأنني أحسني مسؤولاً ومتواطئاً . مثلاً ، هذا النوع من الاجترار المؤلم : « انني كائن » انما أنا الذي أعذّيه . انا . إن الجسم شيء يعيش وحده بمجرد ان يبدأ . أما الفكرة « فأنا » الذي يكملها ، يدرجها : انني كائن . وأنا افكر بأنني كائن . اوه ، يا للأنيوب الحارزوني ، هذا الإحساس بالكيونة — أدرجه ، بكل تمهل ... ليتني أستطيع الامتناع عن التفكير ! وأحاول ، فأنجح : وبغيتل إليّ ان رأسي يمثل دُخاناً ... وها ان الأمر يعود من جديد : « دخان ... عدم التفكير ... لا أريد ان افكر ... أفكر بأنني لا أريد ان افكر . يجب ألا افكر بأنني لا اريد ان افكر . فهذا ايضاً تفكير . » أترانا لن ننتهي أبداً ؟

إن فكرتي هي « أنا » : من اجل هذا لا أستطيع ان اتوقف . انني كائن لأنني أفكر ... ولا أستطيع الامتناع عن التفكير . في هذه اللحظة بالذات — وهذا فظيع — اذا كنت كائناً ، فذلك « لأنني » استطيع ان أكون . انا ، « انا » الذي أسحب نفسي من العدم الذي أنشده : فالكرهية ، والنفور من ان اوجد ، هما طريقتان لأن « أوجد » نفسي ، لأن اغرق في الكيونة . إن الافكار تولد من خلفي كالديوار ، وانا أحسها تولد خلف رأسي ... فاذا استسلمت ، فإنها ستأتي الي قدّام ، بين عيني — وأنا استسلم دائماً ، فتكبر الفكرة وتكبر ، وها هي ذي هائلة تملأني برمتي وتجدد كيونتي .

إن لعابي مسكّر ، وجسمي دافئ ، انني أحسني نفهاً . وهذه مُدبني موضوعة على الطاولة . فلأفتحها . ولم لا ؟ إن في هذا تغييراً ، على أي حال . وأضع يدي على دفتر الورق وأطعن راحتي بالمدينة طعنة جيدة . ولقد كانت

الحركة مفرطة العصبية ، ولذلك انزلت الشفرة ، فكان الجرح سطحياً . وتدفق الدم . وبعد ذلك ؟ ما الذي تغير ؟ ومع ذلك ، فأنا أنظر برضى ، على الورقة البيضاء ، عبر مسطور كتبها الساعة ، الى هذه البركة الصغيرة من الدم التي كتبت أنغيراً عن ان تكون انا . اربعة اسطر على ورقة بيضاء ، لطفة دم ، إن هذا هو ما يشكل ذكرى جميلة . وينبغي ان اكتب تحتها : « هذا اليوم ، عدلت عن تأليف كتابي عن المركيز دورولبون » .

هل تراني سأعني بتضميد يدي ؟ إنني أتردد . وأنظر الى مسيل الدم الرتيب . هوذا يتجمد . لقد انتهى الأمر . إن بشرتي تبدو صدئة حول الجرح . ونمت الجلد ، لا يبقى إلا إحساس صغير كالأحاسيس الأخرى ، وربما كان أنفقه منها .

هذه هي الساعة تدق النصف بعد الرابعة . وأنهض ، فيلتصق قبصي البارد بلحمي . وأخرج . لماذا ؟ الحق اني افعل ذلك لأنه ليس ثمة من الاسباب ما يدعو الى عدم فعله . حتى ولو بقيت ، حتى ولو بقيت صامتاً في إحدى الزوايا ، فإني لن أنسى نفسي . سأكون هناك ، وسأقفل على الأرض الخشبية . انفي كائن .

وأبتاع صحيفة في هذه الاثناء . خبر هام . لقد عُثر على جسم لوسيان الصغيرة ! رائحة خبر ، والورق يندعلك بين أصابعي . لقد لاذ المجرم القذر بالفرار . والطفلة قد هتكت . وقد عُثر على جسمها ، وأصابعها متشنجة في الوحل . وأكوم الجريدة بشكل كرة ، أصابعي متشنجة على الجريدة ، رائحة خبر ، يالهي ، إن الأشياء كائنة اليوم بشكل قوي . لقد هتكت الصغيرة لوسيان . وغنقت . ما زال جسمها كائناً ، ولحمها مشخناً . « انها » غير كائنة بعد . يداها . انها غير كائنة بعد . البيوت . انفي أمشي بين البيوت ، انفي بين البيوت ، متصباً على الأرض المبلطة ، البلاط تحت قدمي كائن ، والبيوت تنطق علي ، كما ينطق الماء علي ، انفي كائن . انفي كائن ، موجود ، أفكر فانا اذن موجود ، انفي كائن لأنني أفكر ، لماذا تراني أفكر ؟ انفي لا أريد أن

افكر بعد ، انني كائن لاني افكر بانني لا اريد ان اكون ، افكر بانني ... لاني ..  
أف ! وأهرب ، لقد هرب القدر ، جسمها المهتوك . لقد أحسنت بذلك اللحم  
الآخر الذي كان يتراق في لحمها . انني ... هوذا ... مهتوكة . إن رغبة هتك  
عذبة دامية تأخذني من الخلف . عذبة جداً ، خلف أذني ، والاذنان نهربان  
خلفي . والشعر الأحمر ، انه احمر على رأسي ، عشب مبلل ، عشب احمر ،  
أهذا انا بعد ؟ وهذه الجريدة ، أهي أنا بعد ؟ الإمساك بالجريدة كينونة ضد  
كينونة ، الاشياء تكون بعضها ضد بعض ، وأترك هذه الجريدة . وينشق  
اليث . انه كائن ، وأسير أمامي ، بمحاذاة الجدار ، بمحاذاة الجدار الطويل  
انا كائن ، امام الجدار ، خطوة ، الجدار كائن أمامي ، واحد اثنان ، ورائي ،  
اصبع يحك في سروالي يحك . يحك ويسحب اصبع الصغيرة الملوثة بالوحل ،  
الوحل على اصبعي يخرج من المجرى الموحد ويسقط على مهل ، على مهل ، يجمع ،  
يحك بأضعف مما تحك أصابع الصغيرة التي كانت تفتق . المجرم القدر ،  
كانت تحك الوحل ، الارض بأضعف . الاصبع يتراق على مهل ، الرأس  
يسقط اولاً ويداعب متدحرجاً حاراً لئلا يفخذي ، ان الكينونة رغبة تندرج  
وتهتز . انا أهتز بين البيوت . انا كائن ، موجود ، افكر فانا اذن أهتز ،  
انا كائن ، الوجود سقط ، لا يسقط ، يسقط ، الإصبع يحك الشباك ،  
الوجود شيء ناقص ، غير كامل . السيد السيد الجميل كائن . السيد يشعر بأنه  
كائن . كلا ، ان السيد الجميل الذي يمر ، مزهواً رقيقاً كالليلاب الارجواني ،  
لا يشعر بأنه كائن ، تنفتح ، إن يدي المجروحة تؤلمني ، كائنة ، كائنة ، كائنة .  
إن السيد الجميل كائن وسام جوقة الشرف ، كائن شاربين ، هذا كل شيء .  
لا بد ان المرء سعيد جداً بالآ لا يكون إلا وسام جوقة الشرف ، وإلا  
شاربين ، والباقي لا يراه احد ، انه يرى طرفي شاربيه المقرنين من جهتي الأنف  
كلتاهما ، انني لا افكر ، فانا اذن شاربين . انه لا يرى جسمه الهزيل ، ولا  
قدميه الكبيرتين ، ومن يبحث في جوف البنطلون يجد حتماً زوجاً من الملاحم  
الرمادية الصغيرة . انه يحمل وسام جوقة الشرف ، إن القدرين يحس لهم ان

يكونوا : « اني كائن لأن هذا حقي ، يحق لي ان اكون ، إذن يحق لي الا افكر : ويرتفع الإصبع . اتراني سوف . ؟ أداعب في تفتح الاغطية البيضاء اللحم الأبيض المتفتح الذي يعود فيرتخي بعذوبة ، والمس رطوبات الإبط المزدهرة ، إكسبر اللحم وسائله وإشراقه ، وأدخل كينونة الآخر ، المخاطبات الحمراء ، رائحة الكينونة العذبة ، وأحسني كائناً بين الشفاء الرقيقة المبللة ، الشفاء الحمراء بالدم الأصفر ، الشفاء النابضة التي تتشاب مبللة بالكينونة ، مبللة بصديد فاتح ، بين الشفاء المبللة المسكرة التي تدعم كالعيون ؟ جسمي المحمي الذي يعيش ، اللحم الذي ينقل ويحمض على مهل سائل ، يعض قشدة ، اللحم الذي يعض ، يعض يعض ، ماء لحمي العذب المسكر ، دم يدي ، اني اتوجع وجعاً عذباً في لحمي المثخن الذي يمشي ، أمشي ، افر ، اني انسان قدر ذو لحم مثخن ، المثخن كينونة لهذه الجدران . اشعر بالبرد ، اخطو خطوة . اشعر بالبرد ، خطوة ، انعطف الى اليسار ، ينعطف الى اليسار ، يفكر بأنه ينعطف الى اليسار ، مجنون هل انا مجنون يقول انه غشى ان يكون مجنوناً ، الكينونة . هل ترى ايها الصغير في الكينونة ، يتوقف . الجسم يتوقف ، يفكر انه يتوقف ، من اين هو قادم ؟ ما الذي يفعله ؟ ويمضي من جديد . خائفاً ، خائفاً جداً ، انسان قدر . الشهوة كالضباب . الشهوة الاشتزاز ، يقول انه مشغول من ان يكون ، ايكون مشغولاً ؟ متعب من اشترازه من ان يكون . ويعدو . ما الذي يأمله ؟ يعدو هارباً ، ألبقي بنفسه في الخوض ؟ انه يعدو ، والقلب ، القلب الذي يحقق عيد . القلب كائن ، والساقان كائنان . والتفكر كائن ، انها كائنة وهي تعدو . وتلهث ، وتحفر بعذوبة ، تنهر وتبهمني ، يقول انه ينهر ، ان الكينونة تأخذ افكاري من الخلف ، وعلى مهل تفتحها « من الخلف » ، اني اؤخذ من الخلف ، وأفسر من الخلف على التفكير ، اذن على ان اكون شيئاً ما يلهث خلفي ففاتيح كينونة خفية . انه فقاعة ضباب شهوة ، انه ممتنع امام المرأة كالميت ، ان رولبون ميت ، وانظروا روكائنان ليس ميتاً ، ليني يغمى علي : يقول انه بود لو

ينسى عليه ، ويمدو ، يمدو الفضولي ( من الخلف ) من الخلف « من الخلف »  
لومي الصغيرة التي هوجمت من الخلف ، وهتكت بالكينونة من الخلف ،  
انه يطلب الرحمة ، ينجل من طلب الرحمة ، الشفقة ، النجدة ، النجدة اذن  
انا كائن ، ويدخل « حانة المارين » ، المرايا الصغيرة في الماخور الصغير ،  
انه ممنوع الوجه في المرايا الصغيرة بالماخور الصغير الرجل الطويل الاحمر الشعر  
الذي يتداعى للسقوط على المقعد الصغير ، القونوغراف يقضي ، يكون ، كل شيء  
يدور ، القونوغراف كائن ، القلب يتخفق : دوري ، دوري يا سواثل الحياة ،  
دوري مجلدة . سواثل لحمي ، عذوبات ... القونوغراف .

When the low moon begins to beam  
Every night I dream a little dream

ان الصوت يظهر فجأة ، خشناً أبعد ، ويتلاشى العالم ، عالم الكينونات .  
ان هذا الصوت هو لامرأة من لحم ، لقد غشت امام اسطوانة ، وهي في اجمل  
زيبتها ، وكانوا يسجلون صوتها . المرأة : كانت كائنة مثلي ، مثل روليون ،  
ليست لديّ رغبة في معرفتها . ولكن هناك هذا . ان المرء لا يستطيع ان يقول  
بأن ذلك كائن . ان الاسطوانة التي تدور كائنة ، والنغم الذي يضربه الصوت ،  
فترتوش ، كائن ، وقد كان الصوت الذي أثير في الاسطوانة . وانا الذي  
أصغي ، كائن . كل شيء ممثلي ، الكينونة في كل مكان ، كثيفة وثقيلة وعذبة .  
ولكن فيما وراء هذه العذوبة ، التي لا تدرك ، القريبة كل القرب ، البعيدة  
مع الأسف . الفتية الغامضة الهادئة ، كانت ثمة .. تلك الصرامة .

الثلاثاء

لا شيء . كائن .

الأربعاء

هناك دائرة شمس على الخوان الورقي . وفي الدائرة ذبابة تجر نفسها ،

عذرة ، وتندفأ وتحك رجلها الاماميتين احدهما بالأخرى . سأؤدي لها  
خدمة ان اسحقها . انها لا ترى هذا الإصبع العملاق الذي يلتصع زغبه في  
الشمس . لا تراه يتنجس . وصاح العصامي :  
- لا تقتلها ، يا سيدي !

وتنفجر . وتخرج امعاؤها الصغيرة البيضاء من بطنها . لقد خلصتها  
من الحياة . وأقول للعصامي بحياء :  
- كانت هذه خدمة تؤدنى لها .

لماذا تراني هنا ؟ - ولماذا لا اكون هنا ؟ انه الظهر . وانا انتظر ساعة  
النوم . ( من حسن الحظ ان النوم لا يهرب مني ) سأرى آني من جديد . بعد  
اربعة ايام : وهذا هو . في هذه اللحظة . تبرير حياتي الوحيد . بعد ذلك ؟  
حين تركني آني ؟ اني اعلم جيداً ما أوامره ، حمية . أواملي الا تركني بعد  
ابداً . على انه ينبغي لي ان اعرف جيداً ان آني لن ترضى ابداً بأن تشبح امامي .  
اني ضعيف ووحيد . وانا بحاجة اليها . وقد كنت اود لو اراها في قوتي :  
فإن آني قاسية على ما هو حطام .

- هل انت بخير يا سيدي ؟ هل تحس انك بخير ؟  
وينظر العصامي الي بطرف ضاحك . انه يلهث قليلاً . فاغر القم .  
ككلب فاقد انقاسه . واعترف : اني كنت هذا الصباح سعيداً برؤيته  
ثانية . فقد كنت محتاجاً الى ان اناكلم .

وقال - كم انا سعيد بأن تكون على طاولتي . اذا كانت تشكو  
البرد . فان بوسعنا ان نجلس قرب المدفأة . ان هذين السيدين على وشك  
ان يذهبا . فقد طلبا حسابها .

ان احداً يهتم بي ، ويتساءل عما اذا كنت اشكو البرد . والا اتحدث  
الى رجل آخر : ان ذلك لم يحدث لي منذ سنوات .  
- لقد نهضا ، فهل تريد ان نغير مجلسنا ؟

وأشعل السيدان لفافتين ، وخرجا ، هاهما في الهواء النقي ، في الشمس .

أهيا بخاذيان الواجهات الكبيرة وهما يحسكان بفثيها أهيا يصحكان ،  
ويتفخ أهواء معطبيها لا ، لا أريد أن أعبر مجلسي ما جدوى ذلك ؟  
ثم أهي أرى ، عمر الزجاج ، بين سفوف الخهات البيضاء ، البحر الأحمر  
الكثيف

وأخرج النعاصي من محفظته مستطيلين من الورق القوي البسحي -  
انه سيعطيها الساعة الى الصندوق . وأقرأ عل قما احدهما

دار بوتانيه ، مطح بورجوازي

والغداء بسر محدّد ٨ فريكات .

ومقبلات حسب الطلب

والحم مع خصار

وجن او حلوى

١٤٠ فرنكاً ثمن ٢٠ قرصاً

هذا الرجل الذي يأكل على الطاولة المستديرة ، قرب الباب ، اذكّره  
الآن : انه غالباً ما يهبط الى فندق برنتانيا ، وهو تاجر رحالة . انه يضع  
عليه ، بين القبة والقبة ، نظره المثبته الباسم ، ولكنه لا يراني ، فهو شديد  
الاستمراق في مراقبة ما يأكل . وفي الجانب الآخر من المشرب ، ارى رجلين  
احمرين فصيرين يتذوقان الصدّاف وهما يشريان خراً ايضاً . واسمع  
افصرهما ، وهو ذو شارب دقيق اصفر ، يروي قصة يشلى بها هو نفسه  
ويتوقّف مبطلتاً ويضحك . كاشفاً عن اسنان باهرة . اما الآخر ، فلا يصحك ،  
ان حبه فاسيتان . ولكنه غالباً ما يومي برأسه « نعم » . والقرب من نافذة ،  
رجلٌ هزيل أسمر ، ذو ملامح متميزة ، وشعر جميل ايضاً مسرّح الى  
خلفه ، يقرأ حريدته بتفكير . وقد وضع على القعد الخشبي ، الى جانبه ،  
محفظه جلدية . وهو يشرب ماء فثي . ان هؤلاء الاشخاص سيخرجون جميعاً  
بعد لحظة ، وسيكونون مثقلين بالطعام ، يداعهم التسم ، ومعاظهم مفتوحة ،  
ورؤوسهم حارة بعض الشيء ، ضاجّة بعض الشيء . فما هم يسبّرون

بحاذاة الدريزون وهم ينظرون الى الاطفال عند الشاطئ ، والى السفن في البحر ، سيذهبون الى اعمالهم . اما انا ، فلن اذهب الى اي مكان ، لأني لا عمل لي .

ويضحك المصامي ببراءة ، وتنداعب الشمس شعره القليل :  
— أتريد ان تختار طعامك ؟

ويعدّ لي لائحة الطعام : انّ لي الحق . يصحن مقبلات حسب الطلب :  
فاما خمس قطع صغيرة من المقاتق ، او بعض الفجل ، او بعض السرطان  
الرمادي او صحيفة كرفس حامض ، اما بزّاق ، « بورغوني » فهو إضافي .  
وقلت للخادم : — أعطيني صحن مقاتق .

فانتزع اللائحة من يدي قائلاً :

— أليس هناك ما هو أفضل ؟ هذا بزّاق بورغوني .

— الواقع اني لا احب البزّاق كثيراً .

— نخذ إذن محاراً .

قالت الخادم : — إن ثمنه يزيد اربعة فرنكات .

— أعطيتنا اذن محاراً ، يا آنسة ، ولي انا صحيفة فجل .

وشرح لي وقد احمر وجهه :

— انني احب الفجل كثيراً .

وأنا ايضاً .

وسأل : — وبعد ذلك ؟

فاستعرضت لائحة اللحوم . ان لحم البقر المطبوخ جدير به ان يفرني .  
ولكنني اعلم سلفاً انه سيقدم لي صحن فراخ ، فلذلك هو اللحم الإضافي الوحيد .  
قال : — يا آنسة ، اعطني السيد صحن فراخ . اما انا ، فصحن لحم  
بقر مطبوخ .

وقلب اللائحة : كانت الخمور على القفا ، وقد قال بلهجة احتفالية :

— سنأخذ قدحي خمر .



قالت الخادم : - اراك تغير عاداتك ! فانت لا تشرب الخمر قط .  
- ولكنني استطيت ان اتحمل قدح خمر بالمناسبة . فهل تريدان يا آنة  
ان تعطيتا قنينة من خمر اجو ؟

ووضع العصامي اللائحة ، وقطع رغبته قطعاً صغيرة وفرك صحنه بمنشفته .  
ورمى نظره الى الرجل ذي الشعر الأبيض الذي يقرأ جريدته ثم ابسّم لي :  
- انني اجيء الى هنا بصحبة كتاب ، على الرغم من ان طبيباً قد نصحتني  
بالأعمال : فان المرء في هذه الحالة يأكل بسرعة مفرطة ولا يعضغ . ولكن لي  
معدة نعمة ، ولستطيع ان ألتهم أي شيء . في سنة ١٩١٧ ، حين كنت  
اسيراً . كان الطعام من الرداءة بحيث سقط الجميع مرضى . وبالطبع تظاهرت  
بأنني مريض كالآخرين : ولكنني لم اكن اشكو شيئاً .

لقد كان أسير حرب .. انها المرة الاولى التي يحدثني فيها عن ذلك :  
وأكاد لا أصدق : فأنا لا استطيت ان اتصوره إلاّ عصامياً .  
- اين كنت اسيراً ؟

لم نجب . وقد وضع شوكته وجعل ينظر اليّ بكثافة عجيبة . انه على أية  
حال يحدثني عن همومه : وأذكّر الآن ان شيئاً ما كان غير طيب في دار  
الكتب وأرهفت سمعي . انني لا أطلب إلاّ ان اشفق على هموم الآخرين ،  
فان ذلك سيجبرني . ليس لي هموم . وانا املك المال كأصحاب الإيرادات ،  
لا رئيس لي ، ولا امرأة ولا اولاد : كل ما هنالك اني كائن . وهذا  
الهمّ منهم جداً ، مينا فيزيقي جداً . حتى انني اشعر منه بالحجل .

لم يكن يبدو على العصامي انه يريد ان يتكلم . وأية نظرة فضولية يرمي  
بها : ليست هي نظرة للرؤية ، وانما هي لتواصل الارواح . لقد صعدت روح  
العصامي حتى عينيه الراضيتين . عيني الأعلى ، اللتين كانت تجعلها بمستوى  
واحد . فتشغل روحي مثل ذلك . ثلثت فتصلق أنفها بالزجاج : انها  
كلتيها ستبادلان عبارات اللياقة والتأدّب .

انني لا اريد تواصل ارواح . فانا لم اتعد الى هذا المستوى . انني اتفهقر

ولكن العصامي يقدم صدره فوق الطاولة ، من غير ان يتزعج عني بصره .  
وتحمل له الخادم صحن التجل ، من حسن الحظ . فيتداعى من جديد  
على كرسيه ، وتخفى روحه من عينيه ، وبأخذ يأكل بوداعة .

— هل صُفّيت همومك ؟

فانتفض وقال بلهجة مذكورة :

— اية هموم ، يا سيدي ؟

— تلك التي حدثتني عنها في ذلك اليوم ، كما تعرف .

فاحمر احمراراً غنياً ، ثم قال بصوت جاف :

— ها ! نعم ، ها ! ذلك اليوم . اجل ، انه ذلك الكورسيكي يا سيدي ،

كورسيكي دار الكتب .

وتردد مرة اخرى . وعليه هيئة نعجة عنيدة .

— ان هذه يا سيدي ثمرات لا اريد ان ازعجك بها .

ولم ألع . كان يأكل بسرعة عجيبة ، من غير ان يبدو عليه ذلك .

وكان قد انتهى فجله حين جاءني بالحار . ولم يكن باقياً في صحته الا

كومة من اطراف خضر وقليل من ملح ميتل ...

وفي الخارج ، توقف شخصان شابان امام لائحة الطعام التي كان طبّاخ

كروتوني يقدمها لها بيده اليسرى ( وكان يحسك في اليمنى موقداً للقليل ) وتردداً .

كانت المرأة تشعر بالبرد ، وقد ادخلت ذقنها في ياقعتها الفروية . ثم يكون

الشاب اول من يقرّر ، فيفتح الباب ويمسح لبركة لرفيقته ان تمر .

وتدخل . وتنظر فيها حوها ، بيثة لطيفة وهي ترتعش قليلاً ، ثم تقول

بصوت خشن :

— ان الطقس حار .

ويطلق الشاب الباب خلفه وهو يقول :

— ايها السادة والسيدات .

فيلتفت العصامي ويقول بلطف :

- ايها السادة والسيدات .

فلا يجيب الزبائن الآخرون ، ولكن السيد الأنيق يحفض جريدته قليلاً ويرقب القادمين الجديدين بنظرة عميقة .  
- شكراً ، لا يحتاج الأمر هذا الجهد .

وقبل ان تتمكن الخادم ، وقد اقبلت لمساعدة الشاب ، من ان تأتي اية حركة ، نزع مشتمه . كان يرتدي ، بدلاً من السترة ، صدره من جلد ذات سحاب . واقتلت الخادم نحو المرأة الشابة ، وقد أصيبت ببعض الحية . ولكنه تقدمها وساعد رفيقته ، بحركات لطيفة دقيقة ، على خلع معطفها . وجلسا بقربنا . احدهما لصق الآخر . ولم يكن يبدو عليهما انها متعارفان منذ وقت طويل . وكان للمرأة الشابة وجه متعب نقي ، مقطب بعض الشيء . ورفعت فجأة قبعتها ونفضت شعرها الأسود وهي تبسم .  
وتأملها العصامي طويلاً ، في طيبة ، ثم استدار اليّ وغمزني غمزة عطفواً ، كما لو انه كان يريد ان يقول : « ما اجملها ! »

انها غير قبيحة . وهما يلتزمان الصمت ، سعيدين ان يكونا معاً ، سعيدين ان يراهما الناس معاً ، حين كنا ، انا وآني ، ندخل احياناً مطعماً في بيكاديلي ، كنا نحس نفسنا موضوع تأملات عطوف . كانت آني تنزعج من ذلك ، اما انا فأعترف بأنني كنت فخوراً بعض الشيء . بذلك . كنت خصوصاً مندهشاً ، انه لم يسبق لي قط ان ظهرت بمظهر النظافة الذي يناسب هذا الشاب كل المناسبة ، بل لا يمكن القول بأن قبحي كان مثيراً . غير اننا كنا شابتين : اما اليوم ، فانا في سن العطف على شباب الآخرين . ولكنني لم أعطف . كان للمرأة عيتان عذبتان معتمتان ، وكان للشاب بشرة برتقالية ، محبة بعض الشيء . وذقن صغيرة اختاذه . صحيح انها يقعان في نفسي ، ولكنها ايضاً يثيران اشمئزازي قليلاً . اني احسها جد بعيد عنني : الحرارة تفسدها ، وهما يتابعان في قلبها حلاً واحداً ما اعذبه وما اضعفه ! انها راضيان ، ينظران بثقة الى الجدران الصفر ، واني الناس . ويجدان أن العالم جيد كما هو ،

كما هو نهما ، وكل منهما ، في الظاهر ، يستمد معنى حياته من حياة الآخر .  
أهما كليهما لن يلبثا أن يصنعا حياة واحدة حياة بطيئة دافئة لن يكون لها بعد  
أي معنى - ولكنهما لن يلحظا ذلك .

يبدو عليهما أن أحدهما يرهب الآخر . وأخيراً اخذ الشاب ، بهيئة مرتبكة  
وعازمة ، يد رفيقته بأطراف أصابعه . أنها تنتنس بقوة ، وقد مالا معاً فوق  
لائحة الطعام . أجل ، أهما سعيدان . ثم ، ماذا ؟

وكسا العصامي وجهه بسياه الانشراح والتسلية الغامضة بعض الغموض :  
- لقد رأيتك أمس الاول .

- أين ؟

فقال محاولاً أن ينكثني باحترام :

- ها ! ها !

وجعلني انتظر لحظة ، ثم :

- كنت خارجاً من المتحف .

فقلت : - آه ، ليس أمس الاول ، بل السبت .

فلا شك في أنني لم أكن أمس الاول أملك الجرأة على زيارة المتاحف .

- هل رأيت تلك اللوحة من الخشب المحفور التي تمثل محاولة اغتيال

أورسيني ؟

- أنني لا أعرفها .

- أهذا ممكن ؟ أنها في قاعة صغيرة الى اليمين ، وأنت داخل . أنها عمل

متعدد من « الكرمون » عاش في بوفيل حتى الغزو العمام ، مغتبتاً في مخزن

للحبوب . وكان قد أراد أن يبحر الى أميركا ، ولكن شرطة المرفأ هنا شديدة

التيقظ . انه رجل يثير الإعجاب . وقد استعمل اوقات فراغه الاجبارية على

نحت لوح كبير من الستديان ، ولم يكن لديه وسائل غير مديته ومبرد أطاظر .

وكان يصنع القطع الدقيقة بالمبرد : اليدين ، العينين . وكان طول اللوح متراً

ولحين وعرضه متراً . واللوحة كلها قطعة واحدة ، وفيها سبعون شخصاً ،

كل منهم بحجم يدي ، بالإضافة الى الحصانين اللذين يجران مركبة الامبراطور .  
والوجوه ، يا سيدي ، هذه الوجوه المنحوتة بالمبرد ، تحمل كلهما سياءها ،  
وهي ذات هيئة بشرية . اذا سمحت لنفسى ، يا سيدي ، لقلت لك ان هذا أثر  
جدير بأن يُرى .

ولم أرد أن ألزم :

— كنت أريد بكل بساطة ان أرى لوحات بوردوران من جديد .

فاغتم العصامي فجأة ، وقال في بسمة راعشة :

— تلك اللوحات المعلقة في القاعة الكبيرة ؟ اني يا سيدي لا افقه شيئاً من

الرسم . صحيح انه لا يفوتني ان بوردوران رسام كبير ، وأنا أرى جيداً انه  
صاحب ملمس وحلق ، كما يقولون . ولكن المتعة ، المتعة الجالية مجهولة  
عندي .

فقلت له في ود :

— وأنا كذلك ، بالنسبة للنحت .

— آه ، يا سيدي ! انا ايضاً ، مع الاسف . وبالنسبة للموسيقى ، وبالنسبة

للكقص . غير أنني لا أدخل من بعض المعلومات . والحق انه شيء غير معقول :

لقد رأيت شاباً لم يكونوا يعرفون نصف ما اعرف ، ولكنهم اذا وقفوا أمام  
لوحة ، يبدون وهم يحسون متعة .

فقلت له بلهجة مشجعة :

— لا بد انهم يتظاهرون .

— ربما ...

وحلم العصامي قليلاً :

— إن ما يحزنني ، ليس هو حقاً ان أكون محروماً من نوع من المتعة ، بقدر

ما يحزنني ان أكون غريباً على فرع يرمته من النشاط الانساني ... ومع ذلك

فأنا انسان ، و « بشر » هم الذين صنعوا هذه اللوحات ...

واستطرد فجأة وقد تغير صوته :

— لقد خاطرت مرة ياسيدي في التفكير بأن الجبال ليس إلا فضية ذوق .  
 أليس هناك قواعد مختلفة أكل عصر ؟ هل تسمح لي ، يا سيدي ؟  
 ورأيت ، وأنا متدهش ، يسحب من جيبه دفترًا صغيراً من الجلد الاسود .  
 فيقلب صفحاته لحظة : صفحات كثيرة بيضاء ، ومن بعيد لبعيد ، بضعة  
 أسطر مكتوبة بالحبر الاحمر . وقد أصبح كله مصفراً . وقد وضع الدفتر على  
 الخوان ، ووضع يده الكبيرة على الصفحة المفتوحة . وسعل في ارتباك :  
 — تحظر على بالي احياناً ، لا أجرؤ أن أقول افكار . وذلك غريب جداً :  
 اني هنا أقرأ ، وفجأة ، ولا أدري مصدر ذلك ، أحسني ملهماً . ولم أكن  
 أعلم لذلك بادئ ذي بدء ، ثم صح عزمي على ان أبتاع دفترًا .  
 وتوقف ينظر إليّ : إنه ينتظر .

قلت : — آه ! آه !

— هذه الحكم ، يا سيدي ، هي طبعاً موفقة : فان ثقافتي لم تكتمل .  
 وأخذ الدفتر بيديه المرتجفتين فبدأ شديد الانفعال :  
 — هذه بعض أشياء عن الرسم بالذات . وسأكون سعيداً اذا سمحت لي بأن  
 أتلوها عليها .

قلت : — بكل رضى .

ففسراً :

— لم يبق ثمة من يؤمن بما كان القرن الثامن عشر يعتقد صحيحاً . لماذا يُراد  
 لنا ان نطل نستمتع بالآثار التي كان يعتبرها جميلة ؟  
 ونظر إليّ نظرة انهال :

— ما رأيك بذلك يا سيدي ؟ ربما كان ذلك متناقضاً بعض الشيء ؟ ذلك  
 اني ظننتني مستطيعاً ان أضفي على فكرتي شكل فكاهة .  
 — الحق ... اني اجد ذلك مثيراً جداً للاهتمام .  
 — هل سبق لك ان قرأته في مكان ما ؟  
 — لا ، بكل تأكيد .

— حقاً ، لم تقرأ في أي مكان قط ؟

ثم أضاف وقد عاد اليه الغم :

— إن هذا يا سيدي غير صحيح إذن . فلو كان صحيحاً ، لسبقني غيري

الى التفكير به .

فقلت له : — انتظر قليلاً ربّما أفكر فيه . أعتقد اني قرأت شيئاً كهذا .

فالتفت عيناها ، وسحب قلمه ، وسألني بلهجة واضحة :

— عند أي مؤلف ؟

— عند ... عند ريتان .

فاستطار فرحاً ، وقال وهو يمص رأس قلمه :

— هل تلتطّف فتذكر لي المقطع تماماً ؟

— لقد قرأت ذلك منذ وقت طويل جداً .

— اوه ، لا بأس ، لا بأس .

وكتب اسم ريتان على دفتره ، تحت الحكمة . وقال موضعاً بلهجة مأخوذة :

— لقد التفتت بريتان ! وقد كتب الاسم بالقلم الرصاصي ، ولكنني سأسطره

هذا المساء بالحبر الاحمر .

ونظر الى دفتره لحظة في نشوة ، وانتظرت ان يقرأ لي حكماً أخرى ،

ولكنه أغلقه في حذر ودسّه في جيبه . لاشك في انه حكم بأن ما أصابه من

سعادة ، في مرة واحدة ، كان حسيه . وقال بلهجة حميمة :

— كم يلدّ المرء ان يستطيع احياناً ان يتحدث على هذا النحو ، باستسلام .

وسحق هذا الحادث ، كما يمكن للانسان ان يتصور ، محادثتنا المسترخية .

وتبع ذلك صمت طويل .

كان جوّ المطعم قد تغير ، منذ وصول الشابة والشاب . فقد صمت الرجلان

الاحمران ، وجعلا يدققان ، من غير انزعاج ، في محاسن المرأة الشابة .

ووضع السيد الأنيق جريدته وأخذ ينتظر اليهما في انبساط ، بل في شبه تواطؤ .

إنه يفكر بأن الشيخوخة عاقلة ، والشباب جميل ، وهو يهز رأسه ببعض الفنج :

هو يعلم جيداً انه ما يزال جميلاً ، وانه يحافظ على كل قواه ، وانه ما يزال يستطيع بسموته ورقة جسمه ان يسحر . وهو يمثل دور الإشعار بالأبوة . أما أحاسيس الخادم فتبدو أبسط : لقد انزعت امام الشاب والشابة تناملهما فاعرة القم .

انهما يتحدثان بصوت منخفض . لقد قدمت لهما المقبلات ، ولكنهما لم يمساها . ويوسمي ، إذا أرهفت أذني ، ان التقط اطرافاً من احاديثهما . وأنا افهم فهماً افضل ما تقوله المرأة ، بصوتها الغني والمحجب .

— لا ، يا جان ، لا .

فتتم الشاب في حيوية مهروسة :

— ولم لا ؟

— لقد قلت لك الجواب .

— ليس ذلك سبباً .

هناك كلمات تفوتني ، ثم تقوم المرأة الشابة بحركة ضجر ساحرة :

— لقد حاولت أكثر مما ينبغي . لقد اجتزت السن التي يستطيع فيها المرء

ان يبدأ حياته من جديد . انت تعلم أنني قد شخت .

فضحك الشاب بتهكم . واستطردت هي :

— لأنني لن أستطيع ان أنحمل ... خيبة .

قال الشاب : — يجب ان تتدربي باللغة . فانك هنا ، لن تعيشي كما أنت الآن .

فتنهدت : — أعرف ذلك .

— تذكرني جانيت .

قالت في تكشيرة : — نعم .

— الحق اني انا اجد جميلاً جداً ، ما فعلته . لقد كانت جريئة .

فقالت المرأة الشابة :

— انت تعرف انها بالأحرى قد وثبت على المناسبة . وسأقول لك اني لو



شئت لحصلت على مئة مناسبة من هذا النوع . ولكنني فصلت ان انتظر .  
فقال بركة : - ولقد كنت على حق . كنت على حق بأن تنتظريني .  
وضحكت بدورها وقالت :

- كم هو مفرور ! لاني لم أقل هذا .

وكففت عن الاصغاء إليهما : انهما يزعماني . انهما سينامان معاً . وهما  
يعرفان ذلك . وكل منهما يعرف ان الآخر يعرف ذلك . ولكن لكونهما شابين ،  
طاهرين ، ومحشنين ، ولكون كل منهما يريدان يحتفظ باحترامه واحترام  
الآخر ، ولما كان احب شيئاً شعرياً عظيماً ينبغي ألا يجفل ، فانهما يقصدان  
عدة مرات في الاسبوع المراقص والمطاعم ليقدموا مشهد رقصتهما الطقوسية  
الصغيرة والآلية ...

يجب في آخر المطاف قتل الوقت . انهما شابان ذوا بنية جميلة ، ولا يزال  
أمامهما ثلاثون عاماً . فهما لذلك لا يستعجلان ، بل هما يبطئان . وليس في  
ذلك بمخاطئين . وبعد ان يناما معاً ، يجب ان يجدا شيئاً آخر ليحجبا عشيّة  
كينونتهما الماثلة . ومع ذلك ... أمن الضروري حيناً أن يكذب أحدهما على  
الآخر ؟

وأجبل عيني في القاعة . انها لنكنة ! ان جميع هؤلاء الاشخاص جالسون  
بهيئة رصينة ، يأكلون . لا ، انهم لا يأكلون : وانما هم يجددون قواهم لينجزوا  
المهمة الملقاة على عاتقهم . إن لكل منهم عناده الشخصي الصغير الذي يمنعه من  
ان يلاحظ انه كائن ، ليس فيهم من لا يحب نفسه ضرورياً لآسان او لشيء .  
أليس العصامي هو الذي قال لي ذات مرة : « لم يكن ثمة من هو أكفأ من  
«نوماسيه» للقيام بهذا العمل التآلفي الواسع ؟ » إن كلاً منهم يعمل شيئاً  
صغيراً ، وليس ثمة من هو أكفأ منه للقيام بهذا العمل . ليس ثمة من هو  
أكفأ من ذلك الوكيل التجاري الرحالة ، هنسالك ، للترويج لمعجون الامتان  
«سوان» . وليس ثمة من هو أكفأ من هذا الشاب المثير للفضول لكي يدس  
يداه تحت تنورة جارته . وأنا أجسدي بينهم ، فاذا نظروا إليّ ، فلا بد من

ان يفكروا بأنه ليس ثمة من هو أكفأ مني للقيام بما اقوم به . ولكني أنا  
« أعرف » . انه لا يبدو عليّ شيء ، ولكني أعرف اني كائن ، وانهم كائنون .  
ولو كنت أنفن فن الاقتناع ، لذهبت أجلس قرب اليد ذي الشعر الابيض  
ولشرحت له ما هو الوجود . واني لأنفجر بالضحك وأنا اتصور الهيئة التي  
سيخذاها وجهه . إن « العصامي » ينظر إليّ في اندهاش . كم أتمنى أن أكف ،  
ولكني لا أستطيع : انني أضحك حتى لتسيل مني الدموع .  
وقال لي العصامي بهيئة تحفظ :

— أراك مرحاً يا سيدي ...

قلت له ضاحكاً : — انا أفكر بأننا نقضي وقتنا هنا نأكل ونشرب لنحافظ  
على وجودنا الثمين . وانه ليس ثمة اي تبرير للوجود على الإطلاق .  
فاتخذ العصامي مظهر الجدد ، وبذل جهداً ليفهمني . لقد ضحكت بصوت  
مرتفع أكثر مما ينبغي : فلقد رأيت عدة رؤوس تستدير إليّ . ثم إنني نادمتُ  
على اني نطقت بهذا كله . غير ان ذلك ، لا يعني في آخر الأمر أحداً .  
وردد على مهل :

— ليس ثمة اي تبرير للوجود ... لاشك في انك تعي يا سيدي ان الحياة  
لا غاية لها ؟ أليس هذا ما يُدعى بالشاؤم ؟  
وفكر لحظة أخرى ، ثم قال في عذوبة :

— قرأت منذ بضعة أعوام كتاباً للمؤلف امريكي كان عنوانه : « هل تستحق  
الحياة ان تُعاش ؟ » . أليس هذا هو السؤال الذي تطرحه على نفسك ؟  
بالطبع لا . ليس هذا هو السؤال الذي أطرحه على نفسي . ولكني لا أريد  
ان اشرح شيئاً . وقال لي العصامي بلهجة معزّية :

— ولقد انتهى المؤلف في صالح التفاضل الارادي . إن للحياة معنى إذا  
اراد المرء ان يعطيها معنى . يجب عليه أولاً ان يعمل ، ان يرتقي في عمل .  
فاذا فكر بعد ذلك ، يكون قد التزم . ولست أدري رأيتك في ذلك يا سيدي .  
قلت : لا رأي لي .

او أن رأيي في الحق أن هذا هو بالذات نوع الكذب الذي يتبادلـه الوكيل التجاري والثابة والشاب والسيد ذو الشعر الأبيض .

وابتسم العصامي في شيء من الخبث وكثير من الزهو :

— وليس ذلك رأيي ايضاً . فأنا اعتقد أنه لا ينبغي لنا ان نبحث عن معنى حياتنا في مثل هذا البعد .

— هكذا إذن ؟

إن هناك هدفاً يا سيدي ، هناك هدف ... إن هناك البشر .

هذا صحيح : فلقد نسيت انه مفكر إنساني . وقد غسل لحظة صامتاً ، الوقت الذي التهم فيه نصف قطعة اللحم المطبوخ وقطعة كبيرة من الخبز . « إن هناك البشر » . لقد رسم نفسه يرثه — هذا الرقيق العطوف — أجل ، ولكنه لا يحسن التعبير عن ذلك . إن روحه تملأ عينيه ، هذا لا جدال فيه ، ولكن الروح لا تكفي . لقد سبق لي ان عاشرت مفكرين انسانيين من باريس ، وقد سمعتهن مرة مرة يقولون « إن هناك البشر » ولكن ذلك كان شيئاً آخر ! كان « فيرغان » لا يضاى . كان يتزع نظارتيه ، كما لو أنه يريد ان يظهر عارياً بجسمه البشري ، وكان يحدق في بعينه المؤثرتين ، بنظرة ثقيلة متعبة ، كسان يخيل إلي أنها تعزني لتلتقط جوهرى البشري ، ثم كان يتمتم بلهجة منعمة : « إن هناك البشر ، يا عزيزي ، هناك البشر ، مضيفاً على « هناك » نوعاً من القوة ، كما لو أن حبه للبشر ، المتجدد والمدهش أبداً ، كان يتعثر في جناحيه العملاقين .

أما حركات العصامي الإيمانية ، فإنها لم تكتسب هذه المخملة ، إن حبه للبشر ساذج وبربري : انه إنساني ريفي .

وقلت له : — البشر ... البشر ... على كل حال ، لا يبدو عليك انك تهتم بهم كثيراً : انت دائماً وحيد ، وأنفك دائماً في كتاب .

فصق العصامي يديه وأخذ يضحك بنجث :

— انت على خطأ . آه ، يا سيدي ، اسمع لي ان أقول لك : أي خطأ هذا !

وصمت لحظة لينجز في تحفظ ابتلاع لقمته . وكان وجهه مشرقاً كالصفر .  
وظلعه ، انفجرت المرأة الشابة بضحكة خفيفة . وكان رفيقها قد مال عليها  
يهمس في أذنها .

وقال العصامي : - إن خطأك طبيعي جداً . وقد كان عليّ أن أقول لك ،  
منذ زمن طويل . . ولكنني جدّ عجول ، يا سيدي : وكنت أئتمس مناسبة .  
فقلت له بتأدب : - وها أنتك تجدها .

- أعتقد ذلك أنا أيضاً . إن ما سأقوله لك ...

وتوقف وقد احمرّ وجهه :

- ولكن ربما كنت أضايقك ؟

فطمأنته ، فأطلق تنهدة سعيدة .

- إن المرء يا سيدي لا يلتقي برجال مثلك كل يوم ، تقرن سعة النظر  
لديهم بنفاذ البصيرة . لقد انقضت اشهر وأنا اود أن أحدثك ، ان اشرح لك  
ما الذي كنته ، وماذا أصبحته ...

وكان صحنه فارغاً نقيّاً . كما لو انه حل له الساعة . واكتشفت فجأة ،  
بالقرب من صحنّي ، صينية قصدير صغيرة كانت تسبح فيها قطعة دجاج في  
مرقٍ اسمر . يجب ان آكل هذا .

- كنت أحدثك منذ حين عن أسري في ألمانيا . وهناك ابتدأ كل شيء . كنت  
وحيداً قبل الحرب ، ولم أكن اشعر بذلك ، كنت أعيش مع اهلي الذين كانوا  
أناساً طيبين ، ولكنني لم أكن أنفاهم معهم . انني حين أفكر بتلك السنوات ...  
ولكن كيف استطعت ان أعيش على ذلك النحو ؟ كنت ميتاً يا سيدي ، ولم أكن  
أحسّ بذلك ، وكنت املك مجموعة من طوايع البريد .

ونظر إليّ ثم أضاف :

- يا سيدي ، انت محقق ، ويبدو عليك التعب . انني لا أضايقك ، عسى

الاقل ؟

- بل انت تتبر اهتمامي كثيراً .

— واثت الحرب فتطوعت من غير ان ادري لماذا . وقد بقيت عامين من غير ان افهم ، لأن حياة الجبهة كانت لا تدع إلا وقتاً يسيراً للتفكير ، ثم إن الجنود كانوا مفرطين في الوحشية . وفي نهاية عام ١٩١٧ أسرت . وقبل لي منذ ذلك الحين ان كثيراً من الجنود قد استردوا ، في الأسر ، الإيمان الذي كان يملأ طفولتهم .

واستطرد العصامي وهو يُرسي جفنيه على حدقيه الملتهتين :  
— انني يا سيدي لا اؤمن بالله ، فان العلم ينكر وجوده . ولكني في معسكر الاعتقال ، تعلمت ان اؤمن بالإنسان .

— الأنهم كانوا يتحملون مصيرهم بشجاعة ؟

فقال بهيئة غامضة :

— نعم ، كان هذا عنصراً آخر . والحق اننا كنا نعامل معاملة طيبة . ولكني كنت أقصد شيئاً آخر : ففي شهور الحرب الأخيرة ، كفوا عن ان يعطونا عملاً . وحين كانت السماء تمطر ، كانوا يدخلوننا في سقيفة كبيرة للألواح الخشبية كنا نقف فيها مثنين تقريباً ، متلاصقين . وكانوا يفلقون الباب ، ويتركونا هناك ، متلاصقين فيما بيننا ، في ظلام شبه تام . وتردد لحظة ، ثم أضاف :

— ان استطع ان اعبر لك يا سيدي . كان جميع اولئك الرجال هناك ، لا يكاد المرء يراهم ، ولكنه كان يحسهم ملتصقين به ، وكان يسمع صوت تنفسهم . وفي إحدى المرات الأولى التي حبسونا فيها في تلك السقيفة ، كان الضغط شديداً جداً حتي حسبت اول الامر اني سأختنق ، ثم ارتفع في فجأة فرح قوي حتى كدت أنهار : واذا ذلك أحسست اني أحب هؤلاء الرجال كأنهم إخوة ، ووددت لو أقبلهم جميعاً . وبعد ذلك ، كنت أحس القرح نفسه كلما دخلت السقيفة .

يجب ان آكل قطعة الدجاج التي لا بد ان تكون قد بردت . فلقد انتهت العصامي منذ وقت طويل ، والخدام تنتظر لتغيير الصحون .

— كانت هذه السقيفة قد اكتست في نظري طابعاً مقدساً . وقد نجحت أحياناً في التحرر من مراقبة حراسنا ، فدخلت إلى السقيفة وحيداً ، وهناك ، في الظلام ، في ذكرى الفرحنة التي عرغتها فيها ، كنت أسقط في نوع من النشوة . وكانت الساعات تمر ، ولكني لم أكن أنتبه إليها . وقد حدث لي أن يكره .

لا بد أنني مريض : علبس ثمة طريقة أخرى لشرح هذا الغضب الشديد الذي هزني . اجل ، غضبٌ مريض : كانت يداي ترتعقان ، وقد صعد الدم إلى وجهي ، وانتهى الأمر بشفتي فأخذتا ترتعشان . كل هذا ، لأن الدجاجة كانت بيساطة ، باردة . وأنا أيضاً كنت في الواقع بارداً ، وكان هذا أشق ما في الأمر : أقصد أن أعماقي قد ظلت كما كانت منذ ست وثلاثين ساعة ، باردة جداً ، مثلجة . لقد اخترقني الغضب وهو يدوم ، وكان ذلك شيئاً برعشة ، بمجد يبذله وعبي ليقيم برد الفعل ، ليقاوم سقوط الحرارة هذا . جهد عايب : فلا ريب في أنني كنت جديراً ، لأنفسه الأسباب ، أن أنفض على العصامي أو الخادم لأوسعهما ضرباً وأرهقهما شتاً . ولكني لن أكون قد دخلت بكلّيتي في اللعبة لو فعلت . لقد كان غضبي يرتج على السطح . وقد أحست ذات لحظة إحساساً شافاً بأنني كتلة من ثلج محاطة بالنار . وتلاشى هذا الاضطراب السطحي ، وجمعت العصامي يقول :

— كنت كل يوم احد ، أذهب إلى القديس . وأنا يا سيدي لم أكن يوماً مؤمناً . ولكن ألا نستطيع أن نقول أن سر القديس الحقيقي إنما هو التواصل بين الناس ؟ كان ثمة كاهن فرنسي ، لم يبق له إلا فروع واحدة ، بقيم القديس الاحتفالي . وكان لدينا أرغن ، وكنا نستمع وقوفاً ، عاري الرؤوس ، وبينما كانت أنغام الارغن تحملني ، كنت أحسني أشكل كلاً واحداً مع جميع الناس الذين كانوا يحيطون بي . آه ! لكم استطعت أن أحب تلك القديس يا سيدي . وما زلت حتى الآن ، أحياء لذكرها . أقصد الكنيسة أحياناً ، صباح الاحد . ولدينا في كنيسة سانت سيسيل عازف أرغن ماهر .

— لا بد انك قد اشتقت غالباً الى تلك الحياة ؟

— نعم يا سيدي ، سنة ١٩١٩ . انها سنة تحريري . اقد قضيت شهوراً شاقّة  
جداً . لم أكن ادري ماذا افعل ، كنت أتلاشي . وكنت حيناً وجدت بشراً  
متجمعين أندس بينهم .

وأضاف وهو يبتسم :

— وقد حدث أني مشيت في جنازة رجل مجهول . وذات يوم ، قذفت ،  
من فرط اليأس ، مجموعة طوابقي في النار ... ولكنني وجدت دربي ..  
— حقاً ؟

— لقد نصحتني أحدهم ... أعرف يا سيدي أنني استطيع ان اعتمد على  
تكتيكك . انني — ربما لم تكن هذه افكارك ، ولكن لك فكراً واسعاً جداً —  
انني اشتراكى .

وخفض عينيه فخفقت جفونه الطويلة :

— منذ شهر ايلول ١٩٢١ ، تسجلت في « الحزب الاشتراكي » . هذا  
ما كنت اود ان أطلعك عليه .

وكان يشرح « افتخاراً » وجعل ينظر لاني . ورأسه مرتد الى خلف . وعيناه  
نصف مغمضتين . وفه مشقوق ، فكأنه شهيد .  
قلت : — حسناً جداً .

— كنت اعرف يا سيدي انك ستفترني . وأنتي للمرء ان يوبخ من يأتي  
فيقول له : لقد نصرفت بعيتي على هذا النحو وهذا النحو ، وهأنذا الآن  
سعيد جداً ؟

وفتح ذراعيه وقدّم لي راحتيه . وأصابعهما موجهة نحو الارض ، كما لو  
انه يوشك ان يلتقي الجروح . كانت عيناه زجاجيتين ، وقد رأيت في فمه  
كتلة وردية معنمة تندرج . فقلت :

— آه ، ما دمت سعيداً ...

— سعيد ؟

إن نظره يثبت على الصيق ، وقد رفع جففيه وحدق في تحديقاً غامباً .  
— سيتاح لك يا سيدي أن تحكم في الأمر . كنت أحسن . قبل أن أتخذ  
هذا القرار ، في وحدة فطيمة جداً حتى أنني فكرت بالانتحار . غير أن ما أمسكني  
هو التفكير بأن أحداً على الإطلاق لن يتأثر لموتي ، وسأكون في الموت أشد  
وحدة مما كنت في الحياة .

واستقام وقد انتفض خداه :

— انني لست بعد وحيداً يا سيدي . لن أكون بعد وحيداً أبداً .

قلت : آه . انك تعرف كثيراً من الناس ؟

فابتسم . وسرعان ما أدركت سذاجتي :

— أقصد الى القول إنني لا « أحسن » بعد وحيداً ولكن بالطبع يا سيدي

ليس من الضروري أن أكون مع أحد .

قلت : — ومع ذلك ، ففي الحزب الاشتراكي .

— آه ، انني أعرف الجميع هناك . ولكن معظمهم ، انما أعرفهم اسماً

فقط .

وأضاف في دهاء :

— هل يكون المرء مجبراً يا سيدي على أن يختار رفيقه على هذا النحو الصيق ؟

إن أصدقائي هم البشر جميعاً . حين أقصد المكتب في الصباح ، فإن أمامي

وورائي رجالاً آخرين يذهبون إلى أعمالهم . إنني أراهم . ولو كنت أجرو

لبست لهم ، انا أفكر بأنني اشتراكي ، وأهم جميعاً غاية حياتي وجهودي ،

وانهم لا يعرفون ذلك بعد . إن هذا عيدٌ لي . يا سيدي

وسأدلي بعينه ، فأقررت وأنا أهز برأسي ، ولكنني شعرت انه غائب

بعض الحية ، وانه يود مزيداً من الحياة . ماذا أستطيع أن اصنع ؟ أليكون

خطأي أن أمس ، في كل ما يقوله لي ، التكلف والاستشهاد ؟ وأن أرى ، فيما

هو يتكلم . جميع الانسانيين الذين عرفتهم بغيرهم ؟ لقد عرفت كثيراً منهم

مع الأسف ! إن الانساني الراديكالي بصورة خاصة صديق الموطفين ، والانساني



الذي يوصف بـ « اليساري » ، هم الرئيسي الحفاظ على القيم الانسانية ، إنه لا ينتمي الى اي حزب ، لأنه لا يريد ان يخون ما هو انساني ، ولكن عاطفته تنجبه الى الوجود ، وهو يكرس للوضع ثقافة الكلاسيكية الجميلة . انه بالاجمال أرمل ذو عين جميلة مندأة بالدمع دائماً : وهو يبكي في اعياد الميلاد ، ويحب ايضاً القطعة والكلب وجميع الضربات العليا . اما الكاتب الشيوعي فيحب الناس منذ أعلن المشروع الثاني للسنوات الخمس ، وهو يُعاقب لأنه يحب ، وهو لاحتشامه ، شأن جميع الأقرباء ، يُحسن إخفاء عواطفه ، ولكنه يُحسن كذلك ، بنظرة ، او بشئ من صوته ، ان يُشعرنا ، فيما وراء كلماته المحبة للعدل ، بعاطفته الموهومة الرقيقة لآخوته . وأما الانساني الكاثوليكي ، المتأخر الوصول ، الابن الأعز ، فانه يتحدث عن البشر بلهجة إعجاب شديد . إنه يقول : ما اجملها قصة جن ، قصة تلك الحياة المتواضعة التي يعيشها عامل مرقاً لندني ، او مضرّبة احذية ! لقد اختار انسانية الملائكة ، وهو يكتب ، في سبيل بناء الملائكة ، روايات طويلة حزينة وجميلة ، غالباً ما تخرز جائزة « فينسا » .

هذه هي الادوار الكبيرة الاولى . ولكن هناك أدواراً أخرى . غيمة من الادوار الاخرى : الفيلسوف الانساني الذي ينحني على اخوته كأخ أكبر والذي يملك حس مسؤولياته ، والانساني الذي يحب البشر كما هم ، والانساني الذي يحبهم كما ينبغي ان يكونوا ، ذلك الذي يريد ان يخلق اساطير جديدة ، والذي يكتفي بالقديم ، والذي يحب في الانسان موته ، والذي يحب في الانسان حياته ، والانساني القريح الذي يملك دائماً الكلمة الضاحكة ، والانساني المظلم الذي تلتقى به خصوصاً في الأماسي المأتمية . انهم جميعاً يتبادلون الكراهية كأفراد طبعاً ، لا كبشر . ولكن العصامي يجهل ذلك : فلقد حبسهم في نفسه كما تُحبس قطط في كيس جلدي ، وهم يتنازعون ويخرج بعضهم بعضاً ، من غير ان يشعر هو بذلك .

وكان قد بدأ ينظر إليّ بثقة أقل :

— ألا تشر بالأمر ، كما اشر به يا سيدي ؟

— الحقيقة ...

ولإزاء هيئته القلغة التي لا تخلو من حقد . احس بعض الندم اني قد خيبت ظنه . ولكنه استطرد بود :

— اعرف ان لك ابحاثك وتحقيقاتك وكتبك ، فأنت تخدم القضية نفسها على طريقتك .

كتبي ، تحقيقاتي ، يا للأبله ! انه لا يستطيع ان يرتكب خطأ افدح من هذا .

— انني لا اكتب من اجل هذا .

وعلى الفور تغيرت ملامح العصامي : فكأنما هو قد شم رائحة العدو . ولم يسبق لي قط ان رأيت مثل هذا التعبير على وجهه . لقد مات شيء ما بيننا . وسأل وهو يتظاهر بالدعشة :

— ولكن .. لماذا تكتب اذن يا سيدي ، واغفر لي هذه الصراحة ؟

— الحقيقة ... انني لا ادري . اكتب هذا ، لكي اكتب .

فابتسم بزهو ، ، لقد اعتقد انه اربكني :

— هل تكتب في جزيرة مقفرة ؟ ألا يكتب الانسان دائماً لكي يُقرأ ؟

انما اعطى عبارته صبغة التساؤل بدافع العادة . فالواقع انه يؤكد . لقد انقشر طلاء غدوبته وخجله ، فبت أنكره . وقد نمت ملاعنه عن عناد ثقيل ، فبدأ جداراً من الرضى والاكتفاء . ولم تكن دهشتي قد انقضت حين استطرد يقول :

— إذا قيل لي : انما اكتب من اجل فئة اجتماعية ، من أجل فريق من الاصدقاء ، فاني افهم ذلك . وربما كنت تكتب للأجيال القادمة ... ولكنك يا سيدي ، بالرغم منك ، تكتب من اجل احد .

وانتظر جواباً ، فلما تأخر ، ابتسم ابتسامة خفيفة :

— ربما كنت متشاملاً ؟

وأعرف ما كان يحق به هذا الجهد الخارج للمصالحة . إنه بالأجمال يطلب مني شيئاً يسيراً : ان أقبل ببساطة صفة او طابعاً . ولكن ذلك كان شركاً : فإذا وافقت ، انتصر العصامي ، ولن ألتزم ان أنهزم وبمسك يدي وأتجاوز ، لأن النزعة الانسانية تسترد جميع الممالك الانسانية وتذيقها معاً . إن من يعارضها مواجهةً ينساق للعنينا . فهي تعيش من معاكستها . إنها جنسٌ من الأشخاص المعاندين المحدودين ، جنس من قطاع الطرق . يخشون دائماً معها : فهي تهضم كل ألوان عفيفهم ، وأسوأ تجاوزاتهم ، فتجعل منها لقا بيضاء مزيدة . لقد هضمت النزعة المناهضة للفكرية ، وهضمت الماتوية ، والصوفية . ونزعة بغض البشر ، والقوضوية والأمانية : فلبست هذه بعد الا مراحل ، افكاراً غير ناجزة لا تجد تبريرها الا بها . ونزعة بغض البشر نتخذ مجلسها ايضاً في هذه الخفلة الموسيقية : فلبست هي الانشازاً ضرورياً لتناغم الكل . إن مبغض البشر إنسان : فيجب اذن ان يكون الانساني مبغضاً للبشر على نحو ما . ولكنه مبغض للبشر علمي ، عرف ان يمتن مقدار بعضه ، وهو لا يبغض البشر اولا الا ليكون فيما بعد أندر على ان يحبهم .

اني لا أريد ان أصهر ، ولا ان يذهب دمي الجميل الأحمر ليضمن ذلك الوحش المعفاوي : انني ان ارتكبت حماقة ان اصف نفسي بـ « مناهض للانسانية » كل ما هنالك ، اني « لست » انسانياً .

وقلت للعصامي :

« أرى ان المرء لا يستطيع ان يكره البشر اكثر مما يحبهم .  
فنظر إليّ العصامي نظرة عاطفية بعيدة . ونظم . كي لو انه غير متنبه لكتباته :

— يجب ان يحبهم ، يجب ان يحبهم . .

— من هم الذين يجب ان يحبهم ؟ الأشخاص الذين هم هنا ؟

والذين هم هناك ايضاً . الجميع .

واستدار نحو الشابة والشاب المشرقين اقتنوة . ذلك ما ينبغي ان يحب .

وتأمل لحظة السيد ذا الشعر الأبيض ، ثم اردت بصره الي ، ففراحت على وجهه سؤال استغفام أعرجس . ولومات براسي لا ، بدا على وجهه انه يتفق علي .

وقلت له مترعجاً : - انك انت ايضاً لا تحبهم .

- حقاً يا سيدي ؟ هل تسمح بأن يكون لي رأي مختلف ؟

واستعاد مظهر الوقار حتى اطراف اظافره ، ولكن نظره كان نظر المهكم الذي يجد متعة كبيرة . انه يحقد علي . ولقد اعطأت حين تعطفت على هذا الأهوس . وسألته بدوري :

- قل لي ، هل تحب هذين الشخصين الشابين ، ورايك ؟

فتطلع اليها مرة اخرى ، وفكتر ، ثم قال مرتاباً :

- انك تريدني ان اقول اني احبها من غير ان اعرفها . الحق

يا سيدي اني لا اعرفها ، وأقر ذلك ...

ثم أضاف بضحكة مزهومة :

- الا ان يكون الحب بالذات هو المعرفة الحقيقية !

- ولكن ماذا تحب ؟

- ارى انها شابان . فانما احب فيها الشباب ، بين الاشياء اخرى ، يا سيدي .

وكفت مرهقاً اذنه :

- هل تفهم ماذا بقولان ؟

يسألني عما ذا كنت أفهم ؟! كان الشاب ، وقد جرأه الود الذي يحيط به ، يروي بصوت ممثلي ، مباراة في كرة القدم ويحيا فريقه في العام الماضي ضد ناد من الحافر .

وقلت للمصامي : - انه يروي لها قصته .

- آه ! اني لا أسمع جيداً . ولكني أسمع الصوتين ، الصوت الناعم ، والصوت الخشن : انهما يتناوبان . فما .. ما ألطف هذا !

- اما انا ، فأسمع ما بقولاته . مع الأسف .

- ماذا يقولان ؟

- الحق أنها يتفعلان .

فقال بهنكم :

- حقاً ؟ ربما كانا يتفعلان مسرحية الشباب ؟ اسمع لي يا سيدي بأن أجبها

سفيدة جداً . هل يكفي المرء أن يمثلها ليعود الى مثل عمرها ؟

فتجاءلت نهكته ، واستطردت :

- انك توليها ظهرك ، وما بقولاته بقولك . ما هو لون شعر المرأة

الشابة ؟

فأضرب ، ثم وجه نظره نحوهما فاسترد " ضمائيته وقال :

- انه أسود .

- انك ترى اذن .

- ماذا يعني ؟

- انت ترى جيداً انك لا تحبها . هذين الاثنين . انك لن تستطيع ان

نعمهما ثانية اذا لقيتهما في الشارع . فلبسا هما في نظرك الا ومزين . انت

لا ترق لها . هما بالذات ، وانما ترق " أ " شباب الانسان ، ، حب الرجل

والمرأة ، ، الصوت الانساني ،

- وادى ؟ أليس هذا موجوداً ؟

- بالتأكيد لا . هذا ليس موجوداً " لا " الشباب " ولا " الكهولة ،

ولا " الشيخوخة " ولا " الموت " .

هذا وجه العصامي المنضج القاسي كآتة منرجلة . متسماً في تكسيف

الكاريز . بيد اني ناهيت

- هذا شأن ذلك السيد المس " خلقت الذي يشرب ماء فيشي " فأنا افترض

انك انما تحب " به " لانسان الناضج ، ، الانسان الناضج الذي يسير بشجاعة

نحو متعده والذي يعني عظمه لأنه لا يريد ان يشلم ؟

فقال لي في تحد " ا - تماماً .

- ومع ذلك ، الا ترى انه فذر جيان ؟  
فصحك . انه يجذني طائشاً ، وقد رمى بنظرة موجرة الى الوجه  
الجميل المؤطر بالشعر الأبيض :  
- ولكن لنفرض يا سيدي انه يبدو كما ذكرت ، فكيف تستطيع  
ان تحكم على هذا الرجل من سمته ؟ ان الوجه يا سيدي لا يعتبر عن  
شيء . حين يكون في حالة الراحة .

يا اللانسانين العُسي ! ان هذا الوجه هو جدٌ « معبر » . جدٌ واضح -  
ولكن روحهم الرقيقة المجردة لم تتأثر قط بمعنى وجهه .  
قال العصامي : - كيف تستطيع ان « تقرر » انساناً ، ان تقول « انه »  
كذا او كذا ؟ من يستطيع ان يستفد انساناً ؟ من يستطيع ان يعرف  
بنايغ انسان ؟

استفاد انسان ! انني أحيتي ، بالناسبة ، النزعة الانسانية الكاثوليكية  
التي استعار منها العصامي . من غير ان يدري ، هذه الصيغة .  
وقلت له : - اعرف ، اعرف ان جميع البشر رائعون . انت رائع .  
انا رائع . بصفتنا مخلوقات الرب . طبعاً .

فنظر اليّ من غير ان يفهم . ثم قال بيسمة حزيلة :  
- لا شك في انك تمزج يا سيدي ، ولكنه امرٌ صحيح ان جميع البشر  
يستحقون اعجابنا . انه صعب ، يا سيدي ، صعب جداً ان يكون المرء انساناً .  
ها هو يترك من غير ان يلاحظ ، حب البشر في المسيح ، انه يمز رأسه ،  
فاذا هو شبيه بذلك المسكين غيبينو . عن طريق قاهرة ايمان غريبة .  
وقلت له : - المذرة . ولكن هذا يعني اني لست متأكداً حقاً من  
اني انسان . فأنا لم اجد ذلك صعباً قط . كان يجبل اليّ انه لم يكن على  
المرء الا ان يستسلم .

فصحك العصامي بطلاقة ، ولكن عينيه ظلّتا سيّتين :  
- انك مفرط التواضع يا سيدي . فلكي تتحمل وضعك ، وضعك البشري .

فانك بحاجة ، كسائر الناس ، الى كثير من الشجاعة . ان اللحظة التي تأتي  
ياسيدي يمكن ان تكون لحظة موتك ، انت تعرف ذلك . وبوسعك ان  
تبسم : أليس هذا رائعاً ومدعاة للإعجاب ؟  
وأضاف في مرارة :

— ان في اتفه افعالك قدراً هائلاً من البطولة .

قالت الخادم : — وما الذي تأخذانه في النهاية ياسيدي ؟

وكان العصامي ابيض كل البياض ، وجفناه منطبقتان نصف انطبق  
على عيني حجريتين . وقام بحركة ضعيفة من يده ، كما لو انه يدعو  
للاختيار . فقلت في بطولية :

— قطعة جبن .

— والسيد ؟

فانفض :

— ماذا ؟ آه نعم : ان آخذ شيئاً . لقد انتهيت .

— لويز !

ودفع الرجلان السمينان ومضيا . وكان احدهما يعرج . وقادتها صاحبة  
المطعم ان الباب : انها زبونان هامين . فقد قُدمت لها زجاجة خمر في  
دلو تلج .

ورحت اتأمل العصامي في شيء من التدم : لقد تمتع طوال الاسبوع في  
تخيّل هذا الغداء الذي سيمكّنه من ان يُطلع انساناً آخر على محبته للناس . ان  
الفرص التي تتيح له ان يتكلم نادراً جداً . وهأنذا أقفد عليه متعته . انه في  
حقيقته على مثل توحدي ، فليس ثمة من يهتم به . غير انه لا يشعر بوحدته .  
اجل : ولكن لم يكن عليّ انا ان افتح عينيه . وأحسنتني مترعجاً : صحيح  
انني غاضب ، ولكن لا عليه ، بل على امثال فيرغان والآخرين . جميع الذين  
سمّموا هذا العقل المسكين . ولو كان بوسعي ان أوقعهم هنا ، امامي ، لكان  
لدي شيء كثير اقله لهم . اما العصامي . فلن أقول له شيئاً . فانا لا اكن له

غير الود : انه شخص من نوع السيد أشيل . من نوعي انا ، وقد كان يدافع من جهل . بدافع من ارادة حسنة !

وانتشرتني من احلامي الضجيرة ضحكة اطلقها العصامي :

- اعدوني يا سيدي . فاني حين افكر بعمق جيتي للبشر ، وبقوة الالنداعات التي تحملني اليهم . ثم اراها هنا تحاكم ونبرهن ... فان ذلك يعطيني الرغبة في الضحك .

فصمت . وابتمت بسمة مفتسرة . ووضعت الخادم امامي صحناً فيه قطعة من جبن الكامامير . وأجلت بصري في القاعة فغممني شعور نفور عفيف . ما الذي افعله هنا ما شأني والخطابة عن التزعة الانسانية ؟ ولماذا يكون هؤلاء الأشخاص هنا . لماذا يأكلون ؟ صحيح أنهم ، هم ، لا يعرفون أنهم كائنون . انني راغب في الذهاب . في الرحيل الى جهة اكون فيها حقاً « في مكاني » اتعلب فيها .. ولكن مكاني ليس في اية جهة ، انني زائد عن اللزوم .

رقت ملامح العصامي . كان قد نحشي من قبلي مقاومة اشد ، وهو يود حقاً ان يمرر بالإسفنجة على كل ما قلت . وقد مال عليّ بهيئة مساراة : - انك في اعماقك تحبهم يا سيدي . تحبهم مثلي : وانما تفصل بيننا كلمات .

لا استطع بعد ان انكلم . واني اخني رأسي . كان وجه العصامي بازاء وجهي تماماً . وقد ابتسم بسمة مزهومة ، بازاء وجهي تماماً ، كما يحدث في الكوايسس وأمضغ بمشقة قطعة حيز لا اقرر ان ابتلعها . البشر . يجب ان تحب البشر . ان البشر رائعون معجبون . إن بي رغبة للتقيؤ - وفجأة تم الأمر : « الغثيان » .

نوبة جميلة : نهزني من فوق الى تحت . منذ ساعة وانا اراها فادمة ، غير اني لم اكن اريد ان اعترف بها . طعم هذا الجبن في فمي ... العصامي يثرثر وصوته يطن بعذوبة في اذني . ولكني لا اعلم بعد على الاطلاق عن اي شيء يتكلم . وانا اقره آلياً برأسي . يدي منشججة على مقبض المذبة . وانا « أحس »



هذا المقيض الغشبي الأسود . ان يدي هي التي تمسكه . يدي . لو خُبرت شخصياً ، لآثرت ان اترك هذه المدينة وشأتها : فا جدوى ان يلمس المرء دائماً شيئاً ما ؟ ان الاشياء لم تُصنع لتُمس . فن الفصل ان يندس المرء بينها ، متجنباً اياها ما وسعه ذلك . انه يأخذ احدها احياناً بيده ، فيضطر الى تركه بأسرع ما يمكن . وتسقط المدينة على الصحن . فيستفض لصوتها السيد ذو الشعر الأبيض وينظر الي . وآخذ المدينة ثانية ، فأسند شفتها على الطاولة وأطربها .

هذا إذن هو « الغثيان » : هذه البدهية التي تُعني ؟ لقد حفرت رأسي ! لقد كتبت عنها ! وها انا الآن : كائن — العالم كائن — وأعلم ان العالم كائن . هذا كل شيء . ولكن الأمر لديّ سواء . وغريب ان يكون كل شيء لديّ سواء : هذا يذعرنني . لقد حدث هذا منذ ذلك اليوم العظيم الذي اردت فيه ان ألقي الحصى في البحر بحيث يمس سطح الماء . كنت اوشك ان اقذف تلك الحصى . فنظرت اليها ، وأتذاك بدأ كل شيء : لقد احسست بأنها كانت « كائنة » . وبعد ذلك ، حدثت « غثيانات » كثيرة : ان الاشياء تأخذ بين القينة والقينة في ان « تكون » في يدك . حدث غثيان مفهوى « رانديفو دي شامينو » ، وغثيان آخر ، قبل ذلك ، ليلة كنت انظر من النافذة ، وغثيان ثالث في الحديقة العامة . في يوم احد . وغثيانات اخرى بعد ذلك ، ولكن لم تكن قط قوية كما هو غثيان اليوم .

— ... من روما القديمة ، ياسيدي ؟

أظن ان العصامي يسألني . وأتفت اليه فابتسم له . ما به ؟ لماذا تراه يتكلم على كرسية ؟ التي اذن اثير الخوف الآن ؟ لا بد ان ينهني الأمر هكذا . والحق ان الأمر عندي سواء . انهم غير مخطئين تماماً في ان يخافوا : فاننا احسن جيداً ان يوسمي ان اقول اي شيء . ان اغرر مثلاً هذه المدينة التي تستعمل لقطع الجبن في عين العصامي . وبعد ذلك سيدوسني جميع هؤلاء الأشخاص ، وسيحفظون اسناني بصربات احديثهم . ولكن ذلك ليس هو ما يوققي : فان

مذاق دم في في بدلا من مذاق الجبن هذا ، لا يشكّل فرقا . غير انه لا بد من القيام بحركة . خلق حدث لا طائل فيه : فتكون الصبغة التي يطلقها العصامي زائدة عن الزوم - وكذلك الدم الذي يسيل على خده وانتفاض جميع هؤلاء الأشخاص . ان هناك ما فيه الكفاية من الأشياء التي توجد على هذا النحو .

الجميع ينظرون الي ، وقد نزع ممثلا الشباب حديثها العذب ، كان فم المرأة فارغاً كاست دجاجة لا بد اهم كانوا يرون . مع ذلك ، اني غير قابل للإيذاء .

وأفهم . وكل شيء من حولي يدور . ويحدث العصامي في بعينه الكبيرين اللين لن أقامهما . ويشتم  
هل انت ذاهب ؟

— اني متعب قليلا . وانت لطيف جدا أنك دعوتني الى اللقاء .

ولاحظت ، وأنا ذاهب ، اني احتضنت في يدي اليسرى عددة آخر الطعام . فألقيتها على صحن الذي اخذ بطن . واجتازت القاعة وسط الصمت . لقد كثر عن الطعام . اهم ينظرون الي . وقد انقطعت قابليتهم . لو انني تقدمت نحو المرأة الشابة وقلت لها : هم ، فستأخذ في الصراخ ، بلا شك لا فائدة من ذلك .

ومع هذا . فقد التفت قبل ان اخرج وأريتهم وجهي ليستطيعوا ان يخفروا في ذاكرتهم .

— ان اللقاء ، سادني سباتي .

فلم يجيبوا . ونسيت . ان محدودهم ستعود الآن ألوانها ، وسيأخذون في الترتة .

لا أدري اين اذهب . فأنا مزروع الى جانب الطباخ الكرونوي . ولا حاجة بي الى الالتفات لأعرف اهم ينظرون الي عبر زجاج النوافذ : اهم ينظرون الى شهري في دهشة واشتزاز ، كانوا يعتقدون اني كنت مثلهم . اني كنت

إنساناً واني خدعتهم . وفجأة ، ففدت مظهري الانساني ، فأرأوا سرطانياً  
يفرّ القهقري من هذه القاعة الانسانية . وها هو الدخيل الذي نزع قناعه  
يفرّ : وتستمرّ الجلسة . انه يزعمني ان أحسنّ في ظهري كلّ هذا  
التحرك والاضطراب للعيون والافكار المذعورة . وأجتاز الطريق الى الرصيف  
الآخر الذي يخاذي الشاطيء وغرف الحمامات .

هناك اشخاص كثيرون ينتزّعون على شاطيء البحر ، ويُدبرون نحو البحر  
وجوهاً ربيعية ، شاعرية : ان ذلك بسبب الشمس ، فهم في عيد . هناك نساء  
يرتدين ثياباً خفيفة سبق ان ارتدبنها في الربيع الماضي ؛ وهنّ يمررن طويلاً  
بيضاوات كففاضات جلدية ملمّعة ؛ وهناك ايضاً صبيةٌ كبار يقصدون اللبّ  
او مدرسة التجارة ، وشيوخ يتحلّون بأوسمتهم . انهم ، لا يعرف بعضهم  
بعضاً ، ولكنهم يتبادلون النظر في هيئة تواطئ ، لأن الطقس جميل جداً ،  
ولأنهم بشر . ان البشر يتعانفون من غير ان يتعارفوا ، في ايام اعلان الحرب ؛  
وهم يتبادلون البسائم عند حلول كلّ ربيع . ويتقدّم كاهنٌ بحظيٌّ بطيئة وهو  
يقرأ كتاب فرض الكهنة . وهو بين القبة والقبة يرفع رأسه وينظر الى البحر  
نظرة موافقة : فالبحر ايضاً كتاب فرض الكهنة ، انه يتحدث عن الرب .  
ألوان خفيفة . عطورٌ خفيفة ، أرواح ربيعية . «الطقس جميل ، البحر  
أخضر . افضل هذا البرد الجاف» على الرطوبة . يا للشعراء ! لو اخذت  
احدهم من ذيل معطفه ، وقلت له : تعال الى مساعدتي ، فسوف يفكر  
« ما هذا السرطان ؟ » وسيهرب تاركاً معطفه بين يدي .

وأولهم ظهري ، واستند بكلتا يديّ الى الدريزون . ان البحر «الحقيقي»  
بارداً وأسود ، زاهرٌ بالوحوش ؛ انه يزحف تحت هذه القشرة الرقيقة الخضراء  
التي صُنعت لتخدع الناس . وان الجنّ الذين يحيطون بي قد استسلموا لها : فهم  
لا يرون الا القشرة الرقيقة ، وهي التي تبرهن عن وجود الله . اما انا ، فأرى  
التحت ! ان الطلاء يذوب ، والجلود الصغيرة المخملية اللامعة تفرقع في كلّ  
مكان تحت بصري ، انها تنشق بعضها بعضاً . هوذا ترام سانت - المير ،

وأستدير على عقبى فتثور الأشياء معي ، صفراء وخضراء كأنها قواقع الصدف .  
غير مجد ، غير مجد ان انقز الى داخلها ، ما دمت لا أريد ان اذهب الى اي  
مكان .

وخلف الواجهاً ، تنخطف الأشياء المزرقة ، في موجات ، صلبة قابلة  
للكسر . أناس ، وجدران . ويعرض عليّ احد البيوت ، عبر نوافذه المفتوحة ،  
قلبه الاسود ، ويصفّر زجاج النوافذ كل ما هو اسود ، ويزرقه ، يزرّق  
هذا المسكن الكبير ذا القرميد الاصفر الذي يتقدم متردداً ، وهو يرتعش ، ثم  
يتوقف فجأة ، وهو يفرز بأنفه . يصعد سيد فيجلس قبالي . ويستأنف  
المسكن الاصفر سريره . فيتزلق بقفزة لزام الواجهاً الزجاجية ، ويصبح  
قريباً جداً حتى لا يرى منه بعد الا جزء . وقد أظلم واسود . وترتجف  
الواجهاً . ويرتفع ساحقاً ، أعلى من أن تمكن رؤيته . مع مئات من النوافذ  
المفتوحة على قلوب سوداء ، ويتزلق بإزاء العلبة فيلامسها . لقد حل الليل  
بين الواجهاً التي ترتجف . انه يتزلق بلا انقطاع . أصفر كالوجل ،  
والزجاج في زرقة السماء . ويختفي فجأة ، لقد بقي في الخلف ، ويغمر العلبة  
ضوء رمادي حتى ينتشر في كل مكان بعدل لا هوادة فيه : انها السماء ، وعبر  
زجاج النوافذ ، ترى بعد كثافات وكثافات من السماء ، لأن المرء يصعد  
شاطئاً ، اليقار ، ولأنه يرى رؤية واضحة من كلا الجانبين ، يمناً حتى البحر .  
ويساراً حتى حلبة الطيران . التدخين ممنوع حتى على يوهيمية .

وأعتمد بيدي على المقعد الخشبي الصغير ، ولكنني لا لبث ان أسحبها على  
عجل . انه كائن . هذا الشيء الذي انا جالس عليه ، والذي كنت أستاذ اليه  
بيدي ، يسمى مقعداً صغيراً . لقد صنعوه خصيصاً ليتمكن المرء ان يجلس عليه .  
وقد أخذوا جلداً ، ونوابض ، وقاشاً ، فاسمكوا في العمل . وفي بيتهم  
ان يصنعوا مقعداً ، حين فرغوا ، كان هذا هو ما صنعوه . ولقد  
حملوه الى هنا . الى هذه العلبة . وها هي العلبة الآن تتدحرج وترتج ،  
بزجاجها المرتجف ، وهي تحمل في جوانبها هذا الشيء الاحمر . وأعظم : انه

مفعد صغير ، كأنما هو تحرير . ولكن الكلمة تبقى على شفتي : إنها ترفض أن  
 تذهب فتخط على الشيء . إنها تظل ما هي . بقطيعها الحمراء ، آلاف من  
 الأراجل الصغيرة الحمراء . في الهواء . متصلة كلها . أرجل صغيرة مينة .  
 إن هذا البض غائل لتجده في الهواء . دائماً . منتفخاً . ملطخاً بكل أرجله  
 المينة . بطن يعوم في هذه العلية ، في هذه السماء الرمادية . ليس هو مفعداً .  
 فمن الممكن أيضاً أن يكون حاراً مينا . مثلاً . منتفخاً بالماء . وهو يعوم  
 بالاتفاق . وينطه في الهواء وسط نهر رمادي كبير . سر فيضان . وأكون أنا  
 جالساً على بطن الحمار . وقد ساءت نبتات في الماء الشفاف . لقد تحررت الأشياء  
 من اسمائها فهي ها وحشية . عبيدة . عملاقة . ومن السخف تسميتها بأنها  
 مفاعد أو التحدث عنها بأي شيء . انني وسط الأشياء التي هي غير قابلة  
 للتسمية . إنها تخط بي وحيداً . بلا كلام ولا حابة . نحي ، وعظفي . وفوفي .  
 إنها لا تعجب شيئاً . ولا تعرض نفسها . إنها هنا . وهناك تحت وسادة المفعد ،  
 أراء الخدام الخشفي . خط على صغير . خط صغير اسود بجري موارباً للمفعد  
 جرياً سرباً دكياً . فكانه بسمة . أنا اعلم جيداً أنه ليس بسمة . ومع ذلك فهو  
 كائن . بعدو تحت الزجاج لمبيض . تحت الزجاج الزجاج . وهو يعاد ، تحت  
 الصورة الزرقاء التي تختطف خلف الزجاج وتوقف . ثم تمضي . إنه يعاد  
 كذا كثرى مرة . ككلمة ليست نصف سيان ولم يعد يذكر منها  
 لا الشطع الأول . وفصل ما يمكن المرء أن يعمله هو أن يصرف عينه  
 ويعكر في شيء آخر . في هذا الرجل المصطبح على المفعد الصغير . قبالي ،  
 هناك وفي أنه لصقاري ذي العينين الزرقاء . إن القسم الأيمن من جسمه  
 قد ترسخ . وتصفت الذراع اليمنى بالخشو . واليد الأيمن يكاد لا يعيش ،  
 يعيش في نخل . كما لو أنه كان مشلولاً . ولكن هناك كبخونة طفيلية صغيرة  
 تتكاثر على الجب لايسر كله . قرحة . لقد أحدثت الذراع ترتجف . ثم  
 هبت . فكانت اليد متصلة في آخرها ثم أخذت اليد أيضاً ترتجف . وحين  
 بلغت مستوى الرأس . امتد اصبع وأُخذ يعلت بظفره . جلدة الرأس . وأقبل

نوع من التشكيرة الشهوية يسكن الجانب الأيمن من الفم ، ففصل الجانب الأيسر مبناً . الزجاج يرتج ، والذراع ترتجف ، والظفر يحك ، يحك . والفم يسم تحت العينين اللابتي ، ويحتل الرجل . من غير أن يشعر . هذه الكينونة الصغيرة التي تنفخ جنبه الأيمن ، التي استعارت ذراعه اليمنى وخذته الأيمن لتحقيق . وسد فمها الذكر الطريق علي .

انتظر الموقف

ولكني دفعته وقمزت خدج الترام . كان قد نقد مصري . لم أكن استطع عملي أن تكون هذه الأشياء قريبة هذا قرب . ودفعت حاجزاً . ودخلت ، فقمزت كينونات خطيفة قفزة واحدة وتعلقت بالفرى . انني الآن أجد نفسي وأعرف أين أنا . انني في الحديقة العامة ، وأنداعى للسقوط على مقعد بين الجذوع كبيرة السوداء . بين الأيدي المعقدة السوداء التي تمتد نحو سماء . وتحت شجرة لأرض تحت قدمي بطر سود . كم أود لو استسلم . لو انسى نفسي . لو نام . ولكني لا أستطيع . انني اختنق . إن الوجود يحترقني من كل مكان . من العينين . من الأنف . من الفم . وفجأة ، يتمزق أعجاب . لقد فهمت ، لقد رأيت .

#### الساعة السادسة مساء

لا أستطيع القول بأنني أحسني خفيفاً ولا مسروراً . بل إن ذلك . على العكس . يسحقني . غير أن غايي قد أدركت : انني اعرف ما كنت أود أن أعرفه . لقد فهمت كل ما حدث لي منذ كانوا الثنائي . إن العنان ، لم يتركني . ولا أحب انه سيتركني بهذه السرعة ، ولكنني لا أكابده بعد ، فهو لم يعد مرضاً ولا نوبة عارضة : انه أنا .

وإذن . فقد كنت الساعة في الحديقة العامة . وكان جذع شجرة الكشتا يغرر في الأرض ، تحت مقعدي تماماً . ولم أكن أذكر بعد انه كان جذواً . فقد غارت الكلمات . وغار معها معنى الأشياء ، وطرق استعمالها ، والمعلم

الضعيفة التي رسمها البشر على سطحها . كنت جالساً ، مقوساً بعض الشيء .  
منخفض الرأس ، وحيداً قبالة هذه الكتلة المعقدة السوداء ، الخام كلياً ، التي  
تثير خوفي . ثم حدث لي ذلك الاشرار .

وقد قطع ذلك نفسي . اني لم استشر فقط ، قبل هذه الايام الاخيرة ، ما  
كانت تعنيه كلمة « وجد » . كنت كالأخرين ، كأولئك الذين يشترهون على  
شاطئ البحر بشياهم الربيعية . وكنت أقول مثلهم « ان البحر » هو « أخضر »  
وتلك النقطة البيضاء ، هناك عالياً ، هي « عصفور الزمنج » ، ولكني لم اكن  
أحس بأن ذلك كان كائناً ، بأن الزمنج كان « زمنجاً - كائناً » ، ان الكيئونة  
تختفي عادة . إنها هناك ، حولنا ، فينا ، انها « نحن » ، ولا يمكن قول كلمتين  
من غير التحدث عنها ، وهي في النهاية لا تمس . ونحن كنت اظن اني افكر  
فيها ، فيجب الاعتقاد بأنني لم اكن افكر في شيء ، بسل كان رأسي فارغاً ،  
او كان في رأسي كلمة واحدة لا غير ، كلمة « الكون » . او انني كنت  
افكر ... كيف اعتبر ؟ كنت افكر « بالانتهاء » ، كنت أقول لنفسي إن  
البحر كان ينتمي لطبقة الأشياء الخضراء ، او ان الخضرة كانت صفة من  
صفات البحر . وحتى حين كنت انظر الأشياء ، كنت بعيداً عن التفكير بأنها  
كانت كائنة : فقد كانت تبدو لي كديكور . وكنت آخذها بيدي ، وكنت  
أعتبرها آلات ، وكنت أنبأ بمقاومتها . ولكن ذلك كله كان يحدث على السطح .  
ولو كنت سئلت عما عساه تكون الكيئونة ، لكنك أجبت بكل صدق  
بأنها ليست شيئاً ، وإنها على الأكثر شكل فارغ بأنني فبنضاف الى الأشياء من  
الخارج ، من غير ان يبدل شيئاً في طبيعتها . ثم فجأة ، كانت هناك ، واضحة  
كالنهار : لقد كشفت الكيئونة فجأة عن نفسها . كانت قد فقدت صفتها  
كصفة مجردة : كانت عجبين الأشياء بالذات ، ذلك الجذر كان معجوناً في  
الكيئونة . او على الاصح ، كان الجذر ، وحواجز الحديقة ، والمقعد ،  
والمشب النادر ، كان كل ذلك قد غار وتلاشى ، لم يكن تنوع الأشياء وفرديتها  
إلا مظهراً طلاء . وهذا الطلاء كان قد ذاب ، فبقيت كتل مسبخة رخوة

في غير النظام - عارية عرياً فظيماً داعراً .

كنت احرص على ألا آتي ادنى حركة ، ولكن لم تكن بي حاجة الى التحرك لأرى ، خلف الاشجار ، الأعمدة الزرقاء ومصباح كشك الموسيقى ، والفيلادا ، وسط غابة كثيفة من شجر الغاز . جميع هذه الاشياء ... كيف أعبر ؟ كانت ترعجني ؛ كنت أتمنى لو أنها كائنة بشكل اضعف ، بطريقة أكثر جفافاً ، أكثر تجريداً ، وبغزير من التواضع . كانت شجرة الكستناء تنضغط على عيني . وكان صدأ أخضر يغطيها حتى منتصفها ، وكانت القشرة المتورمة السوداء تبدو وكأنها من الجلد المغلي ؛ وكان خرير مياه نبع «ماسكوريه» يسيل في أذني ويقع له فيهما عثاً ، ويملأهما بالتهنيدات ؛ وكان منخراتي يفيضان برائحة خضراء عفنة . كانت جميع الاشياء تشملل للكينونة ، بلطف ورقة ، على غرار هاتيك النساء المتعبات اللواتي يستلمن للضحك لا يقلن : « ما ألد الضحك » بصوت مبتسل ؛ كن يتمددن ، بعضهن تجاه بعض ، ويتبادلن المساراة الكريهة عن كينونتتهن . وأدركت انه لم يكن ثمة وسطاً بين اللاكينونة وهذا الحصب الجذلان . فإذا كان المرء كاتباً ، فبنيقي ان يكون « كائناً حتى هذا الحد » حتى الشفق ، حتى التورم ، حتى الدعارة . ان الدوائر وأنغام الموسيقى ، في عالم آخر . تحتفظ بخطوطها النقية الصلبة . ولكن الكينونة التواء . فالأشجار والأعمدة المزرققة بالليل ، وهذيان نبع سعيد ، والروائح الحية ، والضباب الحراري الخفيف الذي يعوم في الهواء البارد ، ورجل احمر بهضم وهو جالس على مقعد : جميع هذه الالوان من الاعقاء والمضم تكشف ، حين تؤخذ معاً ، عن مظهر هزلي . هزلي ... كلا : لم يكن الامر يبلغ ذلك الحد ، فليس فيها هو كائن ما يمكن ان يكون هزلياً ؛ وانما كان ذلك شبيهاً عائماً ، يكاد يكون غير قابل للالتقاط . مع بعض مواقف القودفيل . لقد كنا كومة من الكائنات المترعجين ، المرتبكين بأنفسنا . ولم تكن نملك اي سبب لنكون هنا ، لأنحن ولا الآخرون ، وكان كل كائن قلبي مضطرب يُحس نفسه زائداً على الزوم بالنسبة للآخرين . « الزيادة على الزوم » : تلك كانت



الصلة الوحيدة التي استطع ان اقبسها بين هذه الاشجار ، هذه الحواجر ، هذا الحصى . وعبثاً كنت احاول ، عدت اشجار الكستناء . ورموت ضمتها ، بالنسبة لليلاد ، ومقارنة ارتفاعها بارتفاع اشجار الدلب : فقد كان كل منها يفتل من الصلات التي كنت احاول ان احبس فيها ، وينزل ، ويبيض . هذه العلاقات ( التي كنت اصرّ على إقامتها لأواخر انبهار العالم الانساني ، والمقاييس ، والكميات ، والاتحدث ) كنت أحس اعتباريتها . انها لم تكن بعض بعد على الاشياء ، رائدة على لزوم ، شجرة الكستناء . القائمة هناك قاتلي ان اليسار ، رائدة على اللزوم ، القيلاد ..

و أنا ، المسرخي ، المجر ، الحفق بأفكار كمدة - أنا ايضاً كنت رائدة على اللزوم . ومن حسن الخط اني لم اكن أشعر بذلك . كنت أفهمه خاصة . ولكي كنت منزعجاً لأنني كنت أعشى أن أحسن ( وما لبث ان الآن خدعاً من ذلك اني أعشى ان بأحدي هذا من وراء أسى . ومعى كموجة هائلة ) كنت أحرم بعموص في - أتحذف نفسي . لكني أعدم على لأقل احدي هذه الكيويومات الرائدة . ولكن موتي نفسه كان يكون رائداً على اللزوم . رائدة على اللزوم جنني . ودمي على هذا الحصى . بين هذه النباتات داخل هذه الحديقة السخنة . وأحمر المقصوم كان يكون رائداً على اللزوم في الاصل التي تكون قد تلفته . عظمي أخيراً - بعد ان تكون قد نظفت وطلّح عنها اللحم - فأصبحت نفية واضحة كالاسنان . كانت تكون هي ايضاً رائدة على اللزوم . كنت رائدة على اللزوم نسبة للخلود

إن كلمة العتبة تولد الآن تحت قلبي . صحيح اني لم اجدها حين كنت منذ حين في الحديقة . ولكنني لم أكن مع ذلك انتع عنها . فلم تكن لي حاجة اليها . كنت افكر بلا كلام . عن الاشياء . مع الاشياء . لم تكن العتبة فكرة في رأسي . ولاغات صوت . وانما كانت هذه الحبة الطويلة الميتة عند قدمي ، هذه الحبة الحشوية . حبة او طفر او جذر او محلب سر .

كل هذا سواء . ولقد كنت افهم ، من غير ان أكون صبعة واضحة : اني وجدت مفتاح « الكينونة » ، مفتاح « غيالي » . مفتاح حياتي نفسها . والواقع ان كل ما استطعت ان التفت به بعد يتلخص في هذه العبئة الاساسية . عبئة : كلمة أخرى . انني أنحيط تجاه الكلمات ، اما هنا . فقد كنت أمس شي . غير اني اود ان أثبت هنا الطابع المطلق لهذه العبئة . إن حركة او حدثاً في عالم البشر المألوف الصغير ليس هو عبئاً إلا بشكل نسبي : بالنسبة للظروف التي ترافقه . فان حُطِبَ مجنون مثلاً هي عبئة بالنسبة لما هو فيه من موقف . لا بالنسبة لجنونه . ولكني أنا قمت متدحين بتجربة المطلق : المطلق او العيني . فذلك الجذر . لم يكن ثمة ما يجعله عبئاً بالنسبة له . اوه ! أنتى لي ان أثبت ذلك الكلمات ؟ عيني . بالنسبة للحصى . وللأعشاب الصفراء ، وللوحل الجاف ، وللشجر ، وللسماء ، وللمقاعد الخضراء . عيني . غير ممكن التنفيس ، لا شيء يمكنه ان يشرحه — حتى ولا جنون للطبيعة عميق وعفوي . طبعاً ، لم أكن اعرف كل شيء . لم أكن قد رأيت الحية تنمو ولا الشجرة تزعزع . ولكن امام هذه الرجل الضخمة الخشنة لم يكن للجهل ولا للمعرفة أهمية : إن عالم الشروح والتعليلات ليس هو عالم الكينونة . الدائرة ليست شيئاً عبئاً ، فهي تُشرح جيداً بأنها دوران خط مستقيم حول احد طرفيه . ولكن الدائرة ايضاً غير كائنة . اما هذا الجذر ، فقد كان على العكس كائناً على قدر عجزي عن شرحه . كان يتعقده وجموده وانعدام الاسم له يسحرني ويملأ عيني وبعبدي بلا انقطاع الى كينونته الذاتية . وقد حاولت كثيراً ان أردد : « انه جذر » ولكن ذلك كف عن ان ينجح . كنت أرى جيداً ان المرء كان عاجزاً عن الانتقال من وظيفته كجذر ، كمضخة جاذبة ، الى هذا ، الى هذه القشرة القاسية الكثيفة ، الشبيهة بظهر القنمعة ، الى هذا المظهر الزينى ، الكاتب ، العبد . لم تكن الوظيفة تشرح شيئاً : وانما كانت تسمح للمرء بأن يفهم فهماً إجمالياً ما عساه يكون الجذر ، لا ما هو ، على الاطلاق . إن هذا الجذر ، بلونه ، وشكله وحركته المستمرة ، كان ... تحت كل شرح . كان كسل من

صفاته يقلت منه قليلاً ، بسبل خارجاً عنه ، يتجمد نصف تجمد ، ويصبح شيئاً ما تقريباً ، كانت كل صفة رائدة على الزوم في ، الجذر ، وكانت الأرومة كلها تعطيني الآن الشعور بأنها تندرج قليلاً خارج نفسها ، بأنها تنكر نفسها ، بأنها تضيق في تطرف غريب . وحككت عيني بهذا الطمر الاسود : لقد وددت لو أجرحه بعض الشيء . لا لغاية ، بل تحدياً ، ولكي أظهر على الجلد المدبوغ اللون الوردى الذي يظهر على الجلفنة : « لألعب » مع عتبة العالم ولكنني حين سحبت قدمي ، رأيت ان القشرة قد بقيت سوداء .

سوداء ؟ إن الجذر لم يكن ، أسود ، ولم يكن سواداً هذا الذي على قطعة الخشب - وإنما كان ... شيئاً آخر : إن السواد ، شأنه في ذلك شأن الدائرة ، لم يكن كائناً . وكنت أنظر ان الجذر : أكان ، أكثر من أسود ، ام كان أسود « تقريباً » ؟ ولكنني ما لبثت أن كففت عن التساؤل ، لأنني كنت أحس أنني في ميدان أعرفه . أجل ، لقد سبق لي ان ترصدت ، بهذا الفلق ، أشياء غير قابلة للتسمية ، وكنت قد حاولت - عبتاً - ان افكر بشيء عنها ، وكنت قد أحسست بصفاتها ، الباردة الساكنة ، تنظلت وتزلزلت بين أصابعي . مثلاً رافعة بنظرون دولف ، في ذلك المساء ، في مقهى « رانديغو دي شامينو » . لم تكن « الرافعة بنفسجية » وتمثلت اللطختين اللتين لم يكن ممكناً تعريفهما . على القميص . والخصاة ، تلك الخصاة العتيقة ، مصدر هذه القصة كلها : انها لم تكن . لم أكن أدكر جيداً على الصبغ ما كانت ترفض ان تكونه . ولكنني لم أكن قد سبت صمودها السليبي . وبد العصامي « كنت قد أخذتها وصافحتها ، ذات يوم . في دار الكتب ، ثم أخذني الاحساس بأنها لم تكن تماماً بدأ . كنت قد فكرت بدودة كبيرة بيضاء . ولكنها لم تكن ذلك ايضاً . وشغافية قدح البيرة الملتبسة ، في مقهى بابلي . ملتبسة هكذا كانت الاصوات والعطور والمدافعات فهي حين تنسل بسرعة تحت انفك كأنها اراتب مطرودة . فلا توليها اهتماماً كبيراً . فأنت تستطيع ان تغفلها ببساطة ومطمئنة . وتستطيع ان تعتقد انه كان في الديار رقة حقيقية او حمرة حفيفة . او رائحة حفيفة . او رائحة بنفسج

حقيقية . ولكن يكفي ان تمسكها لحظة . حتى يحل محل هذا الشعور بالرسي  
والأمن انزعاج عميق : ان الألوان والمذاقات والروائح لم تكن قط حقيقية ،  
ولم تكن قط هي نفسها ولا شيء سواها . ان الصفة الأبسط والأشد امتناعاً  
على التحليل كان فيها شيء زائد على لزوم بالنسبة لنفسها ، في قلبها . فالسواد  
القائم هنا ، بازاء قديمي ، لم يكن يبدو سواداً ، وانما كان بالاحرى جهداً  
غامضاً لتصور السواد بيذه شخص لم يسبق له ان رأى سواداً ولم يعرف ان  
يتوقف ، شخص تصور كائناً ملتبساً ، فيها وراء الألوان . كان ذلك « يشبه »  
لوناً ، ولكنه يشبه كذلك حُذوراً ، او افراراً ، او مُصالة — وشيئاً آخر ،  
رائحة مثلاً . كان ذلك بذوب رائحة ارض مبتلة ، او رائحة خشب دافئ .  
مبتل ، بذوب رائحة سوداء ممتدة كأنها الظلام على هذا الخشب العصبي ،  
ومذاقاً ليعرف بمضوغ ، مسكر . لم أكن « أراه » ببساطة ، هذا السواد :  
فالرؤية اختراع مجرد . فكرة منطقة ، مبسطة ، فكرة من افكار الإنسان .  
كان ذلك السواد ، الذي هو حضور مسترخ غير متشكل ، يتجاوز من بعيد  
الرؤية والشم والمذاق . ولكن هذا الغنى كان يتحول الى تشوش ، وينتهي به  
الأمر ألا يكون شيئاً ، لأنه كان زائداً على اللزوم .

كانت تلك لحظة عجيبة . كنت هنا جامداً مثلجاً . غارقاً في نشوة فطيرة .  
ولكن في وسط هذه النشوة بالذات ، كان شيء جديد يظهر ، كنت اعلمهم  
« الغيان » . وأملكه . والحق يُقال اني لم اكن اضع اكتشافاتي في صيغ .  
ولكني اعتقد انه سيكون يسراً علي الآن ان اضعها في كلمات . الشيء الجوهرى  
هو عدم لزوم الوجود . أفصد ان الوجود ، بالتعريف ، ليس هو اللزوم  
والضرورة . فان يوجد المرء . هو ببساطة ان « يكون هنا » ، ان الموجودين  
يظهرون . ويتدعون انفسهم « يتلاقون » ، ولكننا لا نستطيع ابدأ ان  
« نستنتجهم » . وأحب ان هناك اشخاصاً قد فهموا ذلك . غير انهم حاولوا  
ان يتغلبوا على عدم لزوم الوجود هذا بأن يخترعوا كائناً ضرورياً وسبياً لنفسه .  
والحق ان اي كائن ضروري لا يستطيع ان يشرح الوجود : ان عدم لزوم

الوجود ليس وهمًا ، ليس مظهرًا يمكن تبديده ، انه المطلق ، وبالتالي المجانية الكاملة . كل شيء مجاني . هذه الحديقة ، وتلك المدينة ، وانا نفسي . واذا اتفق لك ان ادركت هذا ، غار قلبك وأخذ كل شيء يعوم ، كما حدث ذلك المساء ، في مقهى « رانديفو دي شامينو » : ذلك هو القتيان ، وهذا ما يحاول « القذرون » - سكان « التل الأخضر » وسواهم - ان يخفوه عن انفسهم متفرعين بفكرتهم عن الحق . ولكن اية كذبة مسكينة هذه ! ليس ثمة من يملك الحق ، انهم مجانيون كلية ، كسائر الناس ، وهم يخفون في ألا يحسوا انفسهم زائدين على الزوم . وهم في انفسهم ، بصورة خفية ، « زائدون على الزوم » ، اي غير متشككين ، ملتبسون ، حزانى .

كم استغرق هذا السحر من وقت ؟ لقد « كنت » جذر شجرة الكستناء . او على الأصح كنت برمتي وعياً لكيونتها . وكنت ما أزال منفصلاً عنها - ما دمت أعيها - ومع ذلك كنت ضائعاً فيها . ولا شيء إلاها . وعي مترعج ، ولكنه كان مع ذلك يستسلم بكل وزنه ، بلا سند ، لهذه القطعة الخشبية الجامدة . كان الزمن قد توقف : بركة صغيرة سوداء عند قدمي ، وكان مستحيلاً ان يأتي شيء ما « بعد » تلك اللحظة . وقد وددت لو انزع نفسي من هذه المتعة الفظة . ولكي لم اكن اتصور ان ذلك ممكن ، كنت في الداخل ، وكانت الارومة السوداء « لا تمر » ، كانت باقية هنا . في عيني كما تبقى قطعة مفرطة الحجم في حلق انسان يأكل . ولم اكن استطيع ان اقلعها ولا ان ارفضها . بشمن اي جهد استطعت ان ارفع عيني ؟ بل هل تراني قد رفعتها ؟ ألم ألاش نفسي ، على الأصح ، منذ لحظة ، لكي أولد في اللحظة التالية مقلوب الرأس ، متجه العينين الى أعلى ؟ والواقع اني لم اشعر بأنه كان ثمة مرور او انتقال . ولكن اصبح مستحيلاً عليّ ، بصورة مفاجئة ، ان افكر بوجود الجذر . كان قد امسى . وقد ردّدت كثيراً : « انه كائن ، وهو ما يزال هنا . تحت المقعد ، يازاء قدمي اليمنى ، ولكن ذلك لم يكن يعني شيئاً بعد . ان الوجود ليس شيئاً يُفكر به من بعيد : بل ان ذلك يجب ان يفمرك فجأة ، ان يتوقف عليك ،

والا يتحرك ثقبلاً على قلبك ، كحيوان صمغ حائم - والا فليس ثمة شيء  
يعد على الإطلاق

ولم يكن ثمة شيء يعد على الإطلاق ، حيث عيني فارعت - وكنت  
محوياً بتحريتي ثم فجأة ، جعل شيء ما يتحرك امام عيني حركات  
خفيفة عبر ولفه كانت الريح هزفة الشجرة

لم يكن بسوءي ان ارى شيئاً يتحرك ، فان ذلك كان ينسبي لجميع تلك  
الكيونات الساكنة لي كانت تنظر الي كأها عيون ثابتة . وكنت قول لنفسي ،  
وانا تابع تأرجح الفصوص ، ان الحركات لا توجد ابداً ، مئة بالمئة ، وما  
هي التقلبات . مراحل بين كينونتين ، اوقات ضعيفة . وكنت أناهب  
لكي اراها تخرج من العدم . وتنضج تدريجياً ، وتنضج سبتاح لي اخيراً  
ان افاجيء كيونات في حالة الولادة .

ولكني لم احتج ان كثر من ثلاث ثوان لتخب جميع آلي . فعلى تلك  
الفصوص المترددة لي كانت تلمس ما حولها تلمس العيان . لم اتجمع في  
التقاط النقص ، ما ان الكينونة وان . فان فكرة لاتصال هذه هي بصاً  
من انزعاج البشر . انها فكرة مفرطة الوضوح . لقد كانت جميع هذه التحركات  
الدقيقة تتحرك - ونفث لتخرج على نفسه . كانت تتجاوز . من كل جهة ،  
الاغصان والفروع . وكانت تدور حول هذه الأيدي الخافتة . وتعمرها  
بالأعاصير الصغيرة . ان الحركة هي ، بكل تأكيد ، شيء يختلف عن الشجرة  
ولكنها كانت مع ذلك مطلقاً شيئاً . ولم تكن عيني لتلتقي قط الا ما هو امتلاء  
كانت اطراف الأعصان ترزخ بالكيونات ، كيونات تتجدد بلا انقطاع ولا  
تولد ابداً . وكانت الريح الكائنة تأتي فتحط على الشجرة كذباب ضخم ،  
وكانت الشجرة ترتعش ولكن الرعدة لم تكن صفة مواودة . انتقالاً من  
القوة الى القتل . وانما كانت شيئاً ، كد شيء . رعدة ينصب في الشجرة ،  
فيستولي عليها ، وهزها ، ثم فجأة يتركها . ويمضي بعيداً دائراً على نفسه  
كان كل شيء مختلفاً . كل شيء باسطاً ، لم يكن ثمة وقت ضعيف . كل شيء ،

حتى لأكثر الانتفاضات خفاء ، كان مصنوعاً من الكينونة وجميع تلك الكائنات التي كانت منهمكة حول الشجرة ، لم تكن قادمة من أي مكان ، ولا ذاهبة إلى أي مكان . كانت توجد فجأة ، وبعد ذلك تكف فجأة عن أن توجد : إن الكينونة لا ذاكرة لها ، فهي لا تحفظ بشيء يخص الترائين ، حتى ولا بذكري . الكينونة في كل مكان ، إلى ما لا حد ، زائدة على اللازم ، دائماً وفي كل مكان ، الكينونة التي لا يحدّها أبداً غير الكينونة . واستسلمت وأنا على المقعد ، طائشاً ، منهكاً بهذا التدفق لكائنات لا أصل لها : ففي كل مكان تضجرات وتفتحات ، وقد كانت اذناي تطان بالكينونة ، ولحي نفسي كان يغرق ويتفتح ويستسلم للتبرعم الكوني ، وكان ذلك يدعو للفرور . وفكرة : « ولكن لم هذه الكينونات كلها ، ما دامت جميعاً متشابهة ؟ » ما جدوى هذه الأشجار المتأللة كلها ؟ ما جدوى هذه الكينونات الناقصة والمستعادة بعتاد ، ثم الناقصة من جديد - كالجهد المرتبكة التي تبذلها حشرة قد وقعت على ظهرها ؟ ( كنتُ أحد هذه الجهود ) . إن هذه الغزارة لم تكن تختلف نتيجة السخاء ، على العكس . كانت كثيفة ، معوزة ، مرتكبة بنفسها . تلك الأشجار ، تلك الأجسام الكبيرة الخرقاء ... وأخذت أضحك لأنني كنت أفكر فجأة بالربيع العظيم الذي كان يوصف في الكتب ، مليئاً بالضجرات والتفتحات العملاقة . كان ثمة حمى يأتون ليحدثوك طيب خاطر عن القوة والصراع من أجل الحياة . أنراهم لم ينظروا قط إلى حيوان أو إلى شجرة ، إن شجرة الدلب هذه ، مع صفاتها المصابة بداء الثعلب ، وشجرة السديان هذه التي تعفت نصف تعفن . ودّوا أن يعملوني على الاقتناع بأنها قوتان قويتان خشتان تتدفقان نحو السماء . وهذا الجندر ؟ لقد كان واجباً عليّ بلا شك أن أتمثله غلباً شراً بترقي الأرض وينزع منها غذاءها ؟

كان مستحيلاً أن أرى الأشياء على هذا الشكل . أنها على الأصح ألوان من الرخاوة والضعف . كانت الأشجار تعوم تدفق نحو السماء ؟ الأصح أن سقوط ، كنت أتوقع في كل لحظة أن أرى الجذوع تتجمع كفضبان متعبة ،

وتتجمع لتسقط على الأرض كومة طرية سوداء ذات ثننيات . ولم تكن راغبة ، في ان توجد ، غير انها لم تكن تستطيع الامتناع عن ذلك ، هذا كل ما في الأمر . واذن ، فقد كانت كلها تُعَدُّ مطبخها على مهل ، في غير ما اندفاع ، وكان التسخ يصعد متمهلاً في المروق ، على مضض ، وكانت الجذور تنغرس على مهل في الأرض . ولكنها كانت تبدو في كل لحظة على وشك ان تترك كل شيء هناك وتتلاشى . كانت تستمر في الكينونة ، متعبة معمرة ، في كثير من الامسياء ، لأنها بكل بساطة كانت اضرب من ان تموت ، لأن الموت لم يكن يستطيع ان يأتيها الا من الخارج : ولم يكن ثمة غير الألحان الموسيقية لتحمل بزهر موتها في ذاتها كضرورة داخلية ، غير انها لم تكن كائنة ، ان كل موجود يولد بلا سبب ، ويستمر بدافع الضعف ، ويموت بالاتفاق ، وتداعيت الى الخلف ، وأسبلت جفني . ولكن الصور ما لبثت ، وقد أنفذت ، ان وثبت فأقابت تملأ عيني المفلقتين بالكينونات : ان الكينونة امتلاء لا يستطيع الانسان ان يتركه .

ويا لها من صور غريبة ! كانت تمثل طائفة من الاشياء . لا الاشياء الحقيقية ، وانما اشياء اخرى تشابهها . اشياء من خشب كانت تشبه كرامتي وقباقيب ، واشياء اخرى كانت تشبه نباتات . ثم وجهان : كانا الشاب والشابة اللذين تناولا الغداء بقريبي ، يوم الاحد الماضي ، في مطعم فيزالير . سميتان ، حارّان ، شهوانيان ، عشيان . بأذان حراء . وكنت ارى كفتي المرأة وصلبرها . كينونة عارية . ان هذين الاثنين — وذلك ما يذعرنني فجأة — كانا مستمرين في الوجود ، في جهة ما من بوفيل ، في مكان ما — وسط اية روائع ؟ — هذا الصبر العذب كان ما يزال يحثك بأقشة رطبة ، ويقع في المخزومات ، وكانت المرأة ما تزال تشعر بصدرها كائناً في ثوبها ، وكانت ما تني تفكر : « نهدي ، ثمرتاي الجميلتان » ، وتبسم بسمة سرية ، متنبهة الى تفتح نهديها اللذين كانا يدغدغانها ، ثم صرخت وألفيتني مفتوح العينين على سمعتها .

انتراني قد حلّمت به ، هذا الحضور المائل ؟ كان هنا ، مائلاً في الحقيقة ،



متدحرجاً في الشجر ، رخواً برمته ، مصمتاً كل شيء ، كثيفاً كله ، كأنه القاكهة المرببة . وقد كنت انا في داخله ، مع الحديقة كلها ؟ كنت خائفاً ، ولكني كنت خصوصاً غاضباً ، وكنت اجد ذلك على غابة البلادة والنفور ، وكنت اكره هذا الخليط المزيج . كان ثمة خليط ، كان ثمة خليط ! وكان يصعد نحو السماء ، وغمضي في كل اتجاه ، وبملا كل شيء بسقوطه المذبذب ، وكنت ارى منه اعمافاً واعمافاً . ابعد جداً من حدود الحديقة ومن البيوت ومن بوفيل ، ولم اكن بعد في بوفيل ولا في اي مكان ، كنت عائياً . ولم اكن مندهشاً ، وكنت اعلم جيداً انه « العالم » ، « العالم » العاري الذي يظهر فجأة ، وكنت اختنق غضباً من هذا الكائن العجبي الضخم . لم يكن بإمكان المرء حتى ان يسأل من اين كان ذلك كله خارجاً ، ولا كيف ثم ان وُجد عالم ، ولم يوجد لا شيء . لم يكن لذلك اي معنى . كان العالم حاضراً في كل مكان ، امام ووراء . لم يكن ثمة شيء « قبله » . على الاطلاق . لم تكن ثمة لحظة لم يكن يستطيع فيها الا يوجد . كان هذا هو ما يفيظني حقاً : اكيد انه لم يكن ثمة « اي سبب » لكي توجد . تلك الدودة السائلة . ولكن لم يكن ممكناً الا توجد ، كان ذلك متمماً على التكبر : فلنكي يتخيل المرء العدم ، فيجب ان يكون قد سبقه الى الوجود هناك في صميم العالم ، مفتوح العينين على سمعتها وحسباً ، ان العدم لم يكن الا فكرة في رأسي ، فكرة موجودة عائمة في هذا المدى الشاسع : وهذا العدم لم يكن قد جاء « قبل » الوجود ، كان وجوداً كأي وجود آخر ، وكان قد ظهر قبل كثير من الكيّنونات الاخرى . وصحت : « اية فذارة ! اية فذارة ! » وانتفضت لأختلص من هذه القذارة المذبذبة ، ولكنها كانت تقاوم بشدة ، والى ما لا نهاية له : وكنت اختنق في جوف هذا السأم الهائل ، ثم فرغت الحديقة فجأة ، كما لو انها سقطت في ثقب كبير ، واختفى العالم على النحو الذي جاء فيه ، او انني استيقظت - انني على اي حال لم اره بعد ، وكان باقياً ترابٌ اصفر حولي ، كانت تخرج منه اغصان ميتة منتصبة في الهواء .

ونهبست فخرجت . واذا وصلت الحاجز ، التفت ، مايتست لي الحديقة آنذاك . واستندت الى الحاجز ونظرت طويلاً . كانت بسمة الأشجار ، وكتلة الغار « تعني » شيئاً ما . كان هذا سرّ الكينونة الحقيقي . وتذكرت اني منذ ثلاثة اسابيع ، وكان اليوم يوم احد ، كنت قد التقطت على الاشياء نوعاً من الهيئة المتواضعة . اثراها كانت تتوجه اليّ انا ؟ كنت اشعر في ملل بأنني لم اكن املك اي وسيلة للفهم . اي وسيلة . ومع ذلك ، فقد كان هناك ، في الانتظار ، كان يشبه نظراً . كان هناك ، على جذع شجرة الكستناء ... كان هو شجرة الكستناء . لكان الاشياء افكاراً تتوقف في الطريق ، تنسى نفسها . تنسي ما كانت تريد ان تفكر به ، وتظل هكذا ، فضفاضة ، مع معنى عجيب صغير يتجاوزها . وكان يزعجني ، هذا المعنى الصغير : لم « اكن استطيع » ان افهمه ، حتى ولو ظلت سبعة سنة مستنداً الى الحاجز ، كنت قد تعلمت عن الكينونة كل ما كان بوسعي ان اعرف . وذهبت ، فدخلت الفندق . وهكذا ، كتبت .

### في الليل

اتخذت قرارى : ليس لي من مبرر بعدُ لأبقى في بوفيل ، مادمت قد انقطعت عن كتابة كتابي ، سأذهب للعيش في باريس . سأستقل يوم الجمعة قطار الساعة الخامسة ، وسألتقي يوم السبت بآني ، وأعتقد اننا سنقضي بصعة ايام معاً . ثم اعود الى هنا لأنهي بعض القضايا ولأحزم امتعني وصناديقي . وفي اول آذار ، عل ابعد تقدير ، سأكون سهائاً مقبلاً في باريس .

### الجمعة

في مقهى « رانديفو دي شامينو » . سينطلق قطاري بعد عشرين دقيقة . القويوعراف . شعور قوي بالمغامرة .

### السبت

أقبلت آني تفتح لي ، وهي ترتدي ثوباً طويلاً اسود وبالطبع ، لم تعد

لي يدها ، ولم تُلْقِ على السحبة . واحتفظت بيدي اليمنى في حجب سريري .  
وقالت بلهجة عابسة سريعة ، لتتخلص من الشكليات :

— ادخل ، فاجلس حيث تشاء ، الا على الارصفة قرب النافذة .

اها هي ، هي تماماً . لقد تركت ذراعيها تتدليان ، وكانت على وجهها  
شراسة كانت تصفي عليها في الماضي هيئة طفلة تعاني من العفوق . ولكنها  
الآن لا تشبه بعد طفلة . اها سمينة ، ولها صدر كبير .

وأغلقت الباب ، وقالت لنفسها بلهجة تأملية :

— لا ادري ان كنت سأجلس على السرير ...

واخيراً ، تداعت للسقوط على صندوق مغطى بسجادة . وكانت مشبهة  
متفجرة . فقد كانت تنقل بنقل وأثمة ، في شيء من الرشاقة . وهي تبدو  
مرتبكة بيداتها المقيشة ومع ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فانها هي نفسها .

واصعجت آني صاحبة :

لماذا تصيحكن ؟

لم نجب على التو ، كما هو شأنها دائماً ، وانعدت هيئة الماحكة

قولي لماذا ؟

— بسبب هذه البسمة العريضة التي تصفها منذ دخولك — انك تشبه

أباً قد انتهى من تزويج ابنته هيناً لا تنق واقعاً صعب معطتك واجلس .

نعم ، هنا اذا شئت .

وتبع ذلك صمت لم نحاول آني ان نقطعه ما اشد عُرِي هذه الغرفة !

في الماضي كانت آني تحمل في سفرها حقيبة كبيرة مملوءة بالشالات والشرائط

والخمارات الاسبانية والأقمعة اليابانية وصو أبيضال وكانت ما نكاد نتزل

مقدماً حتى ولو لم تنوي ان تبقي فيه أكثر من ليلة واحدة حتى يكون

منها الأول ان تفتح هذه الحقيبة ، وان تخرج منها كل ثرواتها التي كانت

تعلقها على الجدران ، وتُدليها من المصاييح ، وتبسطها على الطاولات او

على الأرض وفق نظام متغير ومحدد ، وفي أقل من نصف ساعة ، كانت أضواء  
غرفة ترتدي لباس شخصية ثقيلة وشهوانية ، لا هواده فيها . ربما كانت  
الحقيقية قد ضاعت ، أو بقيت في الاستبداد ... هذه الغرفة الباردة ، ببائها الذي  
ينفتح على غرفة التواليت عن شيء كتيب . أنها تشبه ، بأكثر ما فيها وأحزنه ،  
غرفتي في بوفيل .

وطلت آني تصحك . انني اعرف جيداً هذه الضحكة العالية المخنقة .

— انك لم تتغير . ما الذي تبحث عنه بهذه الهيئة المذعورة ؟

وابتسمت ، ولكن نظرتها حدثت في "بفضول يكاد يكون عدائياً .

— كنت افكر فقط ان هذه الغرفة لا تبدو مسكونة من قبلك .

فأجابت بلهجة غامضة :

— حقاً ؟

صمت جديد . إنها الآن جالسة على السرير ، شديدة الامتناع في ثوبها  
الاسود . إنها لم تنقص شعرها . وقد ظلت تنظر إليّ ، بهيئة ساكنة ، وهي ترفع  
حاجبيها قليلاً . "تري، أليس لديها إذن ما تقوله لي؟ لماذا حلقتي على المجيء؟  
إن هذا الصمت لا يُحتمل .

وقلت فجأة بلهجة مثيرة تثير الشفقة :

— انني مسرور لرؤيتك .

واختنقت الكلمة الاخيرة في حلقي . كان غيراً لي ان أصمت ، على ان  
أجد هذا الذي قلته فقط . أنها سوف تغضب بلا شك . وكنت أفكر بأن ربيع  
الساعة الاولى سيكون حقاً شافاً . في الماضي ، حين كنت التقى ثانية بآني ، حتى  
ولو بعد غياب اربع وعشرين ساعة ، حتى ولو في اليوم التالي لقاء مسائي ، لم  
أكن قط احسن العثور على الكلمات التي كانت تنتظرها ، تلك التي كانت  
تناسب ثوبها ، او الوقت ، او الكلمات الاخيرة التي تبادلناها في اللقاء السابق .  
ولكن ما الذي تريده ؟ انني لا استطيع ان احزره .

ورفعت عيني من جديد . كانت آني تنظر إلي في شيء من الحيرة .

— إنك إذن لم تتغير على الإطلاق ؟ إنك ما تزال على حملك ؟

كان وجهها يعبر عن الرضى . ولكن كم كانت تبدو متعبة !

وقالت : — إنك نصب ، نصب على حافة طريق . انك تشرح ، بلا اضطراب ،

وتشرح طوائف حياتك ، أنت « مولان » نفع على بعد سبعة وعشرين كيلومتراً .

وال « مونتا جيس » على بعد اثنين وأربعين . من أجل هذا ، أنا شديدة

الحاجة إليك

— الحاجة إلي ؟ — أنت بحاجة إلي في أثناء هذه الاعوام الأربعة التي لم أرك

فيها ؟ إنك إذن قد كنت متحفظة تحفظاً جميلاً !

تكلمت وأنا أستمع . إن يوسعها لا تعتقد أنني أكن لها ضريبة . وأحسن

هذه البسمة الأربعة على فـي . فيستولي علي الانزعاج .

— ما أحفك ! طبعاً أنت بحاجة إلى أن أراك . إذا كان هذا ما تقصده .

نعم أن ليس بك ما يسهل النظر بصورة خاصة . أبي بحاجة إلى أن

أراه ، وإلى أن تعتبر أنك شبه هيد ، المتر ، من اللاب الذي يحفظونه

في مكان ما بباريس . أو في الضواحي . وأنا لا اعتقد أن ثمة من يحب يوماً

في رديته

— وهذا ما نخدعك .

— هذا لدي سواء . أبي مسرورة أن أعلم أنه موجود . وأنه يساوي تماماً

جزءاً من عشرة ملايين من بيع الكرة الأرضية . وأن أفكر فيه كلما أحسدت

القياسات في منزلي ، أو كلما بيع لي فاش بالتر .

قلت ببرودة : — حقاً ؟

— ولكنك تعلم أن يوسعني ألا أفكر بك إلا كفضيلة مجردة . كنوع من

الحد . فستطيع أن تشكرني على أنني أذكر وجهك كل مرة .

ها هي ذي تعود ، تلك المناقشات الاسكندرانية التي كان علي أن أشارك

فيها ، في الماضي ، حين كانت تراودني رغبات بسيطة ونافذة ، كأن أقول لها

لاني كنت أحبها . او ان آخذها بين ذراعي . اما اليوم ، فليست لدي اية رغبة .  
وبما باستثناء الرغبة في ان اصمت وان انظر اليها ، وان اتحقق في الصمت من  
اهمية هذا الحدث العظيم : حضور آني نجدي . وفي نظرها ، أليكون هذا  
اليوم شبيهاً بالايام الاخرى ؟ إن يديها ، هي ، لا ترتجفان . كان لابد ان لديها  
ما تقوله لي يوم كتبت لي - او لعل ذلك كان بكل بساطة هوى من أهوانها .  
اما الآن فقد اضحى الامر . منذ زمن بعيد ، غير وارد

وابتسمت لي آني فجأة بحنو شديد الوضوح ، حتى ان الدمع صعد الى عيني .  
- لقد فكرت بك اكثر جداً مما فكرت بغير البلايين . لم ينقصر يوم من غير  
ان افكر فيك . وكنت اذكرك بصورة رقيقة حتى ادنى تفاصيل شخصك .

ونَهَضت ، وأقبلت تضع يديها على كتفي :

- هل تجرؤ على القول إنك كنت تتذكر وجهي ، انت الذي تشكو ؟

قلت : - هذا غيب ، فانت تعلمين جيداً ان لي ذاكرة ضعيفة .

- انت تعرف بذلك : لقد نسيتي تماماً . أتراك كنت عرفتي ، لو التقيتي

في الشارع ؟

- طبعاً . فليست هذه هي الغضبية .

- أكنت تتذكر لون شعري مثلاً ؟

- نعم . انه اشقر .

فأخذت تضحكك .

- انت تقول هذا مزهواً . إنك لا تملك كثيراً من الكفاءة ما دمت الآن

تراه .

وكنت شعري بضربة من يدها ، ثم قالت وهي تقلدني :

- وانت ، ان شعرك احر . إنني لن أنسى ابداً اني حين رأيتك للمرة

الاولى ، كانت لك قبة رغو تنزع الى اللون البنفسجي وتتألف بصورة قاسية

مع شعرك الاحمر . كان النظر الى هذا المشهد شاقاً . اين قبلك ؟ اريد ان أرى

اذا كنت ما تزال رديء الذوق .

- اني لا اضع بعد قبعة .

فصغرت صفرة خفيفة وهي توسع عينيها :

- إنك لم تتخذ هذا القرار بمفردك ! بلى ؟ اذن ، أنتك . طبعاً ! ولكن كان ينبغي التفكير في ذلك . ان هذا الشعر لا يتحمل شيئاً ، فهو يتناقص مع القبعات ومع وسائل الأرائك ، وحتى مع سجاد الجدران الذي يشبه خلفيته ، او انه لا بد من ان تفرز القبعة حتى أذنك ، كما كنت تفعل بتلك القبعة الانكليزية من اللباد التي اشتريتها من لندن . كنت تدخل خصلتك تحتها ، فلا يدري المرء اذا كان رأسك ما يزال يحتفظ بشعره .

وأضافت باللهجة الحاسمة التي تنتهي بها المنازعات القديمة :

- انها لم تكن تناسبك على الاطلاق .

ولم أدر بعد اية قبعة كانت تعني .

- اتراني كنت اقول إنها كانت تناسبني ؟

- اعتقد جيداً أنك كنت تقول ذلك . بل انك لم تكن تتحدث الا عن هذا .

وكنت تسرق النظر الى نفسك في المرايا ، حين كنت تحسب اني لم اكن اراك .

إن هذه المعرفة للماضي ترهقني . إن آني لا يبدو عليها انها تبث ذكريات ،

فلهجتها لا تملك تلك النكهة الرقيقة البعيدة التي تناسب هذا النوع من الهم .

بل يبدو انها تتحدث عن اليوم ، او عن الامس ، على الاكثر ، لقد احتفظت

بآرائها وعنادها وحقد السابقي . اما بالنسبة لي ، فان كل شيء قد غرق ، على

العكس ، في ضباب شعري ، انني مستعد لجميع التنازلات .

وقالت لي فجأة بصوت لا لحن له :

- انت ترى اني انا قد سمحت ، وشخت ، فيجب ان أعني بنفسني .

نعم . وكما تبدو متعبة ! وأردت ان اتكلم ، ولكنها سرعان ما أضافت :

- لقد قت بالتمثيل على المسرح ، في لندن .

- مع « كاندلر » ؟

- لا ، ليس مع كاندلر . لأنني افهم هنا قصدك تماماً . فقد حشوت رأسك

بفكرة اني سأعاطي التمثيل مع كاندلر . كم مرة ينبغي ان اقول لك ان كاندلر قائد فرقة موسيقية ؟ لا ، وإنما في مسرح صغير اسمه « سوفوسكووار » . وقد مثلنا « الامبراطور جونس » ومسرحيات السين او كازي ، ولسانج ، وبريتانيكوس . فقلت بدهشة : — بريتانيكوس ؟

— نعم ، بريتانيكوس . ومن اجل هذا ، تركت . فأنا التي اعطيهم فكرة تمثيل بريتانيكوس ، وقد ارادوا ان يسندوا إليّ دور « جوني » . — صحيح ؟

— وبالطبع ، لم اكن استطيع ان أمثل الا دور أغريين .

— والآن ، ماذا تفعلين ؟

وأخطأت في طرح هذا السؤال . فقد انسحبت الحياة كلها من وجهها . ومع ذلك ، فقد اجابت على الفور : — لقد انقطعت عن التمثيل .. انني سأسافر . وهناك شخص يفتق عليّ .

وابتسمت :

— اوه ! لا تنظر إليّ بهذا الاشفاق . فليست القضية فاجعة . لقد قلت لك مراراً انه لا مانع لدي من ان يفتق عليّ . ثم انه شخص مسنّ . فهو غير مزعج .

— أهو انكليزي ؟

فقالت في ضيق : — ولكن ما عسى ذلك ان يهتك ؟ إننا لن نتحدث عن هذا الشخص . فهو لا اهمية له على الاطلاق ، لا بالنسبة لك ولا بالنسبة لي . هل تريد فنجان شاي ؟

ودخلت غرفة التواليت . وسمعتها تروح ونجيء ، فتحرك أو اني ، وتحدث مع نفسها : متممة ثاقبة لا يفهم منها شيء . وكان على طاولتها الليلة ، بالقرب من سريرها ، كما هي العادة دائماً ، جزء من « تاريخ فرنسا » لميشليه . وأرى الآن انها قد علقت فوق السرير ، صورة واحدة ، هي نسخة من وجه اميلي برونتي ، مرسومة بريشة أخيها .



وعادت آني فقلت لي فجأة :

— والآن ، يجب ان تحدثني عنك .

ثم اخضت من جديد في غرفة التواليت . وبالرغم من رداءة ذاكرتي ، فاني اذكر هذا : كانت تطرح عليّ بعض هذه الأسئلة المباشرة التي كانت تزعجني جداً ، لأنني كنت أحسّ فيها ، في الوقت نفسه ، اهتماماً صادقاً ورغبةً في إتمام الأمر بأقصى سرعة . ومهما يكن . فقد كانت ، بعد هذا السؤال ، تريد مني شيئاً دون ما شك . والآن ، ليست هذه إلا مقدمات : التحلّص مما قد يضايق ، والانتهاء من القضايا الثانوية . والآن ، يجب ان تحدثني عنك . انها عما قليل ، ستحدثني عن نفسها . ورأيت عتي ، بالثوب ، ابة رعية في ان أروي لها شيئاً . ما جدوى ذلك ؟ « الغثياح » ، الخوف الكينونة . الأفضل ان أبقي ذلك كله لي .

وصاحت عبر الباب :

— هباً ، عجل في الكلام .

وعادت تحمل ابريق شاي .

— ماذا تفعل ؟ هل انت ساكن في باريس ؟

— انني ساكن في بوفيل .

— في بوفيل ؟ ولماذا ؟ انك لم تتزوج ، على ما أرجو ؟

قلت متغصّاً : — أتزوج ؟

انه يلذني ان تكون آني قط فكرت بذلك . وقلت لها :

— هذا محال . هذا بحث الى التخييلات الطبيعية التي كنت تأخذنيها عليّ

في السابق . تذكرين حين كنت أتصورك أرملةً وأماً لولدين . وجميع تلك

القصص التي كنت أرويها لك عما سوف نصبحه . لقد كنت تحقرين ذلك .

فأجابت من غير ان تضطرب :

— واثت كنت تلتذ بذلك . كنت نتحدث عنه لتظهر قوياً . والحق انك

تفناظ هكذا في الحديث ، ولكنك أجبين من ان تتزوج يوماً . لقد احتججتي

طوال عام ، في غبط شديد ، رافضاً ان يذهب لمشاهدة « بنفسج امبراطوري »  
ثم حدث ان مرضت يوماً ، فذهبت وحدك تشاهد الفيلم في دار صغيرة من دور  
الحلي السبائية .

قلت في رصانة :

— اني مقبم في « بوفيل » لأنني اضع كتاباً عن السيد دوروليون .

فقطرت إليّ آني باهتمام :

— السيد دوروليون ؟ كان يعيش في القرن الثامن عشر ؟

— نعم .

— ها ! ها !

إذا طرحت عليّ سؤالاً آخر . فاني سأروي لها كل شيء . ولكنها لم تسألني  
شيئاً بعد . وكانت تحكم ، من الظاهر ، بأنها تعرف عني ما هو حشيتها . ان آتي ،  
تحسن الاصغاء جيداً . ولكن حين تريد فقط . ونظرت اليها : لقد أسبلت  
جفونها . إنها تفكر بما ستفعله لي . وبالطريقة التي تبدأ بها . أينيغي لي ان أسأله  
بدوري « لا احب انها حريصة على ذلك . ستتكلم حين ترى ذلك مناسباً .  
وحقق قلبي خففاً شديداً حين قالت :

— اما أنا فقد تغيرت .

تلك هي البداءة . ولكنها صحت الآن . وجعلت تصب الشاي في فناجين من  
البورسلين الابيض . وانتظرت ان أنكلم : يجب ان اقول شيئاً . لا اي شيء ،  
وانما ما تنتظره . إنني أتعذب . أهي قد تغيرت حقاً ؟ لقد صحت ، والتعب  
يبدو عليها : ولكن ليس هذا ، أنا أكيد ما تقصد إليه .

ادري . لا أرى انك تغيرت . لقد وجدت ضحكك ثانية ، وطريقك  
في التهوض وفي وضع يدك على كفتي . وهوسك بأن تحادثي نفسك . انك  
ما زلت تقرئين « تاريخ » ميشليه . ثم ركام آخر من الاشياء ...

ذلك الاهتمام العميق الذي تكنه لجوهري الخالد . ولا مبالاها الكلية بجميع  
ما يمكن ان يحدث لي في الحياة . ثم هذا التصنع الغريب ، المتحذلق

والفنان في وقت واحد - ثم تلك الطريقة بحذف جميع الصيغ الآلية للتأديب والصدقة ، جميع ما يسهل علاقات البشر فيما بينهم ، وإجبار محدثيها على القيام باختراع أبدي .

رفعت كتبها وقالت بحفاء :

- بلى ، لقد تغيرت ، لقد تغيرت كلياً . فأنا لست بعدُ الشخص نفسه . وكنت اظن انك ستلاحظ ذلك من النظرة الأولى . وها انت تأتي لتحدثني عن تاريخ ، مثليه .

وأقبلت تنزع امامي :

- سرى اذا كان هذا الرجل قوياً الى الحد الذي يزعم . إبحث : في أي شيء قد تغيرت ؟

فترددت ، وطرقت بقدميها الارض . ما تزال باسمة ، ولكنها مترعجة بوضوح .

- كان شيء ما في الماضي يعذبك . او انك كنت تزعم ذلك ، على الأقل . والآن انتهى هذا ، اختفى . ولا بد انك قد لاحظت ذلك . أترك لا تحسن بعد بالرضى ؟

فلم أجرو ان أجيبها بالنفي : فأنا . على عادي في الماضي ، جالساً بأطراف فخذي على كرسيي ، مهمت بتجنب الفيخاخ ، وبغادي ألوان من الغضب لا تشرح .

وكانت قد عادت للجنوس . فقالت وهي تهز رأسها باقتناع :

- اذا كنت لا تفهم ، فهذا يعني انك قد سبت كثيراً من الاشياء . اكثر مما كنت اظن . أترك لا تذكر بعد مساوئك الماضية ؟ كنت تأتي . وكنت تتحدث ، وكنت تذهب : كل ذلك في غير أوانه . تصور ان شيئاً ما لم يتغير : تدخل فتجد أفمة وشالات على الجدار ، وتجدني جالسة على السرير ، وتسمعي أقول لك ( ورمت رأسها الى الخلف ، ومددت منخربها وتكلمت بصوت مسرحي ، كما لو انها تود ان تسخر من نفسها ) : « ولكن ماذا تنتظر ؟

اجلس ! ، وطبعاً تجدني اتفادى بعناية ان اقول لك : الا على الاريكة ،  
قرب النافذة .

- كنت تنصبين لي شراكاً .

لم تكن شراكاً ... وطبعاً ، ستذهب انت توافنجلس عليها .

قلت وأنا ألتفت متأملاً الاريكة بقضول :

- وما الذي كان سيحدث لي ؟

كانت الاريكة ذات مظهر عادي ، يوحى بالدعة والراحة . وأجابت

آني بانجاز :

- لا شيء الا الاذى .

ولم ألع : لقد احاطت آني نفسها دائماً بأشياء محرمة .

وقلت لها فجأة :

- أعقد اني أحرز شيئاً ولكن ذلك سيكون غارقاً . انظري . دعيني

أبحث : الواقع ان هذه الغرفة عارية تماماً . ستعرفين لي بأني لاحظت ذلك

على الفور . حسناً . انني أتمنئني داخلاً . مشاهداً في الواقع هذه الاقنعة على

الجلدران ، والشالات وذلك كله . كان الفندق يتوقف دائماً عند بابك فقد

كانت غرفتك شيئاً مختلفاً ... ولن تأتي لتفتحي لي الباب . بل كنت سأراك

جاثمة في ركن . وربما جالسة على الارض ، فوق هذه السجادة الحمراء التي

كنت تحملينها معك دائماً . ناظرة اليّ بلا رحمة ، منتظرة .. وما أكاد

أنطق بكلمة ، او آتي بحركة ، او أنتفسر ، حتى تأخذني بتقطيب حاجبك ،

فأحتسي مذنباً بعمق ، من غير أن أعرف السبب . وسأراكم بعد ذلك الأخطاء

والمهاذات ، من دقيقة الى دقيقة . وأغرقني في خطيئتي ...

- كم مرة حدث ذلك ؟

- مئة مرة .

- على الأقل ! فهل انت أبرع الآن وأرهف حساً ؟

- لا !

- أحب أن أسمعك تفوهها . وأذن

- اذن ، ليس بعد من ...

فصاحت بصوت مسرحي

- ها ! ها ! انه لا يكاد يحرز على تصديق ذلك

واستطردت على مهل :

- حسناً ! بوسعك ان تصدقني . ليس ثمة من هذه بعد .

- ليس ثمة لحظات كاملة بعد ؟

- أجل .

وأصبت بالدعر . فقلت ملحاً :

- لك في آخر الأمر ... لقد انتهت هذه ... المآسي . هذه المآسي

المؤقتة التي كان للاقعة واشالات وقطع الاثاث ولي انا نفسي دور صغير

فيها - وكان لك انت دور كبير ؟

فابتسمت :

- بالتحق ! لقد أسندت ليه احياناً ادواراً اهم من دوري : ولكنه

لم يلاحظ ذلك . أكل . انتهى هذا . هل انت متدهش ؟

- نعم . انني متدهش ! كنت أحب ان ذلك كان جزءاً من نفسك ،

وأنه ذا الشروع منك . فان ذلك سيكون شبيهاً بانفزع قلبك

فقلت بلهجة من لا يأسف على شيء :

- كنت أحب ذلك انا ايضاً .

وأصابت بشيء من السحرة ترك في نفسي أثراً مزعجاً

- ولكنك ترى ان يوسعي أن أعيش بلا هذا

وشككت أصابعها مخنطة باحدى كفتيها بين يديها ونظرت في الفضاء .

وبسمة غامضة تعيد الشباب لوجهها كله . كانت تشبه فتاة صغيرة

سعيدة ، غامضة وراضية .

- اجل ، اني مسرورة انك بقيت كما انت . فلو فلقوا مكانك او احادوا  
رسلك او ركزوك على حافة طريق اخرى ، لعقدت كل ثابت يوحني . اني  
لا استحي عنك . فانا أتعب . اما أنت . فالتفت عليه ان تظل غير قابل  
لتعب . وأنا أقيس تعباتي بالسبية اليك .

وأحسنتي مترعجاً بعض الشيء ، مع ذلك ، فقلت بحموية :

- الحق ان هذا غير صحيح . فانا على العكس قد تغيرت في هذه  
الايام . وفي الحقيقة ..

فقلت باحتقار ساحق :

- اوه ! تغيرات فكرية ! يا انا . فقد تغيرت حتى بياض عيني .

حتى بياض عينيها . ما الذي تراه . في صوتها . قد ررع في الاضطراب ؟  
على كل حال ، قلت فجأة بقفزة ! مكففت عن البحث عن آتي غضبية . ان  
هذه القنافة . هذه الفتاة السميكة ذات السحنة المهذمة هي التي تؤثر في وأحبها .  
ان في نوعاً من اليقين . المادي . فانا أشعر بان ليس ثمة لحظات كاملة .  
احسن ذلك حتى في سأتي . حين أسير . احسن طوال الوقت . وحتى حين  
أنام . وانا لا أستطيع ان أساء . ولم يحدث قط اي شيء يشبه كسفاً . فانا  
لا أستطيع ان أقول . ابتداء من هذا اليوم . او من تلك الساعة ، تغيرت حياتي .  
ما الآن . فانا في وضع الحسب . ذلك قد كُشِفَ في فيه فجأة . ليلة أمس .  
انني مسرورة . سرعجة . غير معتادة .

قالت هذه الكلمات بصوت هدهدي . ما زال فيه ظل من الليالي بأن تكون  
قد تغيرت ان هذا الحد . وكنت تأرجح على صندوقها برشاقة فائقة . ولم  
يحدث . منذ ذلك . ان أشبهت هذا الشيء كله ، آتي ، الماضية . ساكنة  
مارسيليا لقد استعادتني . وغرقت ثانية في عالمي العجيب . فيها وراء الضحك  
والخدعة . والتصنع بل اني قد استعدت تلك الحمى الصميرة التي كانت  
تغيرني دائماً في حضورها . وذلك المذاق المر في جوف في  
وحلت آتي بدنها وتركت ركبتها . ولرمت الصمت . انه صمت مدبر ،

كما يحدث في الاوبرا ، حين يبقى المسرح فارغاً ، بينما تتصاعد سبعة ألحان من الجوقة . انها تشرب شايتها ، ثم تضع قنجانها وتظل متصلة وهي تعتمد يديها المغنقتين على طرف الصندوق .

وفجأة أضفت على وجهها تلك السحنة المبدوزية الرائعة التي كنت احبها كثيراً ، والتي كانت تفيض حقداً وتوتراً وسمماً . ان آني لا تغير تعبيرها قط ، وهي تغير وجهها كما كان الممثلون القدامى يغيرون أفعنتهم : فجأة . ويكون كل قناع من هذه الأقنعة مرصوداً لخلق الجو ، واعطاء اللهجة لما سوف يلي . انه يظهر ويبقى من غير ان يتغير ، فيها هي تتكلم . ثم يسقط ، ويتفصل عنها .

وتحدق في من غير ان تراني . انها تهم بالكلام . وانتظر خطاباً مأساوياً ، مرتعاً الى مستوى قناعها . لحناً جنازياً . ولكنها لم تقل الا كلمة واحدة .

— اني احيا . رغم فقدان حواسي .

لم تكن اللهجة متناسبة قط مع تعبير الوجه . انها ليست مأساوية ، انها ... فظيعة : فهي تعبر عن يأس جاف ، بلا دموع . ولا شفقة . أجل ، كان فيها شيء قد جف دون ما سبيل الى معالجته .

وسقط القناع ، وابست :

— انا لست حزينة على الاطلاق . وقد سبق ان دهشت لذلك مراراً ، ولكني كنت على خطأ : لماذا أكون حزينة ؟ كنت جديرة في الماضي بعواطف عنيفة جميلة . لقد كرهت امي بهوس ... ثم أضافت بتحد :

— وانت بالذات ، لقد احببتك بهوس .

وانتظرت جواباً ، فلم أقل شيئاً .

— كل ذلك قد انتهى طبعاً .

— كيف يمكنك ان تعرفي ذلك ؟

- أعرفه : أعرف أنني لن ألتقي بعد شيئاً ولا أحداً يوحى لي عاطفة مهووسة . أنت تعلم أنها عملية ، أن يأخذ المرء في محبة أحد . يجب أن تتوفر له الطاقة والأقبال السمح والفرس الأعمى ... بل إن هناك لحظة ، في أول الأمر ، ينبغي له فيها أن يقفز من فوق هوة : فإذا فكر ، لم يفعل . وأنا أعلم أنني لن أقفز بعد أبداً .

لماذا ؟

فرميتني بنظرة ساخرة ولم تجب . ثم قالت :  
- أنني الآن أعيش محاطةً بعواطف الميثة . وأحاول أن أجدر مرة أخرى ذلك الغضب الرائع الذي حلني على إلقاء نفسي من الطابق الثالث ، حين كنت في الثانية عشرة ، يوم صفعتني أمي بالسوط .  
وأضافت ، من غير صلة ظاهرة ، وبلهجة بعيدة :  
- وليس مستحسنًا كذلك أن أحرق طويلاً في الأشياء . أنني أنظر إليها لأعرف هويتها ، ثم يجب أن أصرف عنها بصري بسرعة .

ولكن لماذا ؟

- أنها تثير اشترازي .  
عجباً ، ألا يشبه هذا ؟ . إن هناك بالتأكيد وجوه شبه ، على أي حال . وقد سبق أن حدث مثل هذا مرة ، في لندن ، إذ فكرنا التفكير نفسه ، بصورة منفصلة . بشأن بعض الموضوعات ، في اللحظة نفسها تقريباً . أود كثيرًا لو ... ولكن التفكير بأن آتي تقوم باللف والدوران ... إن المرء لا يثق قط بأنه فهمها تمامًا . فيجب أن أكون على يقين من ذلك .  
اسمعي ، أود أن أقول لك : أنت تعلمين أنني لم أعرف قط ما عداها تكون اللحظات الكاملة ، فأنت لم تشرحبها لي قط .  
- نعم ، أعرف ، أنك لم تكن تبذل أي جهد . كنت تتصب وتندأ ، بالقرب مني .  
- يا للأسف ! أعرف ما كلّفني هذا .



- لقد استحققت تماماً كل ما حدث لك . فقد كنت مذنباً كبيراً ، كنت  
ترعجني بهشتك الصلبة . كنت تبدو وكأنك تقول : انني ، انا ، طيبي ،  
وكنت تجتهد في تنعّس الصحة ، كنت تفطر صحة معنوية .  
- غير انني طلبت منك اكثر من مئة مرة ان تشرحي لي ما هو...  
فقال غاضباً :

- صحيح ، ولكن بأية لهجة ! كنت تنازل للاستفهام . هذه هي الحقيقة .  
كنت تطلب هذا بود شرود ، كالسيدات العجائز اللواتي كنّ يسألنني بم  
كنت ألعب ، حين كنت صغيرة .  
وأضاف بلهجة حائلة :

- وأنا أنساءل في الحقيقة عما ادا لم تكن انت من كرهت اكبر الكره .  
وبدلت جهداً ضد نفسها ، ثم استدركت وانسمت . ما زال خدأها  
ملتهين . اها جميلة جداً .

- انني اريد ان اشرح لك ذلك . لقد شئت الآن بما فيه الكفاية  
لأحدث بلا غضب الى العجائز الطيبات ، مثلك . عن ألعاب طفولتي .  
هياً . تكلم . ما الذي تريد ان تعرف ؟  
- ما كانت اللحظات الكاملة

- لقد حدثت طويلاً عن الأوضاع ذات الامبا .  
- لا اعتقد ذلك .

قالت بتأكيد - بل . حدث ذلك في « اكس » . في تلك الساحة  
التي لا اذكر بعد اسمها . كنا في حديقة مقهى . تحت شمس ساطعة ، تحت  
مظلات برتقالية . انك لا تذكر كنا نشرب عصير الليمون . وقد وجدت  
دباباً ميتاً في السكر المسحوق .  
- آه ، نعم . ربما .

- لقد حدثت عن هذا في ذلك المقهى . حدثت عنه بعدد الطبعة الكبيرة  
« تاريخ » ميشليه . تلك التي كنت أملكها وانا صغيرة . لقد كانت أكبر جداً

من هذه الطبعة ، وكان لورفها لود" كتاب ، كلون قلب الفطر ، وكانت لها رائحة الفطر ايضاً . وبعد موت أبي ، وضع عمي جوزيف يده عليها وأخذ جميع المجلدات . وفي ذلك اليوم ، دعوته ختبراً كبيراً ، فصرختني امي بالسوط وكان ان قفزت من النافذة .

— نعم . نعم ... لا بد انك حدثني عن " تاريخ فرنسا " هذا ... ألم تكوني تقرأينه في علية للحبوب ؟ اني اذكرك كما ترين . وترين انك كنت طاملة منذ لحظات حين كنت تنتهينني بأنني نسيت كل شيء .

— اسكت . لقد كنت أعمل ، كما تذكرت ذلك جيداً ، هذه الكتب الضخمة الى العلية . وكانت الصور فيها قليلة جداً ، ثلاث صور او اربع في كل جزء . ولكن كلاً منها كان يمثل وحده صفحة بكاملها ، صفحة كان قفاها أبيض . وكان هذا يختلف في تقسي أترأ كبيراً ، لاسيما وان النص كان قد وضع ، في الاوراق الاخرى ، على عمودين كسباً للمجال . وكنت أكن لهذه الصور حباً فائقاً ، وكنت أعرفها كلها عن ظهر قلب . وحين كنت اعيد قراءة كتاب ميشليه ، كنت أنتظرها خمسين صفحة مسبقاً ، وكان يبدو لي معجزة دائماً ان اعثر عليها من جديد . ثم انها كانت تنطوي على سر دقيق : لم يكن المشهد الذي تمثله يتعلق قط بنص الصفحات المجاورة ، وانما كان ينبغي البحث عن الحادث على بعد ثلاثين صفحة .

— أبتهل البك ، حدثيني عن اللحظات الكاملة .

— انني احديثك عن الأوضاع ذات الامتياز . كانت هي تلك الماثلة على الصور ، وانا التي كنت اسميها ذات الامتياز ، اذ كنت اقول لنفسي انها لا بد ان تكون ذات أهمية كبيرة حتى وافقوا على ان يجعلوها موضوع هذه الصور النادرة . لقد اختاروها بين جميع الصور ، ومع ذلك فقد كان ثمة كثير من القصص تحمل قيمة اكبر ، واخرى تحمل أهمية تاريخية اكبر . فثلاً كان ثمة ثلاث صور فقط ، تمت الى القرن السادس عشر كله : احداها تمثل موت هنري الثاني ، والاخرى مقتل الدوق دوغيز ، والثالثة دخول هنري الرابع

الى باريس . اذ ذاك تصوّرت انه كان هذه الأحداث طبيعة خاصة . والحق ان الصور كانت تدعني في هذه الفكرة : فقد كان الرسم فيها فجأ ، ولم تكن الاذرة والسيقان معلقة تعليقاً محكماً بالجذوع . ولكن الصور كانت ملأى بالعظمة . ففي صورة مقتل الدوق دوغيز مثلاً ، نرى المشاهدين يعبرون عن ذهولهم وغيظهم بمدّ جميع الأيدي الى الامام ، وبصرف الرؤوس جانباً ، ان هذا جميل جداً ، وكأنه كورس . ولا نظراً ان التفاصيل الفكاهية او الفذلية منسية . فاننا نرى الصفحات تسقط على الأرض ، وكلاهما صغيرة تهرب ، ومهرجين جالسين على درجات العرش . ولكن جميع هذه التفاصيل معالجة بروح من العظمة والارتباك تجعلها منسجمة انسجاماً كاملاً مع باقي الصورة : ولا أحسب اني التفت لوجات تشتمل فيها هذه الوحدة الدقيقة . اجل . ان هذا هو مصدرها .

#### — الازدحام ذات الامتياز ؟

— الفكرة التي كنت أكونها عنها . كانت اوضاعاً ذات صفة نادرة وثمينة ، ذات اسلوب ، اذا صح التعبير . فان يكون المرء ملكاً ، مثلاً ، حين كنت في الثامنة من عمري ، كان ذلك يبدو لي وضعاً ذا امتياز . او ان يموت . انت تضحك ، ولكن كان ثمة كثير من الاشخاص الذين رُسموا ساعة موتهم ، وهناك كثيرون نطقوا بأقوال عظيمة في تلك اللحظة ، اقوال كنت انا اصداقها ببطية خاطر ... أقصد اني كنت أفكر ان المرء حين يدخل دور الاحتضار يُحمل فوق نفسه . والحق أنه بحسب المرء ان يكون في غرفة ميت : فما دام الموت وضعاً ذا امتياز ، فان شيئاً ما كان ينبثق منه ويتصل بجميع الأشخاص الحاضرين . نوع من العظمة . حين مات ابي ، أدخلوني الى غرفته لأشاهده للمرة الأخيرة . وكنت وانا اصعد السلم احس بشقاء كبير ، ولكني كنت كذلك كأنني ثمة بلون من الفرح الديني ، كنت ادخل أعيراً وضعاً ذا امتياز . وقد استندت الى الجدار ، وحاولت ان افوم بالحركات التي كانت تناسب المقام . ولكن كانت ثمة عني وأمي ، راكعتين على حافة السرير ، تُفسدان كل شيء .

بيكانهما .

قالت هذه الكلمات الأخيرة في أمسي ، كما لو ان ذكرها ما زالت ملتهمة .  
وكففت ، ونظرها ثابت ، وجفناها مرتفعان ، إنها تنتهز الفرصة لتعيش المشهد  
مرة أخرى .

— وفيما بعد ، وسعت نطاق هذا كله : فأضمت اليه اولاً وضعاً جديداً ،  
هو الحب ( أقصد عمل صنع الحب ) عجباً ، اذا لم نفهم قط لماذا كنت ارفض  
بعض مطالبك ، فهذه فرصة تمكنك من الفهم : بالنسبة لي ، كان ثمة شيء  
يجب إنقاذه . ثم قلت لنفسي انه لا بد ان يكون هناك كثير من الاوضاع ذات  
الامتياز أستطيع ان أحصها ، وانتهى بي الأمر الى إقرار عدد لا يحصى منها .  
— نعم ، ولكن ماذا كانت حقاً ؟

فقلت بدهشة : — عجباً ، لقد قلناها لك ، وقد انقضى ربع ساعة وأنا  
أشرحها .

— أقصد هل كان يجب خصوصاً ان يكون الناس مهووسين جداً ، محمولين  
على جناح الكراهية او الحب ، مثلاً ، ام انه كسان يجب ان يكون المظهر  
الخارجي للحادث كبيراً ، أعني : ما يمكن ان يُرى منه ..  
فأجابت في استياء :

— الأمران ... وهذا يتوقف .

— واللمحظات الكاملة . ما شأنها هنا ؟

— إنها تأتي بعد ذلك . إن هناك اولاً علامات مبشرة ثم يدخل الوضع  
ذو الامتياز دخولاً بطيئاً ، فحماً ، في حياة الاشخاص . وإذا ذاك يُطرح سؤال  
معرفة ما اذا كان المراد ان يُصنع من الوضع لحظة كاملة .

قلت : — نعم . لقد فهمت . ففي كل وضع من الأوضاع ذات الامتياز ،  
بعض أفعال يجب ان تُنفذ ، ومواقف يجب ان تتخذ ، وكلمات يجب ان تُقال .  
— وهناك مواقف أخرى وكلمات أخرى ممنوعة . أهذا هو التفسير ؟

أدأشت .

— إن الوضع بالإجمال ، شيء مادي : وهذا يتطلب المعالجة .  
قالت : — هو كذلك . ينبغي للمرء أولاً أن يفرق في شيء ما استثنائي ،  
وان يشعر انه يُدخل فيه التنظيم . فإذا تحققت جميع هذه الشروط ، فإن اللحظة  
تكون كاملة .

— كان ذلك بالإجمال نوعاً من الأثر الفني .

فقالت في انزعاج :

— لقد سبق لك ان قلت هذا . كلا : بل كان ... واجباً . كان ينبغي  
تحويل الأوضاع ذات الامتياز الى لحظات كاملة . وكانت هذه قضية أخلاقية .  
أجل ، تستطيع ان تضحك : أخلاقية .

ولم أضحك على الإطلاق . وقلت لها بتلقائية :

— اسمعي . سأعترف انا ايضاً بأخطائي . إنني لم أفهمك قط فهماً كاملاً ،  
ولم أحاول قط بإخلاص ان أساعدك . ولو كنت قد عرفت ...  
فقالت منهكة :

— شكراً ، شكراً . آمل ألا تنتظر عرفاناً مني لقاء هذه التحسرات المتأخرة ،  
والحق اني غير عاتبة عليك ، فأنا لم أشرح لك شيئاً بوضوح . كنت معقدة .  
ولم أكن أستطيع أن أحدث في ذلك أحداً ، حتى ولا أنت — ولا سباً أنت .  
كان ثمة دائماً شيء ما مزيف في تلك اللحظات . ولهذا كنت كأني تائهة . غير  
انه كان لدي إحساس بأنني افعل ما كنت استطيعه .

— ولكن ما الذي كان ينبغي عمله ؟ أية افعال ؟

— ما أحفلك ! لا يمكن اعطاء مثل . فهذا يتوقف .

— ولكن اروي لي ما كنت تحاولين ان تفعليه .

لا . لست حريصة على التحدث في ذلك . ولكن اذا شئت ، رويت لك  
قصة أثرت علي كثيراً حين كنت أذهب الى المدرسة . كان هناك ملك قد خسر  
معركة وسقط أسيراً . وكان هناك . في زاوية من معسكر المنتصر . ورأى ابنه  
وابنته يمران مقيدين . لم يبك ولم يقل شيئاً . ثم رأى احد خدمه يمر مقيداً هو

أيضاً . وإذ ذاك أحد يشئ ويشد شعره : تستطيع ان تخترع انت نفسك أمثالا .  
فأنت ترى : هناك حالات يعني نعره لا يبي فيها - وإلا كان بدلا . أما  
إذا ترك المرء حظه تسقط على قدمه ، فهو يستطيع أن يفعل ما يشاء . أن يشئ  
ويهدر ويبيكي ويقفز على القدم الأخرى . لأن العمل الآحق هو أن يكون المرء  
ثبت الجنان دائما . فإنه يستغنى قواه من أجل لا شيء .

وايضا

وأحيانا أخرى . يجب ان يكون . كثير من ثبت الجنان . انت طبعاً  
لا تذكر المرة الأولى التي قبيلتك فيها ؟

فقلت بلهجة متعصرة :

— بل اذكرها جيداً . كان ذلك في حدائق كيو ، على شاطئ النائم .  
أما الذي لم نعرفه قط . فهو اني كنت قد جلست على قُرْص : كان  
ثوبي قد تشمر . وكان وحداني ممتلئ بالمرء . إليك لم تكن تثيرني غسل  
الإطلاق . ولم أسْ أُنْهني شعيتك شهوة خاصة . ونك الفسلة التي كنت  
سأمنحك لها . كانت ذات أهمية كبر . ما ستأمر ما . معاهدة إليك ادن  
تدرك ان ذلك لم كان وقعاً . فإنه لم يكن مسموحاً لي ان أفكر بعقدتي في  
لحظة كهذه . لم يكن كافي أن أسحل أني . ان ينبغي ألا أفلم .

ونظرت بي بحر . ما كان مدهشة قد فعلت .

خلال أكثر من عشرين دقيقة : بينما كنت تلح على ان تأها . تلك  
القبلة التي كنت عذمة على أن أمنحك إياها . وطوال الوقت الذي حملتك فيه  
على ان أرحمني . لأنه كان يعني . أمنحك إياها وفق العرف — تحدث في  
ان أهد . نفسي كياً . ومع ذلك . فإنه لم كان في جسد حسناً اني لم  
أحسن شيئاً . ان أهد .

هوذا . هوذا أنا . ليس ثمة معمرات . ليس ثمة لحظات كاملة . لقد  
فقدت الأوهام نفسها . وصاحك . نفسها . وأنا أحر . فإني بل أستطيع  
ان أنكم بدلا منها . وأقول . نفسي . بلغي لما لا نقول .

- وإذن ، فقد أدركت ان هناك دائماً نساء يبكين ، او رجلاً أحمر الشعر ،  
او اي شيء آخر يُفسد تأثيراتك ؟  
فقلت من غير حماس :  
نعم ، بالطبع .  
أليس الأمر كذلك ؟

- اوه ، إن حماقات رجل احمر الشعر ، ربما كان بإمكانني ان اخضع لها  
مع الزمن . والحق اني كنت طيبة جيداً أن أهم بالطريقة التي كان الآخرون  
يمثلون بها أدوارهم ... لا ، بل ...  
- بل انه ليس ثمة اوضاع ذات امتياز ؟

- هو ذلك . كنت أظن ان الحقد او الحب او الموت كانت تهيط علينا  
كألسنة النار يوم الجمعة المقدس . كنت اظن ان المرء يمكن ان يشع " حقداً او  
موتاً . وأي خطأ كان هذا الظن ! اجل ، كنت افكر حقاً بأن " الحقد " كان  
شيئاً موجوداً ، وأنه كان يأتي ويحط على الناس ، ويرفعهم فوق أنفسهم .  
وبالطبع ، ليس ثمة إلاي ، إلاي من يحقد . ومن يحب . وأنا ، اني الشيء  
نفسه دائماً ، عجين بتمدّد ويمتدّد ... وهذا متشابه الى حد يجعل المرء يتساءل  
كيف يحطّر للناس ان يخترعوا اسماء ، وقيموا تمييزات .

إنها تفكر مثلي . ويخيل إليّ اني لم أتركها قط . وقلت لها :  
إسمي جيداً . اني منذ فترة افكر بشيء يروق لي اكثر جسداً من دور  
النصب الذي أسندته إليّ بسخاء : هو اننا قد تغيرنا معاً وبالطريقة نفسها . وأنا  
أفضل هذا ، لو تعلمين ، على ان أراك تباعدين أكثر فأكثر ، وان يُحكم  
عليّ بأن أسجل الى الأبد نقطة انطلاقك . إن كل ما رويته لي انما جئت  
لأروبه لك - بكلمات أخرى . هذا صحيح . إننا نلتقي عند الوصول . ولا أستطيع  
ان أعبر لك عن سعادتي بذلك .

قالت بهلوه - ولكن بلهجة معاندة :  
صحيح ؟ اني مع ذلك كنت أفضل ألا تتغير ، كان ذاك أسهل . اني

لست مثلك ، ويسوءني بالأحرى ان أعرف أن شخصاً آخر قد فكر بما أفكر به . ثم إنك لا بد ان تكون غططاً .

فرويت لها مغامراتي ، وحدثتها عن الكينونة — وربما أطول مما ينبغي . وقد أصغت باجتهاد ، فاتحة عينها على سمعتهما ، رافعة حاجبيها .  
وحين انتهيت ، بدا عليها العزاء .

— حسناً ، ولكنني أراك لا تفكر إطلاقاً كما أفكر . انك تشكو ان الاشياء لا تنتظم حولك على شكل باقة من الزهور ، من غير ان تقوم بأي عمل . أما أنا ، فلا أطلب أكثر من ذلك : كنت أريد ان أعمل . أنت تذكر حين كنا نلعب لعبة المغامر والمغامرة : كنت انت من تحدث له المغامرات ، وكنت أنا من يجعلها تحدث . وكنت أقول : « انني رجل عمل » أتذكر ؟ أما الآن ، فأقول ببساطة : ان المرء لا يستطيع ان يكون رجل عمل .

ينبغي ان أصدق أنني لم أبدُ مقتنعاً ، إذا انهما انتعشت واستطردت بلهجة أقوى :

— ثم إن هناك كومة من الاشياء الأخرى لم أقلها لك ، لأنها ستكون أطول من ان أستطيع شرحها لك . كان ينبغي مثلاً ان أتمكن من ان أقول لنفسي ، في اللحظة التي كنت اعمل فيها ، أن ما كنت أعمله ستكون له نتائج... مشؤومة . انني لا أستطيع ان اشرح لك جيداً ...  
فقلت بلهجة لا تخلو من حذقة :

— ولكن ذلك غير مجدٍ على الإطلاق . وقد فكرت بهذا ايضاً .  
منظرت إلى في حذر :

— اذا صدقتك . لوجدت أنك قد فكرت بكل شيء على النحو الذي فكرت فيه : إنك تدهشني كثيراً .

انني لا أستطيع ان أقنعها ، ولن أفعل إلا ان أغيظها . وصمت . واستولت علي الرغبة في ان آخذها بين ذراعي .  
وفجأة ، نظرت إلي نظرة قلقة :



- وإذا ، إذا كنت قد فكرت في هذا كله . فإذا استطعت ان تعمل ؟

مخفضت رأسي . ورددت هي بتأقلم .

إنني أعيش . وقد عدت حواسي .

ماذا يعني أن أقول لها ؟ هل اعرف أسباباً تبرر الحياة ؟ أنني لست مثلها  
بالسأ ، لأنني لم أكن انتظر أشياء كثيرة . إنما أنا بالأحرى ... مندهش أمام  
هذه الحياة التي أعطيت لي - أعطيت من أجل لا شيء . واحتضت برأسي  
منخفضاً ، أنني لا أريد أن أرى وجه أبي في هذه اللحظة .

وثابت بصوت مكتئب :

- أنني أسافر ، وأنا عائدة من السويد . وقد توقفت ثمانية أيام في برلين .

هناك هذا الرجل الذي ينفق عليّ .

ان أخذها بين ذراعي ... ماذا جدوى ذلك ؟ أنني لا أستطيع شيئاً من  
أجلها . أنها وحيدة مثلي .

وقالت لي بصوت أكثر مرحاً :

- بم تقدمم ؟

فرفعت عيني . أنها تنظر إليّ بخذل

- لا شيء . كنت أفكر فقط بشيء ما .

يا لشخصية العجيبة ! تكلم أو فاصمت . ولكن إغتر

وحدثتها عن مفهسي « راديفو دي شامبو » وعن لحن « راج - تايم »

القديم الذي كنت أسمع في الموزوغراف . وعن السعادة الغريبة التي يمنحني إياها .

- كنت أتساءل عما ... لم يكن « لا يمكن » ان نجد من هذه الناحية شيئاً أو

ان نبحت

فلم عجب . وأحسب أنها لم تهتم كثيراً بما قلت لها . على أنها استغرقت  
بعض لحظة - ولا أدري إن كانت تتابع أفكاري أو إذا كان هذا جواباً على

ما قلته لها :

- إن اللوحات والتأثيل أشياء غير قابلة للاستماع إليها جميعية تجاهي ،

الموسقى ...

- ولكن في المسرح ...

- ماذا في المسرح ؟ هل تريد ان تعدد اللون الجميلة ؟

- كنت نقول في الماضي انك كنت تريد ان تتعاطى المسرح لأن المرء

لا يدق بحقق ، على خشبة المسرح ، خطوات كاملة .

لجل ، لقد حققتها ؟ ولكن من اجل الآخرين كنت في العار ، وفي

تيارات الهواء ، وتحت الأنوار العجبة ، وبين ألواح الكرتون ، وعلى العموم ،

كان ، تو بدايك ، شريك في التمثيل ، وأعتقد انك رأيت مثل في كودات

غاردن ، وكنت أعشى دائماً ان تعجز ضاحكة في وجهه

- ولكن أم يكن دورك يستمر فقط ؟

أحياناً ولكنه لم يكن شعري بقوة ، كان الشيء الجوهري ، بالنسبة

ك حبيماً ، نضب لأسود ، فبات تماماً ، الشيء كان في جوفه ناس لا نراهم ،

وبطبع ، كما تقدم هؤلاء خطوة كاملة ، ويكث تعلم انهم ان يكونوا يعيشون

داخله ، وانما كان يتدحرج امامهم وحس ، المثلين ، نعتقد اننا كما نعيش

داخله ، إنه في نهاية الهدف لم يكن في أي مكان ، لا من هذه الجهة ولا من

تلك بالنسبة خشبة المسرح ، انه لم يكن موجوداً ومع ذلك ، فقد كان الجميع

يفكرون فيه

ثم أخذت صوته تطوّد ككوكب سرفياً

- انك تفهم ، سمع في ، قد تخلّيت عن كل شيء .

فقد حوّلنا اننا نكتب هذه الكتاب

فقط

سبي أعيش في الماضي ، انه ديك ، أحدث في ، وأظنهم ، ومن بعيد .

هل هذا اسحر ، ليس ثمة من صير ، ان المرء ينسل ، ان حكايته كلها جميلة

عما فيه الكفاية ، فانا أعطيها بعض مشكلات من إلهامي ، ود هي سلسلة من

اللمحظات الكاملة ، وإد دنا نحص عبي وأحاول ان أنصو ، شيء ما ان أعيش

في داخلها . إن عندي شخصيات أخرى أيضاً . يجب على المرء أن يحسن تركيب فكره . ألا تعرف ماذا قرأت ؟ « النهارين النفسية » تأليف لويولا . وقد عاد عليّ ذلك بمائدة كبيرة . إن هناك طريقة لوضع الديكور أولاً ثم لإظهار الشخصيات .

وأضفت بلهجة مسرحية

— وهكذا يتوصل المرء إلى أن « يرى » .

فقلت : — الحق إن ذلك ليس يرضيني على الإطلاق .

— أو تظنّ أن ذلك يرضيني أنا ؟

وظللتنا لحظة صامتين . وكان الليل بهبط . فكدت لا أتميز لطفة وجهها الممتعة . وكان ثوبها الأسود يمتزج الظل الذي غمر الحجرة . وبصورة آلية تناولت فنجانتي الذي كان ما يزال فيه بعض الشاي ، وحلته إلى شفتي . كان الشاي بارداً . وأخذتني الرغبة في التدخين . ولكنني لم أجرؤ . وأحسّت شعوراً شاقاً بأنه لم يكن لدينا بعد ما نقول . حتى الأمس فقط ، كان لدي أسئلة كثيرة اطرحها عليها . أين كانت ، وماذا فعلت ، ومن لقيت ، ولكن ذلك لم يكن يهمني إلا بمقدار ما منحت آتي نفسها عن طيب خاطر . أما الآن . فأنا بلا فضول : إن جميع تلك البلاد ، وجميع تلك المدن التي ألت بها . وجميع أولئك الرجال الذين غارلوهم ، وربما تكون قد أحبتهم . كل ذلك لم يكن متصلاً بها . وكل ذلك كان بالنسبة إليها بلا أكثرات . شعة شمس صغيرة على سطح بحر معطم . إن آتي تجاهي . ونحن لم نلتق منذ أربعة أعوام ، وليس لدينا بعد ما نقول .

وقالت آتي فجأة .

أما الآن . فيجب أن تذهب . انني أنتظر شخصاً .

نتظرون ؟ ..

اجل ، أنتظر ألمانياً ، رساماً

وأخذت تضحك . وقد كتبت ضحيتها رتيلاً غريباً في القاعة المظلمة .

- انه شخص ليس مثلاً - ليس مثلاً بعد . انه يعمل ، يعنى ذاته .  
 ونهضت على مضض :  
 - متى اراك ثانية ؟  
 - لا أدري . انني مسافرة مساء الغد الى لندن .  
 - عن طريق « ديب » ؟  
 - نعم . وأعتقد انني بعد ذلك سأسافر الى مصر . وربما مررت بباريس  
 في الشتاء القادم . سوف اكتب لك .  
 قلت لها بحجل :  
 - انني غداً حرّ طوال النهار .  
 فأجابت بصوت جاف :  
 - نعم . غير ان لديّ انا عملاً كثيراً . لا أستطيع ان اراك . سأكتب  
 لك من مصر . وليس عليك الا ان تعطيني عنوانك .  
 - هو كذلك .  
 فخربت عنواني . في الظلام . على طرف مغلف . يجب ان ابلغ فندق  
 برنتانيا بأن يحولوا لي رسائلي حين أعاد يوفيل . انني أعرف ، في أعماقي ،  
 انها لن تكتب . ربما رأيها ثانية بعد عشرة أعوام ، وربما كانت هذه  
 هي المرة الأخيرة انني أراها فيها . وليس مبعث ارهاقي أنني سأتركها  
 فحسب ، بل ان بي خوفاً قظيماً ان أعود الى وحدتي .  
 ونهضت . وعند الباب . قبلتني قبلة خفيفة على القم . وقالت وهي تبسم :  
 - ذلك لكي أندكر شفتيك . يجب أن اعبد الشباب الى ذكرياتي ،  
 من أجل « تماريني المتعوية »  
 فأخذتها من ذراعها وأدبتها مني . فلم تقاوم ، ولكنها اومأت برأسها سلباً .  
 - لا . ان ذلك لا يثير اهتمامي بعد . فلن نعيده ... ثم انه ، بالنسبة لما يمكن  
 ان يصنع باللسان ، فإن اول شاب قادم جميل بعض الشيء ، يساوئك .  
 ولكن ما الذي ستفعلينه ؟

- لقد قلت لك : انني مسافرة الى انكلترا .

- لا ، أقصد ...

- لا شيء .

ولم اترك ذراعها ، فقلت لها بعذوبة :

- اذن ، يجب ان أتركك . بعد ان وجدته ثانية

وثبتت الآن ملامح وجهها بوضوح . لقد أصبح فجأة بمنفعاً مشدوداً .  
وجه امرأة عجوز ، فظيع تماماً ، وانا على يقين من انها لم تدعه . وجهها هذا :  
فهو قائم هنا . بالخفية عنها . او ربما بالرغم عنها .  
قالت بهدوء :

- لا ، لا . انك لم تجدني ثانية .

وخلعت ذراعها . وفتحت الباب . وكان المر يقطر ضوءاً .

وأخذت آني تضحك .

يا للمسكين ! انه لا حظ له . فللمرة الاولى التي يمثل فيها دوره

جيداً . لا يلقى الرضى . هباً . اذهب .

وسمعت الباب يغلق وراني

### الأحد

راجعت هذا الصباح « دليل » السكك الحديدية : اذا افترضت انها لم تكذب  
علي . فهي ستسافر في قطار ديب عند الساعة الخامسة والثامنة والثلاثين . ولكن  
ربما كان صاحبها سيأخذها بالسيارة \* ونهب طوال الصباح في شوارع مانيليمونتان ،  
وبعد الظهر . على أرصفة المحطات . ان يضع خصى ، بضعة جدران كانت  
تفصلني عنها . وفي الساعة الخامسة والثامنة والثلاثين سيصبح حديثاً بالأمس  
ذكرى ، والمرأة المومسة الي لامست شفاهها في ستلحق ، في الماضي . فتاة  
مكناس ، ولندن ، الصغيرة الهزيلة . ولكن لم يحدث شيء بعد . ما دامت  
لا تزال هنا . وما دام ممكناً بعد رؤيتها واقناعها واصطحابها معي الى الأبد . انني

لم أكن أحسني بعدُ وحيداً .

وأردت أن أصرف فكري عن آني ، لأنني كنت ، لمرط نعور جسمها ووجهها . قد سقطت في ثورة عصبية شديدة : كانت يداي ترتجفان ، وكانت الرعشات الباردة تتملكني . وأخذت أقلب صفحات الكتب ، عند بسطات الباعة . ولا سيما المنشورات الخلاعية ، لأن ذلك كان ، بالرغم من كل شيء ، يشغل الفكر .

وحين دقت الساعة الخامسة في محطة اورساي . كنت انظر إلى رسوم كتاب عنوانه «الطبيب بالسرط» ، وكانت رسوماً قليلة التنوع : فقد كان في معظمها صورة رجلين طويلي ملتصق يعمل سوطاً فوق أرداف ضخمة عارية . وما إن ادركت أن الساعة قد أصبحت الخامسة ، حتى ألقيت بالكتاب بين الكتب الأخرى . ووثبت إلى سيارة تكسي حلقتني إلى محطة سان لازار .

ونزعت رهاء عشرين دقيقة على رصيف هذه المحطة ، ثم رأيتها . كانت ترتدي معطاً كبيراً من القرموز كان يضيء عليها هيئة سيدة ، وغلالة صغيرة . وكان الرجل يرتدي معطاً من شعر الجمل . وكان يروزي اللون ، شاباً ما يزال . طويلًا جداً ، وجميلًا جداً . أنه اجري ، بالتأكيد ، ولكنه ليس انكليزياً ، ربما كان مصرياً . وقد صعدا إلى القطار من غير أن يرباني . ولم يكونا يتبادلان الكلام . ثم هبط الرجل ثانية . فابتاع صحفاً . وخفضت آني زجاج مقصورتها . فرأيتني ونظرت إلى «طويلًا» ، بلا غضب . بعينين لا تعبر فيها . ثم صعد الرجل ثانية إلى المقصورة ، وانطلق القطار . وفي تلك اللحظة ، رأيت بوضوح مطعم بيكاديلي الذي كنا نتناول فيه العشاء في السابق . ثم انصرفت كل شيء . ومشيت . وحين أحسنتني متعباً . دخلت مفهياً ، واستسلمت للنوم . وأنى الخادم يوقظني ، وأنا أكتب هذا والنعاس ما زال يراودني . سأعود غداً إلى بوفيل في قطار الظهر . وسيكتبني أن أبقى فيها يومين : لكي أحزم امتعتي وأنهي معاملتي مع المصروف . وأعتقد أنهم سيطلبون مني . في فندق برناتيا ، أن أدفع لهم احررة خمسة عشر يوماً اضافياً ، لأنني لم أخبرهم

مستقماً . ويجب أيضاً ان اردّ لدار الكتب ما استعرت من كتب ، وعلى اي حال  
سأعود الى باريس قبل نهاية الاسبوع .

وما الذي سأكتبه بالمقابل ؟ تلك هي أيضاً مدينة : هذه يشقها نهر . وتلك  
يحدّها بحر ، ولولا ذلك لكانتا متشابهتين . ان الناس يفتارون أرضاً بحرودة ،  
جدياء . فيدحرجون فيها احجاراً كبيرة بحوّة . وفي هذه الاحجار ، روائح  
أميرة ، روائح أنقل من الهواء . وهي تُلقي أحياناً من النافذة في الشوارع ،  
فتظلّ قبها حتى تمزّقها الرياح . وفي الجو الصافي ، تدخل الضجّات من احد  
طرفي المدينة ، وتخرج من الطرف الآخر ، بعد ان تعبر جميع الجدران ، وأحياناً  
اخرى ، تدور وتدور بين هذه الاحجار التي تسلقها الشمس ويشقها الجليد .

انني أخاف المدن . ولكن يجب على المرء الا يخرج منها . فاذا عامر بالابتعاد  
أكثر مما ينبغي . التقى دائرة « النبات » . لقد زحف « النبات » مسافة كيلو  
مترات نحو المدن . انه ينتظر . حتى اذا أصبحت المدينة ميتة ، اكتسحها « النبات »  
فتسلق الاحجار ، واحتاها ، وعيث فيها ، وفجرها بكلاً بانه الطويلة  
السوداء ، انه سيكتسح الثوب ويترك في كل مكان أرجلاً متدلية . يجب على  
المرء ان يبقى في المدن ما دامت حية ، ويجب عليه الا يبقى وحده تحت هذا  
الشعر الطويل القائم عند أبوابها . يجب ان يتركه يتموج وبصطلق بلا شهود .  
اذا عرف المرء في المدن ان ينظّم نفسه ويختار الساعات التي تجرّ فيها الحيوانات  
او تنام في ثوبها . خلف اكوام القايات العضوية . فانه لن يلتقي ابداً الا  
المعادن ، اقلّ الموجودات ارباباً .

انني عائد الى بوفيل « فالنبات » لا يحاصر بوفيل الا من ثلاث جهات .  
وفي الجهة الرابعة ثقب كبير مليء بماء أسود يتحرك وحده . الريح تصفر بين  
البيوت . والروائح تبقى مدة أقصر من اي مكان آخر : فان الريح تطردها  
فتجري على سطح الماء الأسود كضباب صغير مستطار اللب . المطر يهطل وقد  
تُركت نباتات تنمو بين السياجات . نباتات نخسية ، مستأسة ، بلغ من سميتها  
انها أصبحت غير مؤذية . ان لها أوراقاً هائلة مبيضة تتدلّى كأها الأذان . وبغفل

لمن يلبسها أنها غصاريف . ان كل شيء سمير وأبيض في بوفيل ، بسبب هذا الماء الكثير الذي يهبط من السماء . التي عائد الى بوفيل . اية فضاغة ! استيقظت متفصلاً . انه منتصف الليل . انقضت ست ساعات على مغادرة آني لباريس . ولقد غمرت السفينة البحر . أنها تنام في مقصورة ، اما الشاب الرونزي الجميل ، فجالس على ظهر السفينة يدخن سكاير .

### الثلاثة في بوفيل

أهذه هي الحرية ؟ ان الحدائق تنحدر نحني برخاوة نحو المدينة ، وفي كل حديقة يرتفع بيت . التي ارى البحر ثقيلًا ، جامدًا ، وارى بوفيل . ان العلفس جميل .

انا حر : انه لا يبقى لي اي سبب لكي اعيش ، فجميع الأسباب التي حاولتها قد تراخت ، ولا أستطيع بعد ان اتصور اسباباً اخرى . التي ما زلت شاباً ، وما زلت أملك قوة كافية لأبدأ من جديد . ولكن ما الذي يجب ان أبدأ من جديد ؟ كم عوكت على آني ، في اخرج لحظات ارهابي وغشائتي ، لكي تنقذني ، ان هذا ما ادركه الآن فحسب . لقد مات ماضي ، ومات السيد دورولبون ، ولم تعد آني الا لتتزع مني كل امل . التي وحيد في هذا الشارع الأبيض الذي تحف به الحدائق . وحيد وحر . ولكن هذه الحرية تشبه الموت قليلاً . ان حياتي تأخذ اليوم نهايتها . سأكون غداً قد تركت هذه المدينة التي تمتد عند قدمي ، والتي عشت فيها هذه الفترة الطويلة . انها لن تكون بعد الا اسماً . مكتلاً ، بورجوازيًا ، فرنسيًا مئة بالمئة ، اسماً في ذاكرتي ، اقل غنى من اسمي فلورنس او بغداد . سيأتي عهد اتسامل فيه : حين كنت في بوفيل ، ما الذي كان يمكنني ان افعل . طوال النهار ؟ ومن هذه الشمس ، من هذا الأصل ، لن يبقى شيء . حتى ولا ذكرى . ان حياتي كلها خلفي . اراها برمتها ، ارى شكلها والحركات البطيئة التي أقضت بي اى هنا . هناك اشياء قليلة تُقال عنها : انه شوط خاسر ، هذا كل ما في الأمر . لقد انقضت اليوم ثلاثة اعوام على دخولي الى بوفيل ، بأبنة .



كنت قد خسرت الجولة الأولى : و اردت ان ألعب الثانية ، فخسرت أيضاً : وهكذا خسرت الشوط . وبهذا تعلمت ان المرء يخسر دائماً . ليس هناك الا الاقذال من يحسبون انهم يربحون . اما الآن ، سأفعل كما فعلت آني : سأعيش وقد عدتُ حواسي . أعيش وانام . اقام وآكل . أوجد على مهل . وبعذوبة كهذه الاشجار ، كبركة ماء ، كمقعد الترام الأحمر .

ان « الغيثان » بدع لي راحة قصيرة . ولكنني اعلم انه سيعود : فتلك هي حالتي الطبيعية . غير ان جسمي اليوم اشدّ ارهاقاً من ان يتحمّله . ان للمرضى ايضاً ساعات ضعف سعيدة تنزع منهم . لبضع ساعات ، احساسهم بالألم . كل ما في الأمر اني سئم . وبين الفينة والفينة اثّاب بقوة حتى ان الدموع تتدحرج على خدي . انه سأم عميق . عميق . قلب الكينونة العميق . المادة نفسها التي صُنعتُ منها . انني لا اهل نفسي . بل على العكس : فهذا الصباح اخذت حماماً وحلقت ذفتي . غير انني حين افكر ثانية بجميع هذه الأفعال الاعتائية ، لا افهم كيف أمكنتُ ان افعلها : انها غير مجدية على الاطلاق . لا شك بأن العادات هي التي فعلتها من اجلي . ان العادات لم تحت ، فهي ماضية في الانهالك ، وفي نسج لحمتها . خفية وعلى مهل . وهي تغسلني وتمسحني وتلبسني ، على غرار ما تفعله الممرضات . أكون هي التي قادني ايضاً الى هذه الراية ؟ اني لا اذكر بعدُ كيف اتيت . لا شك اني جئت من سلّم دوتري : هل ارتقيت حقاً درجاتها المئة والعشر واحدة واحدة ؟ لعل ما هو أصعب تصوراً هو اني بعد لحظة سأهبطها ثانية . غير اني اعرف اني سأجدني بعد هنيهة في اسفل « الراية الخضراء » وسأستطيع . وانا ارفع رأسي . ان ارى نوافذ تلك البيوت القريبة تضاء في البعد ، في البعد . فوق رأسي . وهذه اللحظة التي لا استطع ان اخرج منها . والتي تحبسني وتحدني من كل جانب . هذه اللحظة التي صُنعتُ منها . لن نكون بعدُ الا حلماً ملتناً .

انني انظر ثلاثاً بوفيل الرمادية . تحت قدمي . فكأنها تحت الشمس اكروام من محار القشور او من شظايا العظم او من الحصى . كانت ثمة النماعات زجاج

او ميكا ، ضائعة بين هذه التفابات . تُرسل بين القبة والقبة نيراناً خفيفة .  
بعد ساعة ، ستصبح المجاري والحدائق والأطلال الدقيقة شوارع اسير فيها  
بين الجدران . وهؤلاء الرجال القصار الذين اتميزهم في شارع «بوليه» ،  
سأكون بعد ساعة واحداً منهم .

ما اشد ما أحسني بعداً عنهم . من على هذه الرابية . تخيل اليّ انني أنتمي  
الى جنس آخر . انهم يخرجون من المكاتب . بعد يوم عملهم ، فينتظرون الى البيوت  
والحدائق نظرة راضية . ويفكرون بأنها «مدبتهم» . مدينة بورجوازية جميلة  
انهم غير خائفين . وهم يحسنون انهم في بيوتهم . انهم لم يروا قط الا الماء  
المستأنس الذين يسيل من الصنابير . ولا النور الذي ينبع من المصابيح حين  
يضعطون على المفتاح . والا الاشجار المحيطة الغلة التي تستند بالمتاشير . انهم  
بروب الدليل . مرة في اليوم ، على ان كل شيء يتم بصورة آلية ، وأن  
العالم بطبع قوانين ثابتة لا تتغير . ان الاجسام المتروكة في الفراغ تسقط جميعاً  
بالسرعة نفسها . والحدائق العامة تُغلق كل يوم في الساعة الرابعة شتاء والسادسة  
صيفاً . وان الرصاص يذوب عند الدرجة ٣٣٥ . وان سحر نرام يغادر اوتيل  
دوفيل في الساعة الثالثة والعشرين وخمس دقائق . انهم مطمئنون . كثيرون  
بعض الشيء . انهم يفكرون في «العددي» ببساطة في يوم حديد . ان المدن  
لا تنعم إلا بنهار واحد يعود مثلاً كل صباح . ولا يفعلون الا ان يفرغوا له  
الاجراس قبلاً . انهم لا يهتمون ! انه بشر اختبر في ان افكر اني سأرى  
ثابته سحتهم الكثيفة المصمتة . انهم يستنون القوانين . ويكتبون روايات  
شعبية . ويرأونهم ، ويرتكبون حماقة الكبري . انجاب الأولاد . على ان  
الطبيعة الكبيرة المبهمة مستترة مدبنتهم وتسربت الى كل مكان في بيوتهم ،  
مكاتبهم وفي انفسهم . انهم لا تتحرك . بل تبقى هادئة وهم ملء داخلها يتفحصونها  
ولا يرونها . وهم يتصورون انهم في الخارج ، على بعد عشرين فرسخاً من المدينة .  
انني لست اراها . . . أعرف ان خضوعها كسل . . . وأعرف ان ليس لها قوانين ؛  
وهذا ما يحسبونه سبب ثباتها . . . أس لما الا عادات ويمكنها ان تغيرها غداً .

لنفرض ان شيئاً ما يحدث ؟ لنفرض انها اخذت فجأة تحلق ؟ انهم سلاحظون  
 أكذلك انها هناك ، وسيختل اليهم ان قلبهم سيفجر . واذن ، فالذي نجدهم  
 سدودهم وأسوارهم ومراكزهم الكهربائية وأفرانهم الحامية ومطارهم ؟ ان  
 هذا يمكن ان يحدث في أي وقت ، وربما على الفور : ان الدلائل قائمة ، فثلاً ،  
 يرى رب أسرة يتنزه خرفة حراء تُقبل عليه عبر الطريق ، كأنها مدفوعة  
 بالرياح . ونحن تصبح الخرفة قريبة منه كل القرب ، فسيرى انها قطعة من اللحم  
 الفاسد الملوّث بالغبار . نجر نفسها زاحفة ، واثبة ، قطعة لحم معدية تتلحرج  
 في المجاري قاذفة دفقات الدم بصورة تشنجات . مثل آخر : أم تنظر خد  
 ابنها وتساله : « ما هذا الذي على خدك ؟ أهو دمك ؟ » ثم ترى البشرة تتورم  
 قليلاً وتشتقق وتفتح ، ومن جوف الشق ، تبرز عين ثالثة ، عين ضاحكة .  
 او انهم يشعرون بعلامات عذبة على اجسامهم تشبه الملامسات التي يتركها  
 الخيزران في الأنهار على اجسام السباحين . وسيعرفون ان ملايهم قد اصبحت  
 اشياء حية . وثمة آخر سيجد ان هناك شيئاً ما يحكه في فمه ، فيقترب من مرآة ،  
 ويفتح فمه : فاذا بلسانه قد اصبحت حشرة ذات ألف رجل تنبض بالحياة وتحك  
 سقف حلقه . وبود ان يصفقها ، ولكن الحشرة ذات الألف رجل انما هي  
 جزء منه وينبغي ان توجد لها أسماء جديدة . العين الحجرية . الذراع الكبيرة ذات  
 القرون الثلاثة ، الإصبع العكاز ، العنكبوت الفلك . وذلك الذي سيكون دائماً  
 في سريره المريح ، في غرفته العذبة الحارة ، سيستيقظ عارياً على ارض مزرقة ،  
 في غابة من القضبان الضاحكة ، المتنصبة حراء وبيضاء نحو السماء ، كأنها  
 مداخن جوكستايوفيل ، مع بيضات ضخمة نابضة من الأرض ، مُرغبة متفخة  
 كالبصل . وستتطاير عصافير حول هذه القضبان فتقرها بمناقيرها وتجعل دماها  
 ينزف . وسوف يسبل المنى ممزوجاً بالدم ، حاراً شفافاً مع الكريات . او ان  
 شيئاً من ذلك كله لن يحدث ولن يقع اي تغير ذي أهمية ، ولكن الناس  
 سيفاجأون اذ يفتحون شبايهم ذات صباح ، بنوع من الحس القطيع يحط  
 بنقل على الأشياء . ويبدو كأنما هو ينتظر . لا شيء الا هذا : ولكن يكفي ان

ينوم ذلك بعض الوقت حتى تحدث حوادث انتحار بالملئات . اي نعم ، ليتغير ذلك قليلاً حتى نرى ، فأنا لا اطلب أكثر من هذا . اننا سرى أنك أناس آخريين عارفين فجأة في الوحدة . أناس وحيدون وحدة كاملة يعبرون الشوارع تحيط بهم مسوخ قذيفة . ويمرون امامي بتأقلم ، وعيونهم ثابتة ، هاربين من آلامهم حامليها معهم . فاغري الاقواء ، بالسنتهم الحشرات التي تحقق بأجنحتها . وحينذاك سأفجر ضاحكاً ، حتى ولو كان جسمي مغطى بقشور لحمية قلرة تنفتح رهوراً دموية وبفسجاً وصفتراً . وسوف استند الى جدار ، وسأصبح بهم حين يلمنون بي : « ماذا فعلتم بعملكم ؟ ماذا فعلتم بترعنكم الانسانية ؟ اين هي كرامتكم . كرامة الحيزران المفكّرة ؟ ولن يأخذني الخوف ، او على الاقل لن يأخذني أكثر مما يأخذني الآن . أن يكون ذلك ايضاً من الكينونة ، ألوأنا اخرى للكينونة ؟ إن جميع هذه العيون التي ستأكل وجهاً على مهل ، ستكون زائدة على الزوم ، بلا شك . ولكننا لن نكون أزيد من الاولين انما انا اخاف الكينونة .

إن المساء بسيط والمصابيح الاولى تنار في المدينة . يا إلهي ! كم تبدو المدينة « طبيعية » ، بالرغم من جميع هذه الهندسات ، كم تبدو مسحوفة بالمساء ! إن ذلك بدهي جداً ، من هنا : « يمكن أن أكون الوحيد الذي يرى ذلك ؟ أليس ثمة في اي مكان « كاساندر » آخر ، على رأس رابية ، ينظر تحت اقدامه مدينة بيتاعها جوف الطبيعة ؟ ولكن ماذا يعني في الحقيقة ؟ ما عساني أستطيع ان اقول له ؟

ويستدير جسمي ، على مهل ، نحو الشرق ، فيترشح قليلاً ويأخذ في السير .

#### الاربعاء : آخر يوم لي في بوفيل

جلت في المدينة كلها بحثاً عن « العصامي » . إنه بكل تأكيد لم يعد الى بيته . ولا بد ان بيته في الشوارع . مرهقاً بالتعب والذعر ، هذا الانساني المسكين الذي لا يركن اليه الناس بعد . والحق أنني لم أدهش قط حين حدث الشيء :

فقد وقت طويل وأنا أحس أن رأسه الرقيق الخائف كان يجلب اليه المصيبة .  
لقد كان قليل الذنب : انه لا يكاد يكون شهوانية حبه المتأمل المتواضع للصية  
— نوع من التزعة الانسانية ، على الاصح . ولكن كان لا بد أن يجد نفسه ذات  
يوم وجداً . مثل السيد أشيل ، ومثلي أنا : إنه من جنسي ، وهو صاحب إرادة  
طيبة . اما الآن ، فقد دخل الوحدة — والى الأبد . لقد أنهار كل شيء دفعة  
واحدة ، أحلامه للتشقق . وأحلامه للتفاهم مع البشر . سيكون هنالك أولاً  
الخوف والذعر والليالي المؤرقة ، وبعد ذلك سلسلة أيام النفي . سيعود في المساء  
ليتيه في باحة « الهونات » ، وسينظر من بعيد الى نوافذ دار الكتب المشعة ،  
وسينص قلبه حين يتذكر صفوف الكتب الطويلة ، وغلافاتها الجلدية . ورائحة  
صفحاتها . انني أسف اني لم أصعبه ، ولكنه لم يشأ ذلك . وهو الذي ابتهل  
إلي أن أدعه وحيداً : كان يبدأ تعلم الوحدة . وأنا اكتب هذا في مقهى مايلي .  
وقد دخلته بأهية ، وكنت أريد أن أتأمل المدير وأمينة الصندوق وأحس بقوة  
انني كنت أراهما للمرة الأخيرة . ولكنني لا استطع أن اصرف فكري عن  
« لهصامي » ، فان وجهه المعكر مائل امام عيني دائماً . مليئاً بالعتاب ، وباقته  
العالية الدامية . وإذا ذلك طلبت ورقاً ، وسأروي ما حدث له .

توجهت الى دار الكتب حوالي الساعة الثانية بعد الظهر . وكنت أفكر :  
« دار الكتب . إنني ادخل هنا للمرة الأخيرة . »

وكانت القاعة شبه خالية . وقد شق علي أن أعرفها . لأنني كنت اعرف  
انني لن أعود اليها ابداً . وكانت خفيفة كالبخار . لا وقية تقريباً . حمراء  
برمتها ، وكانت الشمس الغاربة تصبغ بالحمرة الطاولة المخصصة للمطالعات ،  
والباب ، وظهر الكتب . وداخلي إحساس لديد . ذات لحظة . بأنني ألج  
غاية صغيرة ملأى بالأوراق المذهبة ، وابسمت وفكرت . كم مضى علي  
من الوقت دون أن أبسم ؟ وكان الكورسيكي ينصر عبر الباعدة ، ويداه خلف  
ظهره . ما الذي كان يراه ؟ صلعة اميراز ؟ اما انا . فلن أرى بعد أبداً  
صلعة اميراز . ولا قبعتة العالية ولا رديجوتة فيعدست ساعات ، أكون

قد غادرت بوفيل . ووضعت على طاولة نائب أمين دار الكتب الجرمين اللذين كنت استعرضهما في الشهر الماضي . وقد مزق قسيمة خضراء وبسط لي قِطْعَها :

— تفضل يا سيد روكانتان .

— شكراً .

وفكرت : « اني الآن غير مدين لهم بشي » . انني غير مدين بشي . لأي شخص هنا . سأقصد بعد حين مفهـي « رانديكو دي شامينو » لأودع صاحبه ، انني حر . وترددت لحظات : هل أتفق هذه الهتبات الأخيرة للقيام بترهة طويلة في بوفيل ، ولرؤية جادة فيكتور هوغو ، وجسادة غالفاني ، وشارع تورنوبريد . ولكن هذه الغاية الصغيرة كانت هادئة جداً ، نقية جداً : وكان يحيل إلي بأنها تكاد تكون غير موجودة ، وأن « العثيان » قد وفرها . وذهبت أجلس قرب الموقد . كان « جورنال دو بوفيل » ملئاً على الطاولة . ومددت يدي ، فتناولته .

« أنقذه كلبه »

« كان السيد دوبوسك ، وهو ملاك في رمبردون ، عائداً مساء الامس على دراجته من معرض نوجيس ... »

أقبلت سيده ضخمة تجلس الى يميني . ووضعت قبعتها اللبادية الى جانبيها ، وكان فيها مزروعاً في وجهها كمعدية في تفاحة . وتحت الأنف ، كان ثمة ثقب صغير فاجر يُقْعَبُ باحتقار . وسحبت من محفظتها كتاباً مجلداً . فارتفعت الطاولة وهي تُسند رأسها يديها السمينتين . وقبلاني ، كان سيد هرم بنام . وكنت أعرفه : لقد كان في دار الكتب ، حين أخذني ذلك الحرف الشديد في ذلك المساء . وقد خاف هو ايضاً ، كما أظن . وفكرت : « ما أبعد هذا كله ! » وفي الساعة الرابعة والنصف ، دخل « العصامي » . وكنت أودّ لو أشدّ على يده وأودعه . ولكن ينبغي الاعتقاد بأن مقابلتنا الأخيرة قد خلقت لديه ذكرى سيئة : لقد حيّاني تحية بعيدة ، وراح يضع بعيداً عني رزمة صغيرة

بيضاء لا بد أنها كانت تحتوي ، كالعادة ، قطعة من خبز ولوحاً من الشوكولا . وبعد هنيهة ، عاد يحمل كتاباً مصوراً وضعه قرب رزمتي . وفكرت : « انني أراه للمرة الأخيرة » . غداً مساء ، وبعد غد مساء ، وكسل مساء يلي ذلك ، سيعود ليقرأ على هذه الطاولة فيما هو يأكل خبزه وشوكولاه ، وسيتابع بصبر قصصه الفأري ، وسيقرأ مؤلفات نابو ونودو ونوديه ونيس ، متوقفاً بين القينة والقينة سيسجل إحدى الحكيم على دفتره الصغير . اما انا ، فسامشي في باريس ، في شوارع باريس . وسأرى وجوهاً جديدة . ما الذي سيحدث لي ، فيما يكون هو هنا ، يضيء المصباح وجهه الكبير المفكّر ؟ وأحسست قل قوات الألوان انني سأدع نفسي لسراب المغامرة مرة أخرى . فرفعت كفتي واستأنفت المطالعة .

« بوفيل وضواحيها :

« مونيسيه .

« نشاط فرقة الدرك في عام ١٩٣٢ . الضابط في قسم الفوارس الرئيس غاسبار ، قائد فرقة مونوسيه ودركيوه الأربعة السادة لاغوت وليزان وبيار بان وغيل ، لم يعطلوا يوماً واحداً في أثناء عام ١٩٣٢ . والواقع ان دركينا كان عليهم أن يحققوا في ٧ جرائم و ٨٢ جنحة و ١٥٩ مخالفة و ٦ انتحارات و ١٥ حادث اصطدام منها ٣ مميتة » .

« جوكستابوفيل

« فرقة جوكستابوفيل لتأفخي الأبواق .

« اليوم تمرين عام . تسليم البطاقات للتحفة السنوية » .

« كومبوسيتيل

« تسليم وصام جوقة الشرف لرئيس البلدية .

« السانح البوفيلي ( مؤسس الكشاف البوفيلي ١٩٢٤ ) :

« هذا المساء . في الساعة ٢٠ و ٤٥ . اجتماع شهري في المركز الاجتماعي

١٠ شارع فردينان بيرون ، القاعة ١ . جدول الاعمال : قراءة آخر دعوى .

المراسلات . المائدة السنوية . اشتراكات ١٩٣٢ ، برنامج الرحلات في شباط ؛

قضايا مختلفة : قبول الاعضاء الجدد .

« حاية الحيوانات ( جمعية بوفيليه ) :

« الخميس القادم ، من الساعة ١٥ الى الساعة ١٧ ، القاعة ت ، ١٠ شارع  
فردينان بيرون ، بوفيل ، حضور عام . توجيه المراسلات الى الرئيس ، في  
المركز او ١٥٤ شارع غالفاني .

« النادي البوفيلي لكلب الدفاع ... الجمعية البوفيلية لمضى الحرب...الغرفة  
النقابة لأصحاب السيارات العمومية...الجمعية البوفيلية لأصدقاء دور المعلمين...»

دخل صبيان يحملان محفظتين ، انهما من طلبة اللبسيه . والكورسيكي يحب  
كثيراً تلاميذ اللبسيه ، لأنه يستطيع ان يحارس عليهم مراقبة أبوية . إنه يلذه ان  
يتركهم غالباً يتحركون على كراسيهم ويثرثرون ، ثم يعضي فجأة يسرق الخطي  
ليقف خلفهم موعباً : « أنكون هذه جلسة محتشمة بالنسبة لعتيه كبار ؟ اذا  
كتم لا تريدون ان تغيروا ، فان السيد أمين المكتبة قد قرر ان يشكي الى مدير  
اللبسيه . » فاذا احتجوا ، نظر اليهم بعينه الرهيتين : « أعطوني أسماءكم . »  
وهو يوجه ايضاً مطالعائهم : ففي دار الكتب رسمت على بعض المؤلفات  
إشارة صليب احمر ، انه الجحيم : آثار لـ « جيد » وديدرو وبودلير وكتب  
طية . وحين يطلب احسد تلامذة اللبسيه أحد هذه الكتب للمطالعة ، يومئ  
الكورسيكي اليه ويحتذبه الى راوية لبسأله . وبعد لحظة ، ينفجر فيملاً صوته  
قاعة المطالعة : « إن هناك مع ذلك كتباً افضل لمن كان في مثل سنك . كتب  
تربوية . ولكن هل أنيت اولاً فروضك ؟ في اي صف انت ؟ في الثاني ؟  
وليس لديك ما تفعله بعد الساعة الرابعة ؟ إن استاذك يأتي الى هنا غالباً ، وسوف  
أحدثه عنك . »

كان الصبيان ما يزالان مزروعان قرب الموقد . وكان لأصغرهما سنناً  
شعر جميل اسمر ، وكانت له بشرة مفرطة الرقة وفمٌ صغير ، خبيث  
ومزموه . أما رفيقه ، فكان فتى ضخماً له ظل شارب ، وقد لامس  
مرفقه ونغمس بضع كلمات . فلم يجبه الصبي الاسمر ، غير أنه بسم



بسة لا تكاد تُرى ، بسة ملأى بالاعتزاز والتكبر . ثم احتار كلامها ، في غير مبالاة ، قاموساً كان على احد الرقوف ، واقرّبا من « المعاصمي » الذي كان يعدد فيهما نظراً متعباً . وكان يبدو عليهما انهما يجعلان وجوده ، ولكنهما جلسا يلصقه تماماً ، الصغير الأصغر الى يساره ، والفقي الضخم الى يسار الصغير الأصغر . وسرعان ما بدأ يتفحصان القاموس . وترك المعاصمي نظره يتبسه عبر القاعة . ثم عاد الى المطالعة . لم يسبق لقاعة مكتبة ان كشفت عن مشهد مطمئن أكثر من هذا : انني لم أكن أسمع ضججة ، ما عدا أنفاس السيدة الصرخة ، ولم أكن أرى إلا رؤوساً مائلة فوق الصفحات . ومع ذلك ، فقد داخلي منذ تلك اللحظة شعوراً بأن حادثاً مزعجاً سيفزع . كسان جميع اولئك الاشخاص الذين يخفزون عيونهم باجتهاد يبدون وكأنهم غثولون : كنت قد شعرت ، قبل ذلك بلحظات ، ان ما يشبه لكمة من قسوة ثمر فوق رؤوسنا .

كنت قد فرغت من القراءة ، ولكنني لم أقرر ان أذهب : كنت أنتظر ، متظاهراً بأنني أقرأ جريدتي . وكان ما يزيد فضولي والزعاجني أن الآخرين كانوا ينتظرون أيضاً . وكان يخيل إليّ ان جاري كانت تقلب بسرعة أكبر صفحات كتابها . ومضت بضغ دقائق . ثم سمعت همساً . ورفعت رأسي بحسدر . كان الصبيان قد أغلقا قاموسهما . ولم يكن الصغير الأصغر يتكلم ، بسل كان يُدير الى اليمين وجهها مطبوعاً بالاحترام والاهتمام . وكان الأشقر غثباً نصف اختباء خلف كتفه ، مرهفاً أذنه ، يصحك بصمت . وفكرت : « ولكن من يتكلم ؟ » كان هو « المعاصمي » . وكان ماثلاً على جاره الفقي ، وعيناه في عينيه ، وكان يشتم له ، وكنت أرى شفتيه تتحركان بين القينة والفينة . وجمونه الطويلة تحفق . ولم أكن أعهد فيه هيئة الشاب هذه ، حتى كان فثناً تقريباً . ولكنه كان يتوقف احياناً لبُلفي خلفه نظرة قلقة . وكان يبدو على الفقي الصغير انه كان يشرب كلماته . لم يكن في هذا المشهد الصغير ما هو خارق وكنت أوشك ان أعود الى مطالعتي حين رأيت الفقي الصغير يزلق يده بهدوء وراء ظهره ، على حافة الطاولة . ومثت اليد لحطة ، وهي محتجبة على هذا النحو عن عيني « المعاصمي » ، وأخذت تلمس ما حولها ثم التفت

ذراع الأشقر الضخم ، فصرنهما بعنف . ولم يكن الآخر قد رآها آتية ، لفرط استغراقه في التمتع الصامت بكلام العصامي . فاذا هو يقفز في الهواء ، وإذا فـه يفتح الى ما لاحد له تحت تأثير الاندهاش والاعجاب . وكان الاسمر الصغير قد احتفظ بهيئة الاهتمام الموقر . حتى ان المرء يستعـه ان يشك اذا كانت تلك اليد العفريتة يده . وفكرت : « ما الذي سيفعلانه معه ؟ » وكنت أدرك جيداً ان شيئاً ما دقيماً سوف يحدث ، وكنت أرى كذلك ان الألوان لم يفت للحيلولة دون ان يحدث هذا . ولكني لم أكن انوصل الى المجلس بما ينبغي منعه . وخطر لي ذات لحظة ان أنهض فأذهب لأربت على كتف العصامي وأعقد معه حديثاً . ولكنه في اللحظة نفسها فاجأ نظري . فكف فوراً عن الكلام وزم شفتيه بهيئة متخافة . وسرعان ما صرفت بصري وتناولت جريدي ثانية لأستعيد طمأنيتي . وفي هذه الأثناء كانت السيدة الضخمة قد دفعت كتابها ورفعت رأسها . وكانت تبدو مسحورة . وأحسـت بوضوح ان السيدة نوشك ان تنفجر : كانوا « يريدون » جميعاً ان تنفجر ما الذي كنت أستطيع أن أفعله ؟ لقد ألفت نظرة على الكورسيكي : فاذا هو قد كف عن النظر عبر النافذة . واستدار نصف استدارة نحونا .

ومر ربع ساعة . وكان العصامي قد استأنف همه . ولم أكن أجرو بعد على النظر اليه ، ولكني كنت أنصو جيداً هيئته النظرة الرقيقة وتلك النظرات العميقة التي كانت تثقل عليه من غير ان يعرف ذلك . وذات لحظة ، سمعت ضحكته ، ضحكة صغيرة سوية وملحنة . وقد انقبض قلبي لذلك : كان يجئ لي ان أطفالاً قذرين سيعرفون فطة . ثم انقطع المجلس فجأة . وبدا لي هذا الصمت فاجعاً : كانت تلك هي النهاية ، الإعدام . وكنت أخفض رأسي على جريدي ، وأنقذه بالقراءة ، ولكني لم أكن أقرأ : كنت أرفع حاجبي وأنطاوول بعيني الى أعلى ما أستطيع ، لكي أحاول ان ألمح ما كان يحدث في ذلك الصمت قبالي . وتمكنت ، اذ أدركت رأسي قليلاً ، من ان أنفـط بزاوية عيني شيئاً ما : كانت يداً ، اليد الصغيرة البيضاء التي كانت منذ لحظة قد انسلت

عذاء الطاولة . أنها الآن تسريح مقلوبة على ظهرها ، مسرحية ، عذبة شهوانية ، وكان لها عراء مستحمة تندفأ في الشمس بكل . واقرب منها شيء أسمر ذو شعر ، على تردد . كان أصعباً ضخماً مصعراً بالتبع ، وكانت له ، بالقرب من هذه اليد ، فطاخة فرج ذكر . وقد توقف لحظة ، صلباً مصوباً نحو الراحة الرخوة ، ثم أخذ فجأة بلامسها في خجل . لم أكن مندهشاً ، بل كنت خاصة غاضباً على « العصامي » : ألم يكن الأحسق يستطيع إذن أن يهلك نفسه ! ألم يكن يدرك الخطر الذي يواجهه ؟ كان باقياً له حظ ، حظ صغير . فلئن وضع كلتا يديه على الطاولة . ان جانبي الكتاب ، لئن ظل ساكناً تماماً ، فربما أملت هذه المرة من قدره . ولكني كنت « أعرف » انه سيفوت عليه حظه : كان الاصبع يمر رقيقاً ، ذليلاً ، على البشرة الساكنة ، ويلامسها بالكاد ، من غير ان يجزؤ على الاستسلام لثقله : فكأنه كان واعياً فطاخته . ورفعت رأسي فجأة ، غير قادر على ان أتحمل بعد هذا الذهاب والإياب العنيدين : كنت أبحث عن عبي « العصامي » وأسعل بشدة . لأنبته . ولكنه كان قد أسبل جفنيه ، وكان يبتسم . وكانت يده الأخرى قد اختفت تحت الطاولة . وكان القتيان قد كفضاً عن انفسك وأصبحتا ممتنعين جداً . كان الصغير الأحمر يقرص شفتيه ، كان خائفاً ، فكان الأحداث قد تجاوزته . غير انه لم يكن ليسحب يده ، بل لقد تركها على الطاولة . جامدة . متشعبة بعض الشيء . وكان رفيقه فاغراً فة ، بيثة بليدة مدعورة .

وآنذاك أخذ الكورسيكي يهدر . كان قد أقبل من غير ان يُسمع . فوقف خلف كرمي « العصامي » كان قرمزي اللون ، وكان يبدو عليه انه يضحك ، غير ان عينيه كانتا ترسلان الشرر . وقفزت على كرمي ، ولكنني أحسنتي وقد فرّج عبي تقريباً : كان الانتظار أشق من ان نتمل . وكنت أريد أن ينتهي ذلك في أقصر وقت ممكن ، أن يخرجوه من المكتبة ، ادا شاءوا ، ولكن ليته ذلك . والنقط القتيان حبيبتيهما وقد ابضاً حتى أصبحا كالثلج ، وخرجتا في طرفة عين .

وكان الكورسيكي يصيح ، ثلثاً من فرط الغضب :  
 — لقد رأيتك ، لقد رأيتك هذه المرة . ولن تستطيع ان تقول ان ذلك غير صحيح . انك ستقول هذا ، انه ايس صحيحاً ، أليس كذلك ؟ أنظن اني لم أكن ارى حركاتك ؟ ان عيني ليست في جيبى ، يا صاحبي صبراً ، كنت أقول لنفسى ، صبراً ! وحين أقبض عليه ، سيكلفه ذلك غالياً . اوه ، نعم ، سيكلفك ذلك غالياً . انني أعرف اسمك ، وأعرف عنوانك ، لقد استعلمت . لو كنت تدري . واعرف أيضاً معلمك ، السيد شويليه . وهو الذي سيدهش غداً صباحاً ، حين يتلقى رسالة من السيد امين المكتبة ماذا ؟  
 واستطرد وهو يدير عينيه في محجريه :

— اصمت . يجب ألا تتخيل اولاً ان الأمر سيتوقف عند هذا الحد . ان في فرنسا محاكم ، لأشخاص من نوعك . ان « السيد » يتشقق ! ان « السيد » يكمل ثقافته ! ان « السيد » كان يزعمني طوال الوقت من أجل استعلامات او كتب . انك لو تعلم لم تخدعني على الإطلاق .  
 ولم يكن يبدو على « العصامي » أنه مبغوت . لا بد انه منذ سنوات كان يتوقع مثل هذا الحل . ولا بد انه تصور مرة مرة ما الذي سيحدث حين ينزل الكورسيكي بغطى ذئبية خلفه ، وحين يتعجر فجأة صوت غاضب في أذنيه . ومع ذلك ، فقد كان يعود كل مساء ، وكان يواصل مطالعته ، بشكل محموم ، وكان بين النية والفنية . يداعب كاللص يد صبي بيضاء ، او ربما ساقه . ان ما كنت اقراه على وجهه ، كان على الأصح استسلاماً وخضوعاً .  
 ونتم قائلًا :

— لا ادري ما الذي نعينه ، فاقا آني الى هنا منذ سنوات ...  
 وكان ينظأه بالليظ والدتهشة ، ولكن بلا اقتناع . كان يعلم جيداً ان الحادث كان هنا ، وان ليس ثمة بعد ما يمكن ان يرفقه ، وانه ينبغي له ان يعيش دقائقه واحدة واحدة .  
 وقالت جارني :

- لا تُصنع اليه ، فلقد رأيت .

وكانت قد نهضت متاثلة :

- آه لا ، ليست هي المرة الاولى التي أراه فيها ، فيوم الاثنين الماضي ، لا قبل ذلك ، رأيت ولم ارد ان أقول شيئاً ، لأنني لم اكن اصدق عيني ، ولم اكن أعقد ان بالامكان ان يحدث ، في مكتبة يقصدها الناس للتشف ، ما يشير احرار الخجل . ليس لي أنا اولاد . ولكني أرثي للامهات اللواتي يرسلن اولادهن ليدرسوا هنا وهن يحسبن انهم هادئون ، لا يعكر صفوهم أحد ، في حين ان هناك موسخاً لا يحترمون شيئاً ويمنعونهم من كتابة فروضهم .

واقترب الكورسيكي من « العصامي » ، وصاح في وجهه :

- أنسمع ما نقوله السيدة ؟ لست بحاجة لأن تقوم بالتمثيل . فلقد

رأوك ، ايها الرجل النذل !

فقال العصامي في ترصن :

- يا سيد ، اي أبلعك الأمر بأن تكون مؤدباً .

وكان ذلك ينسجم مع دوره . ربما كان يؤد ان يعترف ، ان يفر ، ولكن كان ينبغي ان يمثل دوره حتى النهاية . انه لم يكن ينظر الى الكورسيكي . وكانت عيناه مغلقتين قريباً وكانت ذراعاها متدليتين . وكان متمتعاً الى درجة عظيمة ثم صعد في وجهه فجأة فيض من الدم .

وكان الكورسيكي يخفق من الغضب :

- مؤدب ؟ يا للفخر ! ربما كنت تظن انني لم أرك . اؤكد لك اني

كنت أرافقك . منذ أشهر وانا أرافقك .

فهر « العصامي » كنفه وتظاهر بالعودة الى المطالعة . وكان قد اتخذ ، وهو فرمزي الوجه ، ممثلي العنيس بالدموع ، مظهر الاهتمام البالغ وكان ينظر بتنبه الى صورة من المورايبك البيزنطي

وقالت السيدة وهي تنظر الى الكورسيكي :

- انه يتابع قراءته . . انه جسر !

وظل الكورسيكي متردداً . وفي تلك الاثناء ، كان نائب امين المكتبة ، وهو شاب خجول هاديء يرهبه الكورسيكي ، قد تناول قليلاً فوق مكتبه ، وصاح :

- باولي ، ماذا هناك ؟

وحدثت لحظة عوَم ، واستطعت ان أوْمل ان تظل القضية عند هذا الحد . ولكن لا بد ان الكورسيكي قد ارتد على نفسه وأحس مضحكاً . فإذا به ، وهو في ثورة اعصابه ، لا يعرف بعد ما ينبغي ان يقول لهذه الضحية الصامتة ، وإذا به يقذف الفراغ بضربة من قبضة يده . والتفت العصامي مذعوراً ، وكان ينظر الى الكورسيكي . فاغر الفم . وكان في عينيه خوف مطيع . ثم قال بحسرة : - اذا ضربتني رفعت شكوى ، اريد ان اذهب بجلد رضائي .

وكنْتُ قد نهضت بدوري ، ولكن بعد فوات الاوان . فقد أرسل الكورسيكي أنة شهوانية صغيرة ، وفجأة سحق قبضته على أنف العصامي . وذات لحظة ، لم أر بعد الا عيني هذا الأخير ، عينيه الرائعتين المتوحشتين ألماً وخجلاً فوق كمّ وقبضة سمراء . وحين سحب الكورسيكي قبضته . كان أنف العصامي يترف دماً . وأراد ان يرفع يديه الى وجهه ، ولكن الكورسيكي ضربه أيضاً على زاوية شفتيه . فاسترخى العصامي على كرسيه ونظر امامه بعينين خجلتين رقيقتين وكان الدم يسيل من أنفه على ثيابه . وتلمس الطاولة بيده اليمنى بحثاً عن رزمته ، بينما كانت يده اليسرى تحاول بعناد لمس منخريه اللذين كانا يقطران . وقال كأنما يحدث نفسه :

- انني ذاهب .

وكانت المرأة التي بجانبني تمتعة الوجه وعيناها تلتصمان . وقالت :

- انك تستحق ذلك ، ايها القدر !

وكنْتُ أرنجف غضباً ، وقد استدرت حول الطاولة ، فقبضت على الكورسيكي الفصير من عنقه ورفعته وأنا ارتعش : وكان يوسمي ان أحطمه على الطاولة . وكان قد اصبح ازرق اللون وهو يتخبط ، وبحاول ان يغمشي .

ولكن ذراعيه القصيرتين لم تكونا تدركان وجهي . ولم اكن افول كلمة ،  
ولكني كنت اريد ان أدق أنفه وأشوه وجهه . وفهم ذلك ، فرغ مرفقه  
ليحامي وجهه : وكنت مسروراً لأنني كنت ارى انه كان خائفاً . وأخذ  
بهذه فجأة :

دعني ابها الوحش . أنكون انت ايضاً ...

وما زلت أنساءل لماذا تركته . هل خشيت المضاعفات ؟ انكون هذه الاعوام  
الكسول في بوفيل قد غمرتني بالصدأ ؟ لو حدث ذلك في الماضي لما تركته من  
غير ان احطم اسنانه . والفتت الى العصامي ، وكان قد نهض اخيراً . ولكنه  
كان يتفادى النظر الي . وذهب خافض الرأس يتزع معطفه عن المشجب .  
وكان "بمر" بلا انقطاع يده اليسرى تحت أنفه ، كما لو كان يريد وقف التزيف .  
ولكن الدم ظل يقطر ، وكنت اعشى ان يعود عليه ذلك بالأذى ودمدم ،  
من غير ان يتعلم الى احد :

— انقضت اعوام وأنا اجيء الى هنا ...

ولكن الرجل القصير ما كاد يستقر على قدميه حتى اصبحت مرة اخرى  
سيد الموقف ، فقال للعصامي :

— حُلْ عن ظهري ولا تضع قدميك بعدُ هنا على الاطلاق ، والا  
استدعيت الشرطة لإخراجك .

وادركت العصامي في آخر السلم . وكنت متزعجاً ، خجلاً من خجله ،  
ولم اكن اعرف ما يجب ان افول له . ولم يبدُ عليه انه لاحظ حضوري وكان  
قد اخرج اخيراً منديله . وكان ييصق شيئاً ما . وكان انفه يتزف اقل من ذي قبل .  
وقلت له بارتباك :

— تعال معي الى الصيدلي .

فلم يجب . وكانت ضجة كبيرة تنفثت من قاعة المطالعة ولا بد ان  
الجميع كانوا يتكلمون في وقت واحد . وقد أطلقت المرأة ضحكة ثاقبة .  
وقال العصامي :

- لن أستطيع بعدُ أبداً ان اعود الى هنا .  
واستدار ينظر نظرة حائرة الى السلم ومدخل قاعة المطالعة . وقد أسالت  
هذه الحركة الدم بين يافته المنشأة وعنقه . وكان فيه وخداه ملطخة بالدم .  
وقلت له وانا آخذه من ذراعه :

- تعال .

فارتعش وتخلّص بعنف :

- دعني .

- ولكنك لا تستطيع ان تبقى وحدك . يجب ان يُغسل وجهك ،  
وان يُغنى بك .  
وكان يردّد :

- دعني ، ارجوك يا سيدي ، دعني .

وكان على وشك ان يسقط في نوبة الأعصاب : فركته يتيعد . وأضاءت  
الشمس الغاربة ظهره المنحني لحظة ، ثم اختفى . وعلى عتبة الباب ، كان ثمة  
اطلحة دم ، بشكل نجمة .

بعد ذلك ساعة

الجو رمادي ، والشمس تغيب ، بعد ساعتين ، سيُنطلق القطار . لقد  
اجتازت للمرة الاولى الحديقة العامة ، وانا اتترّنه في شارع بوليه . انني  
اعرف ، انه شارع بوليه ، ولكني لا اذكّره . حين كنت أسلكه عادة ،  
كان يجبل اليّ اني اجتاز كثافة عميقة في الحسّ السليم : كان شارع بوليه  
الحسن المربع شبه برصائه الملائى بالقطاظة ، وطريقه المقوّسة المزقنة ، الطرق  
الوطنية حين تجتاز الدساكر الغنية وتحيط نفسها من الجانبين ، على طول  
كيلومتر . بالبيوت الضخمة ذات الطابقين ، وكنت أدعوها شارع فلاحين ،  
وكانت تسحرني لأنها كانت جدّ ناشزة ، وجدّ مفارقة في مرفأ للتجارة . ان  
البيوت اليوم قائمة هنا ، ولكنها فقدت مظهرها الربيفي ، انها عقارات ، وهذا



كل شيء . لقد داخلني ، في الحديقة العامة منذ لحظة ، شعورٌ من هذا القبيل : كانت النباتات والأراضي العشبية ونبع أوليفيه ماسكوريه تبدو عبيدة لفرط ما كانت لا مبررة . انا افهم : ان المدينة تبدأ هي أولاً بالتحلي عني . انني لم اترك بوفيل ، ولكنني مع ذلك لست فيها بعد . ان بوفيل صامتة . وانني اجد غربياً ان يجب علي ان ابقي ساعتين بعد في هذه المدينة التي نصف اثانها ، من غير ان نهم بي ، وتضعه تحت مفارشها لتستطيع ان تحسره بكل تضارته ، هذا المساء او غداً ، لقادمين جدد . انني احسني منسياً اكثر من اي وقت آخر . خطوات بضع خطوات وقوفت . انني أندوق هذا النسيان الكلي الذي سقطت فيه . انا بين مدينتين . احدهما تجهلني ، والاخرى لا تعرفني . فن يتذكرني ؟ ربما امرأة ثقيلة شابة في لندن ... ومع ذلك ، اترأها تفكر بي ؟ انا ؟ الواقع ان هناك ذلك الرجل ، ذلك المصري . لعله قد دخل غرفتها ، ولعله قد اخذها بين ذراعيه . انني لا احسده ، فانا اعلم جيداً انها تعيش وقد عذمت حواسها ، حتى ولو كانت تحبه من صميم قلبها ، فانه سيكون مع ذلك حباً ميتة . انني انا الذي حصلت على آخر حب حي لها . غير ان هناك مع ذلك هذا الذي يمكن ان يمنحها اياه : اللذة . فاذا كانت بسبيل ان تراضى وتسقط في الاغترام ، فليس اذن شيء ما بعد يربطها بي . انها تعاني اللذة ، ولست بعد بالنسبة لها اكثر من شخص لم يلق بها قط ، لقد افرغت نفسها مني دفعة واحدة ، وجميع وجدانات العالم الأخرى ، هي ابصاراً فارغة مني . وهذا يعود علي بشعور الطرافة . ومع ذلك . فانا اعلم جيداً اني كائن ، و « اني » هنا .

والآن ، حين اقول « انا » يبدو لي ذلك اجوف . انني لا اتوصل بعد جيداً الى ان احسني ، لفرط ما انا منسي . ان كل ما يبقى واقعياً في ، هو كينونة "تحسن" انها كائنة . انني انتاب تثاراً طويلاً ، عذبا . ان انطوان روكتان غير كائن في نظر احد . وهذا ما يسليني . وما هذا ، انطوان روكتان ؟ انه من التجريد . ذكرى صغيرة صفراء مني تنوم في وجداني . انطوان روكتان .

وفجأة تصفر " الأنا " ، وتصفر " ، وينتهي الامر ، وتنتهي .

ان الوعي بخط " بين الجدران ، صافياً ، جامداً . قاحلاً . انه يتأبد . ليس ثمة من يسكنه بعد . كان ثمة من كان الساعة يقول : " أنا " ويقول : " وعي " من ؟ كان في الخارج شوارع متكسمة ، ذات ألوان وروائع معروفة . وتبقى جدران مغلقة . وعي مغفل . ذلك ما هو موجود : جدران ، وبين الجدران ، شفافية صغيرة حية ولا شخصية . ان الوعي كائن كالشجرة ، كتينة العشب . انه ينمس ، ويضجر . كينونات صغيرة فارغة تعمره كما تعمر العصافير الأغصان . تعمرها وتختفي . وعي منسي " ، مهجور بين هذه الجدران ، تحت السماء الرمادية . وها هو ذا معنى وجوده : هو انه يعني انه زائد على الكزوم . انه يتحلل ويذوب ، ويتناثر . ويسمى لأن يضيح على الجدار المستمر ، على طول المصباح ، او هناك في دخان المساء . ولكنه لا ينسى نفسه " أبداً " ، انه يعني انه وعي ينسى نفسه . هذا هو قدره . ان هناك صوتاً مخنوقاً يقول : " القطار سينطلق بعد ساعتين " وهناك وعي " لهذا الصوت . هناك ايضاً وعي وجه . انه يمر على مهل ، مليئاً بالدم ، ملطخاً ، وعينه الكبريتان تدمعان . هو ليس بين الجدران ، هو ليس في اي مكان . انه يتلاشى ، ان جسماً مقوساً بحل " محله برأس دام ، ويتعد بخطى بطيئة ، ويبدو انه يتوقف لدى كل خطوة ، ولا يتوقف أبداً . هناك وعي لهذا الجسم الذي يسير ببطء في شارع معتم . يمشي ولكنه لا يتعد . والشارع المعتم لا ينتهي ، انه يضيح في العدم . هو ليس بين الجدران . وهو ليس في اي مكان . وهناك وعي صوت مخنوق يقول : " ان العصامي يتيه في المدينة " .

لا في المدينة عينها ، ولا بين هذه الجدران المتداعية ، وانما يمضي العصامي في مدينة متوحشة لا تنساء . ان هناك اشخاصاً يفكرون فيه ، الكورسيكي ، والمرأة الضخمة ، وربما جميع الناس ، في المدينة . انه لم يغسر بعد ، ولا يستطيع ان يغسر أناه ، تلك الأنا المعذبة ، النازفة التي لم يريدوا ان يجهزوا عليها . ان شفثيه ومنخريه تؤله ، هو يفكر : " انني اتوجع " . ويمشي . يجب ان يمضي . فلو وقف لحظة واحدة لاتصبت حوله فجأة جدران دار الكتب العالية ،

وحسب دأخلها، وسوف ينبح الكورسيكي إلى حابه. وسيعود المشهد من جديد،  
 منشأها في كل تفاصيله، وستنهقه المرأة. يجب أن تكون في سجن الاشغال  
 الشاقة. تلك القذارات! انه يمضي. وهو لا يريد ان يعود إلى مرله:  
 فانكورسيكي ينهره في غرفته. والمرأة والصبيا. ولا مجال للإنكار. فقد  
 رأيتك، وسيعود لشهد من جديد انه يفكر. يا لبي. ليني لم افعل ذلك،  
 لينة كان بإمكانني لا افعل ذلك. ليت ذلك تمكن الا يكون حقيقياً! ٥

ويروح الوجه الغنى ونحي. امام الوعي. ٦ عبد إلى الانتحار. ولكن  
 لا تلك الروح الغنية المظلمة. لا يمكن. تفكر بالثوت

٧ هناك معرفة الوعي. انه يرى نفسه من جانب إلى جانب. مطمئناً وفارغاً  
 بين الحدران. منحزراً من الانسداد الذي كان يمر به. محسوماً لانه ليس احداً.  
 الصوت يقول. ٨ الصديق تسحلت. والقطر عصي بعد ساعتين. الحدران  
 تنحط بنبأ وشغلاً. هناك وهي لطريقة تعصيب الطرق. ووعي لمخزن معمل  
 الحداد. وهي تقتله بكفة. والصوت يقول. ٩ للمرة الأخيرة.

وعني آني. آني السبعة آني المحور. ١٠ في عرفتها بالصدق. هناك وعني  
 الألم. الألم. ومع بين الحدران الطويلة التي تعصي. ولن تعود أبداً. ١١ وانما إلى  
 سنهر من هذا أبداً. ١٢ الصوت يعصي بين الحدران الخس جار. بعض هذه  
 الأيام. ١٣ ذلك لن ينتهي أبداً. ويعود للنس حل مهل. من الخلف،  
 بطريقة حفية. ليستبعد الصوت. ويعني الصوت. ١٤ يتمكن من التوقف،  
 ويمشي الحسم. وهناك وعني هذا كله. ومع الأسف. وعني الوعي. ولكن  
 ليس نمة احد. ١٥ أنتم بيدي يديه. يشق على نفسه لا احد. وانما هو ألم  
 ممرات محص. ألم مسي. لا يستطيع. يسى نفسه. ويقول الصوت:  
 هوذا مفهم. ١٦ سيمودي شامبو. ونسقى. ١٧ الأنا. في الوعي. انها انا.  
 بطول. ١٨. وانما دأخل إلى يس عما قليل. وقد قدمت اودع صاحبة  
 الفتى.

— جنب أودعك

- انك مسافر ، يا سيد الطوان ؟

- سأقيم في باريس . تغيراً للجو .

- يا للمحظوظ !

كيف تأتني لي ان أصفط على شفني على هذا الوجه العريض ؟ إن جسمها لا يخصني حتى الأمس . كان بإمكانني ان أحدث بهذا تحت الثوب الصوفي الأسود أما اليوم . فان الثوب غير قابل للاختراق . هذا الجسم الابيض ، معروفه النافرة ، أنراه كان حليماً ؟

قالت صاحبة الفندق :

- سوف نشتاق إليك . ألا تريد ان تأخذ شيئاً ؟ اني أنا التي أدعوك .

وجلسنا لشرب . وخففت صوتها قليلاً ، وقالت بأسف مؤدب :

- لقد نعدت كثيراً عليك . وكنا متفاهمين جداً .

- سأعود لرؤيتك .

- هو كذلك ، يا سيد الطوان . حين تمر في بوفيل ، ستخرج علينا لإلقاء

تحية صعبة . ستقول لنفسك : « سأذهب لألقي التحية على السيدة جان ، إن

ذلك سببها » . صحيح ، إن المرة يجب ان يعرف ما الذي انتهى إايه الناس .

والواقع ان الزبائن هنا ، يعودون إلينا دائماً . إن عندنا بحارة . أليس هذا صحيحاً ،

وموظفين من شركة الترانسا : اني أقضي أحياناً عامين من غير ان أراهم ،

فهم إما في البرازيل او في نيويورك يقومون بالخدمة في بوردو على باخرة

للمساجري . ثم يأتي يوم يعودون فيه : « مرجياً ، يا سيده جسان » ونشرب

قلحاً معاً . وسوف تصدقني اذا شئت ، اني أتذكر ما اعتادوا ان يأخذوه من

شراب . بعد عامين من الغياب ؟ فأقول لمادلين : « قدمي قدح لرموت جاف

للسيد بيار . وفدح بوايبي سينزانو للسيد ليون » . فيقولون لي : « عجباً كيف

تذكرين ذلك » ؟ فأجيبهم : « تلك هي مهنتي » .

وكان في جوف القاعة رجل سمين بضاجعها متد حين . وقد ناداها :

- صاحبة الفندق الصعبة !

فنهضت :

- اعذري ، يا سيد انطوان .

واقتربت الخادم مني :

- أهكذا تركنا ؟

- إني ذاهب الى باريس .

- لقد مكنتها ، باريس . مدة عامين . كنت أعمل عند «سيمون» ولكني

كنت أشاق هذه المدينة .

وترددت لحظة ، ثم أدركت ان ليس لديها بعد ما تقوله لي :

- إذن ، مع السلامة ، يا سيد انطوان .

ومسحت يدها بمروها وبسطتها لي .

- مع السلامة ، مادلين .

وانصرفت . وجذبت «جريدة بوفيل» ، ثم دفعتها : لقد قرأتها منذ حين

في «دار الكتب» من أول سطر فيها الى آخر سطر .

ولم تعد صاحبة الفندق ، لقد تركت لصديقها يدبها السميتين ، فأخذ

يعجنهما في هوس .

سيمضي القطار بعد ثلاثة أرباع الساعة .

وأجريت حساباتي . على سبيل التسلية .

الف ومثا فرنك في الشهر . ليس ذلك بالمبلغ الدسم . عل انني اذا ضيقت

على نفسي قليلاً فانه لا بد ان يكفيني . غررة أجرتها ثلاثئة فرنك . وخمسة

عشر فرنكاً للطعام كل يوم : ويبقى أربعة وخمسون فرنكاً للغسيل والسكنى

والنفقات الصغيرة والسبا . لن أكون بحاجة الى البياض والملابس قبل فترة

طويلة . فان بذلتي «تطيفتان» بالرغم من انهما تلمعان قليلاً لدى المرفقين : انهما

تخدماني ثلاث سنوات او أربعاً اخرى اذا اعنيت بهما .

عجباً ! أنا ، الذي يسوق حياة القطر هذه ؟ ماعساي أفعل بنهاراتي ؟

اني سوف أنتزه . سأقصد حديقة «التوبلري» ، فأقتعد كرسيًا حديدياً — أو

بالأصح مقعداً من المقاعد الخشبية الثابتة ، بداعي التوفير . وسأقصد دور الكتب للمطالعة . وبعد ذلك ؟ السبأ مرة واحدة في الاسبوع . هل أحضر حفلة يهلون يوم الاحد ؟ هل سأذهب فإلعب الكروكيه ، مع متقاعد الكسمبورغ في الثلاثين من العمر ؟ إنني أشفق على نفسي ! هناك لحظات أتساءل فيها أليس من الأفضل ان أنفق في عام الثلاثة الف فرنك التي تبقى لي — وبعد ذلك ... ولكن يمّ يعود عليّ ذلك ؟ ثياب جديدة ؟ نساء ؟ رحلات ؟ لقد حصلت على هذا كله ، وقد انتهى الأمر الآن ، وليس لديّ بعد أية رغبة فيها سيقى . سوف أجد نفسي بعد عام ، أفرغ ممي الآن وحتى بلا ذكرى ، وسأكون جباناً أمام الموت .

ثلاثون عاماً : و ١٤.٤٠٠ فرنك كمدخول . قسائم أقبضها كل شهر . أنا مع ذلك لست بالشيوخ ! فليعطوني شيئاً أعمله ، أي شيء ... من الأفضل ان أفكر بشيء آخر ، لأني في هذه اللحظة ، انما أمثل انا أعلم جيداً انني لا أريد ان أفعل شيئاً : ففعل أي شيء ، انما هو خلق كينونة — وهناك من الكينونة ما هي الكفاية .

الحقيقة هي انني لا أستطيع ان أنترك قلبي : أظن اني سأصاب به العثيان ، وعندني شعور بأنني أؤخره إذ أكتب . ولهذا أكتب ما يخطر في بالي . وأسمع مادلين التي تريد ان ترضيني ، تناديني من بعيد وهي تُرثيني اسطوانة : — اسطوانتك ، يا سيد العطوان . التي تحبها ، أنريد ان أسمعها للمرة الأخيرة ؟

— إذا شئت .

قلت ذلك نادياً . ولكني لا أحسني في وضع ملائم للإصغاء الى لحن جاز . غير انني أتبته مع ذلك ، لأنني سأستمع الى هذه الاسطوانة للمرة الأخيرة ، كما تقولين يا مادلين : انها قديمة جداً . بل أقدم مما ينبغي ، بالنسبة للريف ، عيشاً سأبحث عنها في باريس . سوف تضعها مادلين على كفة الفونوغراف ، وستدور . وفي الخروز ، ستأخذ إبرة الفولاذ في القفز والصرير ، وحين تنتهي

الحزوز من سوقها ، على شكل حلزوني ، الى وسط الاسطوانة ، سيتهي كل شيء ، وسيصمت الى الأبد الصوت الأبح الذي يغني بعض هذه الأيام . وبدأت الاسطوانة .

إن هناك حفي يلتصقون التعازي في القرون الخميلة . مثال ذلك امرأة عمي « ييجوا » ، وان « بريلود » شويان قد ساعدني مساعدة عظيمة لدى موت عمك المسكين . وقاعات الحفلات الموسيقية تنص بالأذلة الخاضعين المهانين الذين يسعون ، مغمضي العيون ، الى تحويل وجوههم المتفتحة الى شرائط لافطة . انهم يتصورون الآن الأصوات الملتصقة تسيل فيهم . عذبة معدبة ، وان آلامهم تصبح موسيقية ، كالآلام فرتر الشاب . وهم يظنون ان الجبال رؤوف بهم ، قيا للفروج الحمفي !

أود ان يقولوا لي اذا كانوا يجدونها رؤوفاً بهم ، تلك الموسيقى . لاشك اني كنت ، منذ لحظة . بعيداً عن ان اسبح في البقطة . كنت على السطح أجري حساباتي . بصورة آلية . وفي الجوف ، كانت تأسن جميع هذه الأفكار المزعجة التي اتخذت شكل استهجمات غير مصوغة ، واندعاشات بكاء . والتي لا تركني بعد ليلاً ولا نهراً . أفكار عن آني ، وعن حياتي الضائعة . وتحت ذلك ايضاً يبيع الغنيان ، خجولا كالنجم ولكن في تلك اللحظة ، لم يكن ثمة موسيقى ، وكنت ستماً وهادئاً . كانت جميع الاشياء التي تحيط بي مصنوعة من المادة التي انا مصنوع منها ، من نوع من الألم الفبيح . كان العالم جد بشع ، خارج نفسي ، وجد بشعة تلك الاقداح القدرة على الطاولات ، واللطخات السمراء على المرأة ومربول مادلين والمهينة الودية لعاشق صاحبة الفندق ، وجسد بشع وجود العالم نفسه ، وكنت أحسني مطمئناً ، بين امراء الاسرة .

إن هناك الآن أغنية الساكفون هذه . واني لأشعر بالهجل . إن ألماً صغيراً مجيداً قد ولد ، ألم نموذجي . اربعة ألحان من الساكفون . إنها تروح ونجي . وكأنها تقول « يجب ان نفعل مثلنا » او تنألم « على القياس » نعم ، بالطبع ، أود كثيراً ان أنألم على هذا النحو ، على القياس في غير ما التذاذ ، ومن غير شفقة

على نفسي ، وبطهارة قاسية . ولكن أليكون الذنب ذنبى اذا كانت البيرة داخلة  
 في جوف كاسي . واذا كان نعمة لطخات سمراء على المرأة ، واذا كنت زائداً  
 على الزوم ، واذا كان أخلص آلامي وأجفها يتلبد ويثقل . بكمية مفرطة من  
 اللحم وبشرة أعرض عما ينبغي ، كفيل البحر ذي العينين الصخمتين التديبتين  
 المؤثرتين ، ولكن البشع أيضاً ؟ كلا ، ليس بالامكان القول بأنه ذو راقصة  
 وشققة . هذا الألم الصغير الذي يطوف فوق الاسطوانة ويبهمني . بل هو ليس  
 ساخراً : فهو يدور بجذل ، منشغلاً بنفسه ، لقد قطع كالمنجل صميمة العبالم  
 التفهية ، وهو الآن يدور ، ونحن جميعاً ، مادلين ، والرجل الضخم ، وصاحبة  
 القندق . وأنا نفسي والطاولات والمقاعد والمرأة الملتطخة ، والأقداح ، نحن  
 جميعاً الذين كنا نستمع للوجود والكيونة لأننا كنا فيها بينما - لقد فاجأنا الألم  
 في المبادل ، في الاتساق اليومي : انني خجسل من اجل نفسي ومن أجل  
 ما يوجد أمامه .

إن هذا الألم غير كائن . قلتن نهضت وانترعت هذه الاسطوانة من الكفة  
 التي تحملها ولتن كسرتها الى قسمين ، فاني لن أبلغه . هو الألم . انه فيها وراء  
 - دائماً فيها وراء شيء ، صوت او نغمة كان . إنه عبر كثافات وكثافات من  
 كيونة ينحسر رقيقاً صلباً . حتى اذا أراد المرء النفاذ لم يلتق إلا موجودات ،  
 بصطدم بوجودات خالية من المعنى . إنه خلفها : حتى انني لا أسمع . وانما  
 أسمع اصواتاً ، اهتزازات هواء تكشف عنه أنه غير موجود . ما دام ليس  
 فيه ما هو زائد على الزوم : إن الباقي كله هو زائد على الزوم بالنسبة إليه . إنه  
 « كائن » .

وأنا أيضاً أردت ان « أكون » . بل أنا لم أرد غير هذا . تلك هي كلمة حياتي  
 الدقيقة : فداخل جميع هذه المحاولات التي لا تبدو بلا صلات ، أجد الرغبة  
 نفسها : ان أطرده الكيونة خارج نفسي ، وان افرغ اللحظات من شحمها ،  
 وان ألويها وأجنفها ، وان أنظهر وأنصلب . لكي أنتهي الى اطلاق صوت  
 واضح دقيق لنغمة ساكسون . بل إن بإمكان ذلك ان يكون عبرة خلقية : كان



ثمة انسان مسكين قد أخطأ العالم . كان كائناً ، كالناس الآخرين ، في عالم الحدائق العامة ، في المشارب ، في المدن التجارية ، وكان يريد ان يُقنع نفسه بأنه كان يعيش في مكان آخر . خلف قماش اللوحات . مع رؤساء « تيشوريه » ومع فلورنسي « غوزولي » . خلف صفحات الكتب . مع فابريس ديل دونغو وجوليون سوريل . خلف اسطوانات الفونوغراف . مع شكواى الجاز الجافة . وبعد ذلك . بعد ان ناله مدة طويلة . فهم . ففتح عينيه . فرأى أنه كان ثمة خطأ . لقد كان في مشرب . بالعبط . أمام قدح من البيرة العاترة . وقد ظل مرهقاً عن المقعد ، وفكر . انني أهله . وفي تلك اللحظة بالذات ، في الجانب الآخر من اللوحود ، في ذلك العالم الآخر الذي تمكن رؤيته من بعيد ، ولكن دون الاقتراب منه اطلاقاً . أخذت أغنية صعبة ترقص . وتغني : « مثلي يجب ان تكون . يجب ان تعي على الفياس » . وغنى الصوت .

Some of these days

You'll miss me honey

ولا بد ان الاسطوانة كانت مجروحة في هذا الجانب . لأن صجة غريبة كانت تنبعث منها . وثمة شيء يقيص القلب . هو ان الأغنية لم "تمس" على الاخلاق بهذا السعال الصغير الذي نعدته الابرة على الاسطوانة . إنها جد بعيدة جد بعيدة خلفه وهذا أيضاً . أهمهم . إن الاسطوانة تخرج وتلف . واسمه ربما كانت قد ماتت . وأنا مسافر عما قليل . سوف أستقل قطاري . ولكن خلف الموجود الذي يسقط من حاضري الى آخر . بلا ماض . بلا مستقبل ، خلف هذه الاصوات التي تنحلل من يوم لآخر . وتتفشر وتسل تحت الموت ، تطل الأغنية هي نفسها . بضرة صلبة . كشاهد بلا هودة .

وصمت الصوت . وتنحنت الاسطوانة قليلاً ثم توقفت . وأخذت المقهى . وقد نحرر من حلم مرعب . بنجر لذة ان يكون ويصعب من جديد . ويبدو

الدم في وجه صاحبة المقهى ، وهي ترسل الصفحات الى حداثي صديقها الجديد ،  
 ذينك الخدين الضخمين الابيضين . ولكنها لا تنجح في تلويثها . انها خدأ  
 ميت . اما انا ، فاني اذن واغرق في نصف سيات . بعد ربع ساعة ، سأكون  
 في القطار ، ولكني لا افكر بذلك . اني افكر باميركي حليق الذقن ، ذي  
 حاجبين سميكين اسودين . يحنق من الحر ، في السابق العشرين من احدى  
 بنايات نيويورك . ان السماء تحترق فوق نيويورك ، وقد انتهت زرقة السماء ،  
 واقبلت السنة غيب ضخمة صمراء تاحس السطوح ، ان صبية بروكلين سيقفون  
 وهم في سروال الحمام . تحت سنان الرش . والغرفة المظلمة في الطابق العشرين  
 تضج تحت نار حامية . ويتهجد الاميركي ذو الحاجبين الاسودين . وينهت  
 ويتلحرج العرق على خديته . انه جالس بقمصه ذي الكمين القصيرين ، امام  
 البيانو ، وان في فمه مذاق دخان ، وفي رأسه شبح هواء . « بعض تلك الايام »  
 ان نوم قادم بعد ساعة ، وعلى فخذله قرعته المسطحة . وسوف يسترخيان  
 كلاهما على الكرسي الجلدية ويشربان كؤوساً دهاقاً من الكحول . فتقبل نار  
 السماء لتذهب حلقياً ، وسيعمران ينقل نعاس محرق هائل . ولكن يجب اولاً  
 عزف هذا اللحن . « بعض تلك الايام » وتمسك اليد الدبقة بالقلم على البيانو .  
 « بعض تلك الايام ... »

لقد حدث ذلك على هذا النحو . على هذا النحو او على نحو آخر ، الامران  
 سيان . انها ولدت هكذا . وقد اختارت ، لتولد ، جسم ذلك اليهودي المنهدم  
 ذي الحاجبين الضخمين . كان يمسك قلبه برخاوة ، وفطرات من العرق كانت  
 تسقط من اصابعه ذات اخواتهم على الورق . ولماذا لم اكن انا ؟ لماذا وجب ان  
 يكون بالذات ذلك العجل الضخم الطافح بالبيرة القذرة والكحول لكي ثم  
 هذه المعجزة ؟

— مادلين ، هل تريد ان تضمي الاسطوانة مرة اخرى ؟ مرة واحدة ،  
 قبل ان اذهب ؟

فاخذت مادلين تضعك وأدارت المفتاح . فعاد الصوت من جديد . ولكني

كففت عن التفكير بنفسى . اننى افكر بذلك الشخص هناك . الذي أنف هذا اللحن ، ذات يوم من تموز ، في حرة غرفته الأسود . اننى احاول ان افكر فيه عبر النغم . عبر الاصوات البيضاء المزة التي يرسلها الساكسون . لقد صنع هذا . كانت له هموم . ولم يكن كل شيء مجرى كما كان ينبغي : كانت ثمة ثغرات ينبغي دفعها . ثم انه كان لابد ان تكون ثمة ، في مكان ما ، امرأة لا تفكر فيه على النحو الذي كان يتمناه . ثم انه كان ثمة ابضاً تلك الموجة الهائلة من الحرارة التي كانت تحول الناس الى برك من الشحم الذائب . ان ذلك كله ليس فيه ما هو جميل ولا ما هو جيد . ولكنى حين اسمع الاغنية وافكر بأن ذلك الرجل هو الذي وضعها . فأنى اجد عذابه ورشح عرقه . . المؤثر . لقد كان محظوظاً . ولا بد انه لم يدرك ذلك . لا بد انه قد فكر : ان هذه الاغنية ، اذا اوثقت بعض الحظ ، ستعود على خمسين دولاراً ! ولكن . هذه هي منذ سنوات ، المرة الاولى التي يبدو لي فيها رجل ما مؤثراً . اود لو اعرف شيئاً عن هذا الرجل . سيهتني ان اعرف نوع اعموم التي كان يعاتبها ، اذا كانت له امرأة او اذا كان يعيش وحيداً . وليس ذلك بداعي نزعة انانية بل على العكس من ذلك . وانما لانه فعل هذا . ليس بي رغبة الى التعرف عليه . . والحق انه ربما يكون قد مات . وانما اود ان احصل على بعض المعلومات عنه وان اتمكن من التفكير به ، بين وقت وآخر ، اذ استمع الى هذه الاسطوانة . وأحسب ان هذا الشخص لن يتأثر على الاطلاق اذا قيل له ان هناك ، في المدينة الفرنسية السابقة ، قريباً من المحطة ، شخصاً يفكر فيه . اما انا ، فأكون سعيداً ، لو كنت مكانه ، اننى احسده . يجب ان امضي . وأنهى . ولكنى اظل لحظة متردداً ، فانا اود ان اسمع الزيجية تغني . للمرة الاخيرة . انها تغني . ها هما اثنان قد أنفذا : اليهودي والزيجية . أنفذا ، لعلها قد ظننا انها ضاعا حتى النهاية ، غرقا في الكينونة . ومع ذلك ، ليس ثمة من يستطيع ان يفكر في كما افكر فيها . بذلك العذوبة . لا احد ، حتى ولا آبي . انهم بالنسبة لي يشبهون قليلاً الموتى ، يشبهون قليلاً ابطال رواية . لقد اغتسلوا

من ثم أن يكونوا . لا نهما ، بكل تأكيد - ولكن الى الحد الذي يستطيع الانسان ان يفعله . ان هذه الفكرة تبعث في الاضطراب فجأة - لانني لم اكن اؤمل حتى هذا بعد . انني احس شيئاً يلامسني بخجل ، ولا اجرؤ ان احرك لامي اخشى ان يزول هذا . شيء لا اعرفه بعد : نوع من القرح .

الترجيبة تنفي . ان بالامكان تبرير كينونتها ؟ ولو قليلاً جداً ؟ انني احسني مخوفاً بصورة هائلة . ليس ذلك لان لدي كثيراً من الامل . وانما انا شخص قد تجهل تماماً بعد رحلة في الثلج . ثم دخل فجأة غرفة دافئة واطن . انه سيبنى جامداً امام الباب . ما يزال مقروراً ، وان ارتعاشات طويلة تسري في جسمه .

Some of these days  
You'll miss me honey

انراي لن استطيع ان احرب ؟ طبعاً ، ليست القضية قضية لن موسيقى... ولكن انراي لن استطيع ، في ميدان آخر ؟ يجب ان يكون كتاباً : فانا لا احسن صنع اي شيء آخر . ولكن ، لا كتاب تاريخ . ان التاريخ يتحدث عما سبق ان كان - ولا يستطيع كائن على الاطلاق ان يمر كينونة كائن آخر . لقد كانت غلطني رغبي في ان ابعث السيد دورولبون . وانما اقصد نوعاً آخر من الكتب . لا ادري تماماً اي نوع - ولكن يجب ان يتحدث الناس ، خلف الكلمات المطبوعة خلف الصفحات ، بشيء لن يكون ، شيء فوق الكينونة ، حكاية مثلاً ، كنتك التي لا يمكن ان تحدث ، مغامرة . وينبغي ان تكون جميلة وقاسية كالقولاذ ، وان يجعل الناس ينجفون بكينونتهم .

انني ذاهب . وانا احسني مبهاً . انني لا اجرؤ على اتخاذ قرار . لو كنت واقفاً من ان لي موهبة . . ولكني ابدأ - ابدأ لم اكتب شيئاً من هذا القبيل ، كتبت مقالات تاريخية ، نعم . رغم انها ... اريد كتاباً . رواية . وسيكون ثمة

اناس يقرأون هذه الرواية ويقولون : « ان انطوان روكتان هو الذي كتبها ،  
لقد كان شخصاً احمر الشعر يتسكع في المقاهي » . وسيفكرون في حياتي  
كما امكر في حياة تلك الزنجية : كشيء ثمين ونصف اسطوري .  
كتاب . بالطبع ، لن يكون ذلك اولاً الا عملاً مضجراً ومتعباً ، ولن يمنني  
من ان اكون . ولا ان احس اني كائن . ولكن لا بد ان تأتي لحظة يصبح فيها  
الكتاب مكتوباً ، ويصبح خلفي ، وأظن ان شيئاً من نوره سيسقط على ماضي .  
ولعلي استطيع آنذاك ان اذكر ، عبره . حياتي من غير اشتراش . ولعلي  
ذات يوم . اذ افكر بهذه الساعة بالذات ، هذه الساعة الكثيرة التي انتظر فيها ،  
منحني الظهر . ان يحين الوقت لأصعد القطار . لعلي سأشعر بقلبي يزداد سرعة  
في الحلق وسأقول لنفسي : « في ذلك اليوم . وفي تلك الساعة . انا بدأ كل  
شيء . وأنداك سأتحجج - في الماضي ، وليس في غير الماضي - ان اقبل نفسي » .  
الليل بسيط . وفي الطابق الاول من فندق برنتانيا ، اضيئت نافذتان .  
ورائحة الخشب الرطب تنبعث قوية من مستودع « لاوفيل غار » : ان  
المطر سيهطل غداً على بوفيل .

## تمت